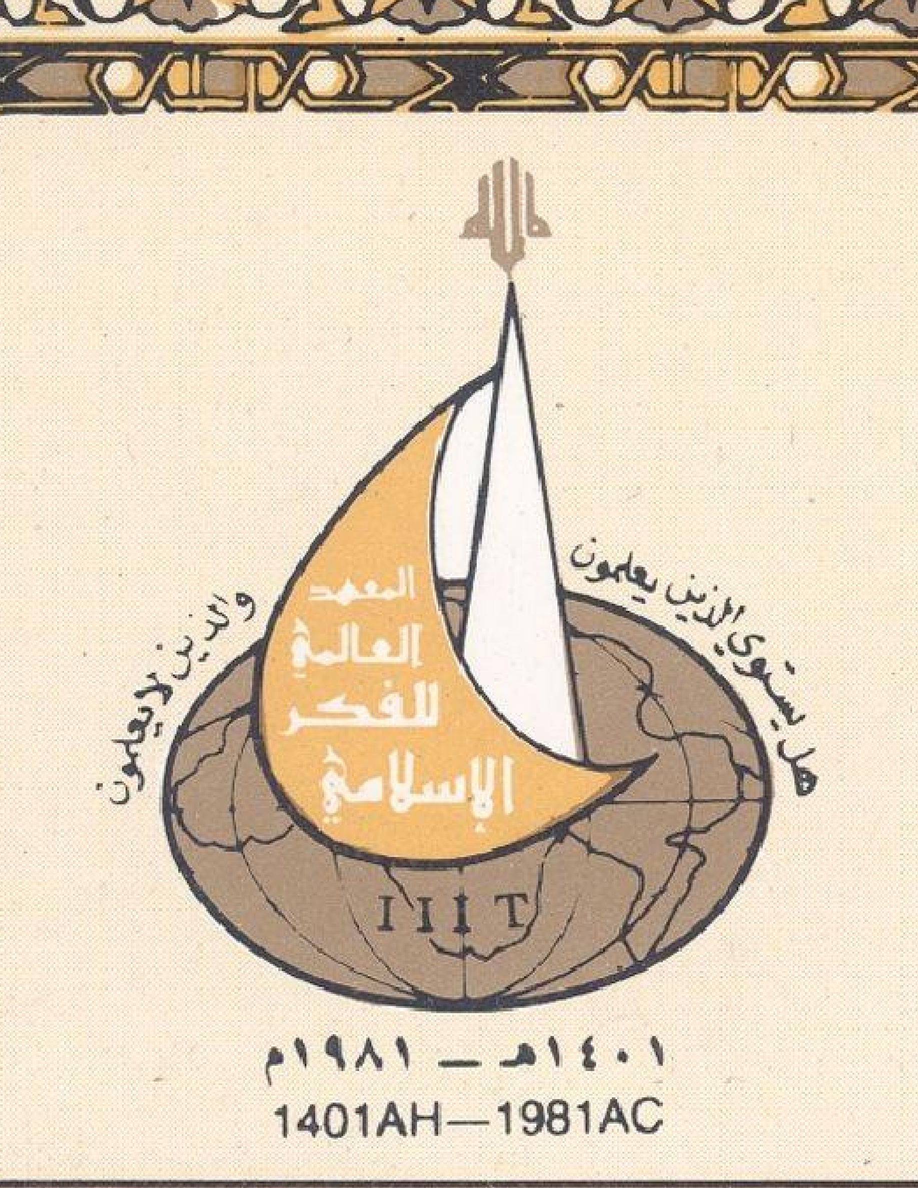


المعهد العالمي للفكر الإسلامي

مشروع العلاقات الدولية في الإسلام (٩)

العلاقات الدولية في التاريخ الإسلامي

الجزء التاسع

الدولة العباسية

من التخلي عن سياسات الفتح إلى السقوط

نادية محمود مصطفى

المشرف العام ورئيس الفريق

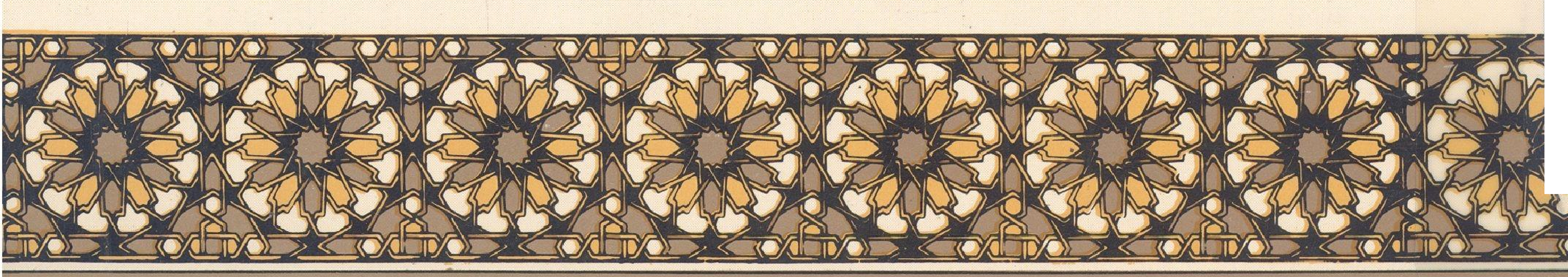
الباحثون

أحمد عبد الونيس شتا — مصطفى محمود منجود

سيف الدين عبد الفتاح إسماعيل — نادية محمود مصطفى

عبد العزيز صقر — نصر محمد عارف

علا عبد العزيز أبو زيد — ودودة عبد الرحمن بدران



المشرف العام ورئيس الفريق

١ - أ. د. نادية محمود مصطفى

أستاذ العلاقات الدولية

كلية الاقتصاد والعلوم السياسية - جامعة القاهرة

الباحثـــــــــــــون

٢ - أ. د. أحمد عبد الونيـــس شتا

أستاذ مساعد القانون الدولي العام

كلية الاقتصاد والعلوم السياسية - جامعة القاهرة

٣ - أ. د. سيف الدين عبد الفتاح اسماعيل

أستاذ مساعد النظرية السياسية

كلية الاقتصاد والعلوم السياسية - جامعة القاهرة

٤ - د. عبد العزيـــــز صقر

دكتوراه في العلوم السياسية

جامعة الاسكندرية

٥ - أ. د. علا عبد العزيز أبو زيد

أستاذ مساعد العلوم السياسية

كلية الاقتصاد والعلوم السياسية - جامعة القاهرة

٦ - أ. د. مصطفى محمود منجود

أستاذ مساعد الفكر السياسي

كلية الاقتصاد والعلوم السياسية - جامعة القاهرة

٧ - أ. د. نادية محمود مصطفى

أستاذ العلاقات الدولية

كلية الاقتصاد والعلوم السياسية - جامعة القاهرة

٨ - د. نصر محمد عـــــارف

مدرس العلوم السياسية

كلية الاقتصاد والعلوم السياسية - جامعة القاهرة

٩ - أ. د. ودودة عبد الرحمن بدران

أستاذ العلاقات الدولية ووكيل

كلية الاقتصاد والعلوم السياسية - جامعة القاهرة

المستشـــــــارون

١٠ - أ. د. حورية توفيق مجاهـــد

أستاذ الفكر السياسي ورئيس قسم العلوم

السياسية الأسبق كلية الاقتصاد

والعلوم السياسية - جامعة القاهرة

١١- أ. د. سعيد عبد الفتاح عاشور

أستاذ التاريخ - كلية الآداب

جامعة القاهرة

١٢ - أ. د. عبد الحميد أبو سليمـــان

أستاذ العلاقات الدولية ورئيس

الجامعة الإسلامية العالمية - ماليزيا

١٣ - أ. د. علي جمعـــه محمد

أستاذ أصول الفقه - كلية الدراسات العربية

والإسلامية - جامعة الأزهر

المســــــاعدون

١٤ - أ. ابراهيم البيومـــي غانم

١٥ - أ. إحسان سيد عبد العظيم

١٦ - أ. أحـــمـد عــبـد الســلام

١٧ - أ. تهـانـي عـبــــلان

١٨ - أ. حامد عبد الماجد قويسي

١٩ - أ. طارق الســعـيــــد

٢٠ - أ. عــبــد الســلام نوير

٢١ - أ. مـجدى مـحـمـد عيـسى

٢٢ - أ. مـحمـد عـاشـور مهـدى

٢٣ - أ. محي الدين محـمد قاسم

٢٤ - أ. فــــوزى خـلـيـل

٢٥ - أ. ناهد عـرنــــوس

٢٦ - أ. هـــاشـم طـــه

٢٧ - أ. هبــــه رؤوف عـزت

٢٨ - أ. هشـام جـعــفــر

تم ترتيب الأسماء حسب ترتيب الحروف الهجائية .

الدولة العباسية

من التخلي عن سياسات الفتح إلى السقوط

(١٣٢ - ٦٥٦هـ / ٧٥٠ - ١٢٥٨م)

الطبعة الأولى
(١٤١٧ هـ - ١٩٩٦ م)

الدولة العباسية

من التخلي عن سياسات الفتح إلى السقوط

(١٣٢ - ٦٥٦هـ / ٧٥٠ - ١٢٥٨م)

د. علا عبد العزيز أبو زيد

المعهد العالمي للفكر الإسلامي
القاهرة
١٤١٧هـ - ١٩٩٦م

(مشروع العلاقات الدولية فى الإسلام ؛ ٩)

المعهد العالمى للفكر الإسلامى
٢٦ ب - ش الجزيرة الوسطى - الزمالك - القاهرة - ج.م.ع.

بيانات الفهرسة أثناء النشر - مكتبة المعهد بالقاهرة .

أبو زيد ، علا عبد العزيز .
الدولة العباسية : (١٣٢ - ٦٥٦هـ ؛ ٧٥٠ - ١٢٥٨م) : نحو القوة والهيمنة ... حتى السقوط / علا عبد العزيز أبو زيد. - ط١. - القاهرة : المعهد العالمى للفكر الإسلامى، ١٩٩٦
ص . سم . - (مشروع العلاقات الدولية فى الإسلام ؛ ٩)
يشتمل على إرجاعات ببليوجرافية .
تدمك . -٤٧ - ٥٢٢٤ - ٩٧٧.
١ - الدولة العباسية - العلاقات الخارجية . .
أ - العنوان . ب - (السلسلة)

رقم التصنيف ٣٢٧ .
رقم الإيداع ٧٢٢٧ / ١٩٩٦ .

المحتويات

مقـــدمـــة

لم تكن معركة الزاب ١٣٢هـ - ٧٥٠ م والتى انتصر فيها العباسيون على الأمويين فقضوا على دولتهم احدى المعارك الفاصلة فى التاريخ الاسلامى وحسب ولكنها كانت ذات نتائج حاسمة بالنسبة للنظام الدولى المعروف يومئذ . فالدولة الأموية - كما رأينا - استطاعت ان تجعل من الدولة الإسلامية أحد الأقطاب الهامة - إن لم تكن القطب الهام الأوحد - المتحكم فى مقدرات النظام الدولى المعروف وقتئذ . فكانت سياسة العالم تصنع بحق فى مركز الخلافة الإسلامية ، وأنتقال السلطة فى الدولة الإسلامية تلك من الأمويين إلى العباسيين يعتبر نقطة تحول رئيسية فى تاريخ النظام الدولى لانه لم يكن مجرد انتقال للسلطة من بيت إلى بيت ملكى آخر على غرار أنتقال السلطة من البيت السفيانى إلى البيت المروانى أيام الدولة الأموية وفى اطارها، ولكنه كان بمثابة تحول جذرى فى استراتيجية التعامل الخارجى للدولة الإسلامية بما يترتب على ذلك من تغيرات حاسمة فى شكل العلاقات الدولية . فسيطرة العباسيين على مقدرات الدولة الإسلامية كانت مقدمة لتغير شامل وجذرى كنا قد شهدنا ارهاصاته فى الدولة الأموية بداية من سليمان بن عبدالملك ، ثم خبرنا التردد فى تبنيه والتذبذب بين اقراره ورفضه عند بعض من جاء بعده من خلفاء وحتى سقوط الدولة الأموية . هذا التوجه هو التحول عن سياسة التوسع والفتوحات العسكرية كأساس أوحد للتعامل مع الأطراف غير الإسلامية .

جاء العباسيون اذن ليحسموا الأمر فى هذا الصدد وليقضوا على أى شك أو تردد بخصوصه فاتخذوا من الاجراءات الحاسمة والخطوات الواضحة ما يثبت تخليهم عن القتال كأداة أولى من أدوات ادارتهم تعاملهم الخارجى ، فنلاحظ منذ عهد المنصور أرهاصات سياسة خارجية تهدف إلى التعايش مع الأطراف الدولية الاخرى ولاتجعل من بين أهدافها الرئيسية القضاء على هذه الأطراف خاصة الدولة البيزنطية ، ولقد ترسخت هذه السياسة بصورة شبه أكيدة بوصولنا إلى عهد الرشيد (١) .

---

١ - نادية حسني صقر ، السلم في العلاقات العباسية البيزنطية في العصر العباسي الأول (مكة المكرمة :المكتبة الفيصلية ١٩٨٥) ص ٧ .

هويس ، دراسة لسقوط للاثنين دولة اسلامية ، م س ذ ، ص ١٢٥ .

عثمان ، الحدود الإسلامية ، م س ذ ، ج١ ، ص ٣٨١ .

محمود شاكر ، التاريخ الاسلامي - الدولة العباسية ج١ (بيروت :المكتب الاسلامي ، ١٩٨٥) ص ٦ .

ويرجع بعض المحللين تراجع الدولة العباسية عن سياسة الفتح والتوسع إلى استغراق الدولة فى المشاكل الداخلية المتعاظمة لدولة مترامية الأطراف [٢] . ورغم أقرارنا بثبوت التأثير السلبى للبيئة الداخلية المضطربة على التعامل الخارجى الفعال ، واستعراضنا لتاريخ التعامل الخارجى للدولة الأموية خير شاهد على هذا ، إلا أننا فى دراستنا أيضا لهذا التاريخ خبرنا عودة سريعة إلى سياسة التوسع دائما بعد كل مرة تنقضى فيها الأحداث الداخلية المعوقة للتحرك الخارجى العسكرى . ولكنا عندما نراجع بدقة الأحداث التى أعقبت أنتقال السلطة من الأمويين إلى العباسيين سيتضح لنا بما لايدع مجالا للشك ان توقف الفتوحات فى الدولة العباسية لم يكن حدثا عارضا وليدا للصراع الداخلى يزول بزوال الحدث الداخلى ولكنه سيصبح سياسة ثابتة للدولة التى سوف تسعى سعيا حثيثا ومنظما نحو تبنى سياسة سلمية فى تعاملها الدولى . فالقتال فى الدولة العباسية لم يعد يستخدم كأداة للتعامل الخارجى إلا فى حالات الضرورة والتى تمثلت أساسا خلال العصر العباسى الأول فى حالات رد الهجوم وحالات التأديب والردع عند الشعور بأنتهاك هيبة الدولة الإسلامية ، والتى سوف تقتصر فى العصور العباسية المتأخرة - عصور الضعف - على حالات الدفاع فقط بل سوف تفشل فى أحيان كثيرة فى استخدام أداة القتال حتى فى حالات الضرورة القصوى تلك .

والواقع ان تراجع استخدام الدولة العباسية للقتال كأداة هجوم وقصره على كونه أداة دفاع جاء أستجابة لعوامل طبيعية أقتنع العباسيون بها وبعدم جدوى تجاهلها . ولعل على رأس هذه العوامل حقيقة بلوغ الدولة الإسلامية لأقصى اتساع جغرافى يمكن ان تصل اليه ، فالدولة مثل الكائن الحى لايمكن أن تستمر فى النمو إلى مالا نهاية ، ولقد وصلت الدولة فى عهد الأمويين إلى حدودها الجغرافية الطبيعية ، فالملاحظ ان الجبال كانت تمثل دائما الحد الطبيعى الذى لايستطيع المسلمون تخطيه، فكل معاركهم العظيمة كسبوها فى السهول والوديان والصحارى وكل هزائمهم الحاسمة كانت على سفوح الجبال ، فجبال طوروس مثلت مناطق ارتدادهم فى الشرق أمام البيزنطيين ، وجبال البرنييه كانت الحد الذى ردهم عن التوغل فى أوروبا فى مواجهة الفرنجة فى الغرب [٣] . والحقيقة أن وطأة هذا العامل على عملية الفتح والتوسع كانت قد بدأت بوادرها تظهر حتى فترة العصر الأموى خاصة فى العقود الثلاثة الأخيرة منه ولا يستثنى من هذا حتى عصر هشام الذى شهد بعض التحركات القتالية

---

٢ - هويس ، دراسة لسقوط للاثنين دولة ، م س ذ ، ص ١٢٠ - ١٢٦
شاكر ، التاريخ الاسلامي - الدولة العباسية ، م س ذ ، ج١ ص ٦
٣ -
- Hodgson , The Venture of Islam , op. cit , vol 1
- Glubb , op. cit , p

حيث لم تعد الغزوات تعدو مجرد كونها تحركات روتينية تفشل دائما فى أن تضيف الجديد من الأراضى إلى الدولة لأنها كانت فى كل مرة ترتد أما أمام الجبال فى الشرق أو أمام الجبال فى الغرب .

أما العامل الثانى الذى لم يكن من الممكن للدولة العباسية أن تتجاهله وهى ترسم سياستها الخارجية والذى دفعها إلى اعادة النظر فى تبنى سياسة هجومية توسعية هو تذمر الجند من الغزو المستمر واتخاذهم من التحركات ما يفصح عن رغبتهم فى الاستقرار والراحة والدعة ، وهو فى الواقع العامل الذى شهدنا أرهاصاته فى أواخر عهد الدولة الأموية . ولما كان الجيش هو عماد نجاح أى توجه عسكرى للدولة فان عدم رغبة الجيش فى هذا التوجه الهجومى الذى يجعل من القتال نمطا مستمرا للحياة وليس تحركا وقتيا تفرضه حالات ضرورة لابد وأن ينعكس بالسلب على درجة تحمسه - ومن ثم - نجاحه فى انجاز المهام العسكرية المناطة به، واستجابة الدولة العباسية لهذه الحقيقة الثابتة أمام عينيها دفعتها بالضرورة إلى أعادة النظر فى استراتيجية الهجوم كأساس لتعاملها الدولى .

ولقد أظهرت الدولة العباسية قناعتها وأعتزامها اجراء تحولات جذرية فى استراتيجية تعاملها الخارجى ابتعادا عن قاعدة الهجوم خير وسيلة للدفاع واقترابا من مفهوم التعايش مع الأطراف الدولية الأخرى فى اتخاذها مجموعة من الخطوات ذات الدلالة . ولعل أهم واوضح الخطوات الدالة هى سياسة الحدود التى تبنتها الدولة العباسية . ففى حين كان الأمويون لايهتمون بتأمين الحدود كوسيلة لحماية الدولة مقتنعين بأن الفتوحات المستمرة والهجوم المتواصل هو خير وسيلة لحماية الدولة والدفاع عن حدودها ، فان الدولة العباسية اهتمت بمنطقة الحدود وبتحصين ثغورها باعتبار أن هذا أفضل وسيلة للدفاع عن كيان الدولة (٤) فالحدود كما فهمها الأمويون كانت نقطة للوثوب والانطلاق للغزو ، ولذلك هم لم يهتموا بالثغور إلا بوصفها محطات لراحة الجند واعادة شحذ هممهم وتموينهم ، أما الحدود بالنسبة للعباسيين فكانت نهايات وفواصل تفصل الدولة الإسلامية عن القوى غير الإسلامية وتحتمى الدولة داخلها ، ولقد وضح هذا بصفة خاصة مع هارون الرشيد الذى تأكد فى عصره تخلى الدولة عن الهجوم كوسيلة للدفاع ، حيث وضع سياسة واضحة للثغور تدعمها وتقويها وتؤمن الدولة داخلها (٥) .

---

٤ ـ نادية حسني صقر ، السلم في العلاقات العباسية ، م س ذ ، ص ٧
نايف عبدالجبار سهيل ، السياسة الخارجية للدولة العباسية في العصر العباسي الأول ، رسالة ماجستير ـ كلية دار العلوم ـ جامعة القاهرة ـ ١٩٨٥ ، ص ص١٩ ـ ٢٠ .

٥ ـ عثمان ، الحدود الإسلامية ، م س ذ ـ ج٣ ، ص ص ٢٣ ـ ٢٤ .

أما الخطوة العملية الثانية التى تجلى فيها مدى تخلى العباسيين عن سياسة الفتح والتوسع كوسيلة لحماية الدولة وتأمينها فكان قيام الخليفة العباسى الثانى والمؤسس الحقيقى للدولة العباسية المنصور بالله ٧٥٤ – ٧٧٥ باختطاط عاصمة جديدة للدولة العباسية هى بغداد . والواقع أن قرار الخلفاء العباسيين التخلى عن دمشق ـ معقل الأمويين ـ كعاصمة لهم هو قرار منطقى ، ولكن قرار المنصور بناء عاصمة للدولة مجددا بعد أن كان السفاح قد استقر بالفعل فى أماكن أخرى ، ثم اختيار المنصور الدقيق لموقع المدينة العاصمة وانتقائه لأسمها الرسمي كانت كلها دلالات هامة على التوجه الجديد للدولة الوليدة . فالاسم الرسمى لبغداد هو "مدينة السلام" وهو اسم دلالته على التوجه الخارجى للدولة والقائم على التعايش مع أقطاب النظام الدولى الاخرى غير خافية . ولقد أقر المنصور عند اعتزامه بنائها فى الموقع الذى استقر رأيه عليه بعد مشاورات عدة مع مختصين ، وفى اعلان صريح عن هدفه من بنائها ، بأنها ستكون المركز التجارى للعالم كله [٦] ولقد أختير موقعها بعناية لوقوعها فى منطقة زراعية وفيرة المياه أولا ولكونها ملتقى فى الطرق والمواصلات والتجارة بين الغرب والشرق ثانيا، وفى اجتماع هاتين الخصيصتين معنى رغبة الدولة العباسية الابتعاد عن اقتصاد الحرب الذى كان يحكم الدولة الأموية عندما كان معظم دخل بيت المال يأتى من موارد مرتبطة بأعمال الغزو مثل الجزية والخراج والغنائم .

فاعتزام العباسيين التخلى عن سياسية الفتوحات كان لابد وأن يواكبه تحرك سريع نحو احداث تغير جذرى فى الهيكل الاقتصادى للدولة الإسلامية يضمن موارد جديدة لبيت المال بعيدا عن أعمال الحرب ، فكانت الزراعة والتجارة هما المصدران الجديدان اللذان لجأت اليهما الدولة العباسية لاقامة اقتصاد سلم محل اقتصاد الحرب [٧] ولقد كانت هذه الرغبة وراء اختيار الموقع الجديد للعاصمة الجديدة للعباسيين ، فرغم تدهور الوضع السياسى للعراق أثناء فترة الدولة الأموية وتراجع مكانته السياسية أمام سطوة بلاد الشام ثم تضاؤل دوره العسكرى لعدم ثقة المركز فى ولاء سكانه ، إلا أن هذا التدهور فى وضع العراق السياسى والعسكرى كان يقابله تنام واضح فى موارده الزراعية أحدث طفرة فى اقتصاده كان لها أثر بالغ فى التمهيد لانتقال مركز السلطة اليه ، ثم ان موقع بغداد على نهر دجلة مكنها من أن تكون مركز التحكم فى زراعة سواد العراق كله ، ولقد جعلها موقعها هذا ايضا ملتقى الطرق التجارية العالمية البرية والبحرية على حد سواء ، الأول عبر جبال فارس والثانى عبر الخليج الفارسى وشرق البحر المتوسط ثم دجلة والفرات [٨] .

---

٦ – نقلا عن : - G. Lewis , op.cit , P .82 .

٧ – - Ibid , pp 82 - 83 .

٨ – - Hodgson , cip . at , vol 1 , p387 .

وتكثيف الدولة العباسية اهتمامها بتنمية التجارة كان يتطلب بالطبع تشجيع علاقات جوار سلمية تضمن توفر قدر معقول من الأمن على طول الطرق التجارية وتحقق كذلك الاستقرار الداخلى فى الدولة الإسلامية منبع التجارة ومصبها (٩) . وفى ظل هذا الهدف نستطيع أن نفهم سياسة الحدود التى تبنتها الدولة العباسية والتى تقوم على تحصين الثغور لضمان أمن الدولة الداخلى وانتشار الحاميات على طول الطرق التجارية مما ساعد على رواج التجارة مع تنامى التوجه السلمى للدولة الإسلامية خاصة مع الأمم الشرقية فى الصين والهند وتركستان وكذلك مع افريقيا ، كما ذكرنا فى خاتمتنا للدولة الأموية .

ولقد بلغ من انشغال الدولة العباسية بأمر التجارة العالمية أن أضحت المشاريع الكبيرة التى تخطط لها مشاريع تجارية وليست مشاريع حربية من قبيل بحث الخليفة هارون الرشيد فى مشروع شق قناة تصل بين البحرين الأبيض والأحمر لتسهيل التجارة وتقصير المسافات (١٠) . ولقد انعكس تغير هيكل البناء الاقتصادى للدولة العباسية على شكل التركيبة الاجتماعية لها حيث أضحت الطبقة العليا فى الدولة العباسية هى طبقة التجار فحلت محل طبقة الجند المحاربين التى كانت تحتل قمة الهرم الاجتماعى فى عهد الدولة الأموية فى إشارة واضحة أخرى إلى تخلى الدولة العباسية عن تبنى سياسات الهجوم والفتح وإحلالها التعايش والاستقرار كأهداف لها بدلاً من التوسع على حساب الأنظمة الاخرى فى المحيط الدولى (١١) .

ثم إن المحللين يقفون أيضا عند دلاله نقل العباسيين لعاصمتهم بعيدا عن حوض البحر المتوسط وأكثر اقترابا من قلب أسيا فى التأكيد على أن فى هذا اشارة إلى رغبة العباسيين ترك عالم البحر المتوسط البيئة الطبيعية للدولة البيزنطية دولة الغزو والحرب والفتوحات ، إلى العالم الآسيوى الذى تشتهر أممه بفنون التجارة ، وان تقلص اهتمامهم بالبحر المتوسط عالم الفتح والغزو سيؤدى إلى اعتبار شواطئه نهايات يجب تدعيمها لحماية الدولة . أما نشاطهم التوسعى ان كان يمكن أن نطلق عليه هذا فسيكون فى العالم الآسيوى ملتقى طرق التجارة العالمية حيث سينصرف اهتمام الدولة العباسية إلى النشاط التجارى فى الخليج العربى وبحار الهند وستكون حملاتها

---

٩ - Lewis , op. cit , at , pp 87 , 88 .

١٠ - Hodgson , cip . at , vol 1 , pp 233 , 301 .

عثمان ، الحدود الإسلامية ، م س ذ ج٣ - ص ٢٢٩ .

١١ - Glubb , op.cit , p 264 .

- Lewis , op.cit , p 92 .

هناك هي بالاساس تعبير عن رغبة في دعم الأمن اللازم لطرق التجارة حتى تزدهر(١٢).

وتجدر الاشارة هنا إلى أن بعض المؤرخين يرفضون هذا التحليل الرامي إلى حدوث تغير في التوجه الخارجي للدولة العباسية بالقياس على الدولة الأموية وهم يستدلون على هذا بأن الدولة الأموية في نهايات عهدها كانت قد عجزت عن حماية حدودها وفقدت زمام المبادرة في الساحة الدولية للدولة البيزنطية ، وان الدولة العباسية الفتية هي التي اعادت هذا الدور للدولة الإسلامية مرة أخرى عندما استأنفت المواجهة الصراعية مع الروم البيزنطيين خلال العصر العباسي الأول مؤكدين أن تخليها عن هذا في العصرين العباسيين الثاني والثالث انما جاء لظروف خارجة عن ارادتها متمثلة في انتقال زمام أمر دولة الخلافة إلى يد الجند الأتراك (١٣) .

وبغض النظر عن صواب أو خطأ مقولة إن تمكن الجند الأتراك من أمر الدولة العباسية والذى انعكس على قدراتها على التفاعل الخارجي الفعال هو أمرخارج عن ارادة الدولة العباسية ، فان ما يهمنا هنا هو التأكيد على أنه لاخلاف حول الحقائق التاريخية الثابتة التي توضح أن الدولة الأموية فقدت زمام المبادرة على الساحة الدولية في نهايات عهدها وان الدولة العباسية الوليدة استعادت زمام المبادرة هذا في يدها في عصرها الذهبي الأول ، ولكن هذا لايغير مما نرمي اليه وهو أن الهدف الاستراتيجي الأعلى للسياسة الخارجية العباسية قد اختلف تماما عن الهدف الذى وضعته الدولة الأموية نصب أعينها فالدولة الأموية رغم عدم قدرتها على الوقوف موقف الند من الدولة البيزنطية في أواخر عهدها ، إلا أن ولاة أمرها وحتى أخرهم ظلوا مترددين في تبني التخلي عن سياسة الفتح والتوسع والهجوم كأساس لتعاملهم الدولي رغم افتقادهم القدرة الفعلية على المضى في هذه السياسة ، في حين أن الدولة العباسية بعد ست سنوات فقط من قيامها بدأت تتخذ خطوات حثيثة توضح نيتها جعل التخلي عن قاعدة الهجوم خير وسيلة للدفاع هو سياستها المعلنة رغم أنجازهاالعديد من الخطوات الهجومية التكتيكية التي ماكانت تتخذها في الواقع إلا لدعم السلام الذى ارادته أن يعم النظام الدولي حتى تزدهر التجارة .

نخلص من هذا إلى أن الخصيصة الاساسية للتحرك الخارجي للدولة العباسية كانت هي التخلي عن السياسة التوسعية على حساب أطراف النظام الدولي الأخرى والتوجه نحو علاقات دولية أكثر سلمية ، وهذا التحول الجذرى في ادارة الدولة

١٢ ـ عثمان ، الحدود الإسلامية ، م س ذ ، ج٢ ، ص ١٣٢ .
رمضان ، الصراع بين العرب وأوروبا، م س ذ ، ص ص ١٦٦ – ١٦٧ .
سهيل ، السياسة الخارجية ، م س ذ ، ص ١ ـ ٦ .
١٣– رمضان ، الصراع بين العرب وأوروبا، م س ذ ، ص ١٦٧ .

الإسلامية لعلاقاتها الدولية جاء استجابة منطقية لعوامل طبيعية ولتغيرات داخلية ماكان في استطاعة الدولة العباسية أن تتجاهلها والا كانت كالسابح ضد التيار يحكم على نفسه بالموت مهما طال جهاده للأمواج العاتية .

فالدولة العباسية اذاما أخذنا في الاعتبار الظروف التي ولدت فيها، قد سلكت أفضل السبل المؤدية إلى بقاء الدولة الإسلامية بوصفها الوعاء الذى يحفظ الأمة ويحفظ الشريعة الإسلامية ، بل وساهمت بطريقتها في نشر الإسلام في ربوع لم يصلها قبلا عندما حمله التجار والدعاة المسلمون معهم إلى الأمم التى كانوا يتاجرون معها والتى استقر الكثيرون منهم فيها

ولقد نجح التوجه الخارجي للدولة العباسية الوليدة في الأحتفاظ لها بمركز التسيد والعلو في النظام الدولى كأكبر دولة تجارية في العالم القديم وقبل هذا وأهم منه أنها نجحت في التمكين للاسلام في أنحاء الارض التى وطأتها أقدام التجار المسلمين طالما كانت الدولة العباسية قوية تفرض سياسة التعايش السلمي من منطلق قوة ، ولكن لما أصاب الضعف الدولة العباسية واكلتها الصراعات في الداخل وسيطر الجند المشاغبين على مقدراتها نظرت الأطراف الدولية إلى منطلق السلم الذى أستندت اليه الدولة العباسية على أنه خضوع فتنمروا هم وتقهقرت الدولة العباسية إلى موقف المدافع غير القادر وغير المتمكن فكيلت اليها الضربات من قوى في النظام الدولى الموجودة على الساحة بالفعل أو الصاعدة بين الحين والأخر حتى سقطت في النهاية لقوة حربية هائلة قادمة من الشرق هى قوة المغول كانت ضربتهم هى القاضية بعد الضربات المتوالية التى كيلت لها على مدار أربعة قرون بعد عهد ازدهار وقوة قصير لم يستغرق أكثر من قرن من الزمان .

ومن هنا فان ادعاء بعض المحللين أن الدولة العباسية انما سقطت لتخليها عن سياسة الفتح والتوسع هو ادعاء لاتسنده الرؤية الاوسع للتاريخ الاسلامى ، فالدولة العباسية مثلها في ذلك مثل الدولة الأموية دالت لأنها انقسمت على نفسها وهان أمرها على ابنائها فهانت على الدول والقوى الأخرى ، فقدرتها على أن تفرض قناعتها بضرورة قيام نظام دولى متحضر يقوم على التعاون التجارى السلمى جعلتها تتسيد هذا النظام في عصرها الذهبى الأول ، وفقدانها القدرة على الاحتفاظ بقوتها نتيجة ظروفها الداخلية في عصرها الثانى والثالث جعلها تهون في عالم يسوده منطق القوة بالأساس ثم تزول لتثبت مرة أخرى درس التاريخ للمسلمين وهو أن دولتهم تهدمها عداءات أبنائها بعضهم لبعض قبل أن تهزمهم عداءات مناوئيهم في النظام الدولى .

وسوف تنقسم دراستنا للدولة العباسية إلى ثلاثة فصول :

الفصل الأول : العصر العباسى الأول ١٣٢ - ٢٤٧ هـ / ٧٥٠ - ٨٦١ م .

استمرار تسيد المركز فى مواجهة الأطراف غير الإسلامية مع بداية اللامركزية والتعددية فى دار الإسلام .

الفصل الثانى : العصر العباسى الثانى ٢٤٧ - ٤٤٧ هـ / ٨٦١ - ١٠٥٥ م .

انتهاء دور الدولة العباسية فى التعامل الدولى كقوة مركزية وصعود الدولة الفاطمية للقيام بهذا الدور ، مع تكرس نمط اللامركزية والتعددية فى دار الإسلام .

الفصل الثالث : العصر العباسى الثالث ٤٤٧ - ٦٥٠ هـ / ١٠٥٥ - ١٢٥٦ م .

من الهجمة الصليبية إلى الهجمة المغولية ـ سقوط الدولة العباسية .

الفصل الأول

العصر العباسي الأول ١٣٢ - ٢٤٧هـ / ٧٥٠ - ٨٦١م

استمرار تسيد المركز في مواجهة الأطراف غير الإسلامية مع بداية اللامركزية والتعددية في دار الإسلام

الفصل الأول

العصر العباسي الأول ١٣٢ - ٢٤٧هـ / ٧٥٠ - ٨٦١م

استمرار تسيد المركز في مواجهة الأطراف غير الإسلامية مع بداية اللامركزية والتعددية في دار الإسلام

مقدمة

رغم أن التخلى عن سياسة التوسع والضم كان هو السمة العامة المميزة للتعامل الدولى للدولة العباسية منذ قيامها عام ١٣٢ - ٧٥٠ وحتى سقوطها فى بغداد عام ٦٥٦ /١٢٥٨ ، إلا أن العصر العباسى الأول تميز من بين العصور العباسية المتأخرة بتطبيق الدولة لهذه السياسة من منطلق القوة وليس من منطلق الضعف ، فالدولة العباسية فى العصر العباسى الأول كانت دولة قوية بكل المقاييس فبذور الضعف والتفكك التى برزت كلها خلال العصر العباسى الأول لم تثمر إلا فى العصور العباسية المتأخرة .

وعندما تبنى المنصور التوجه نحو سياسة التعايش السلمى ، عندما استمر خلفاؤه على نهجه ، وعندما ترسخ توجهه مع الرشيد فان هذا الخيار كانت تمليه ارادة حرة لاتستجيب لواقع البنية الدولية وحسب ولكنها كانت حساسة أيضا للتغيرات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية داخل المجتمع الاسلامى وعندما تتبنى الدولة سياسة تعايش سلمى مع جيرانها من منطلق القوة فانها تجنى كل الثمرات الايجابية لمناخ السلم والتعاون مع الاحتفاظ بحقها فى استخدام قدرتها على الردع ازاء أى انتهاك لهذه الايجابيات من قبل أى من أعضاء النظام الدولى أو ازاء أى تعد على وجودها أو على أمنها أو أمن مواطنيها ، هذا كان حال الدولة العباسية فى العصر العباسى الأول .

ولكن اذا كانت الدولة العباسية قد تخلت عن سياسة الفتح والهجوم ، فانها لم تستطع أن تُمضى هذه السياسة الخارجية إلا فى المشرق الإسلامى حيث شهدت هذه الدولة الفتية منذ سنى ولادتها الأولى ظاهرة انفصال واستقلال ولاياتها فى المغرب الاسلامى ، هذه الدويلات الإسلامية ـ على عكس الدولة العباسية ـ اتبعت سياسة فتح وتوسع نشطة بإزاء الأطراف الدولية غير الإسلامية الموجودة فى هذا الجزء من العالم ، الدولة الرومانية المقدسة وامراء الاقطاع والمدن الساحلية الأوروبية .

وهكذا بعد قرون عدة كان فيها النظام الدولى نظاما ثنائى الأقطاب تتنازعه أولا الامبراطوريتان الفارسية والبيزنطية ثم الإسلامية والبيزنطية فانه مع مولد الدولة

العباسية وظهور الحركات الانفصالية والاستقلالية وبروز أوروبا المشتتة التى كان يصعب اعتبارها كيانا سياسيا ، فان النظام الدولى تحول ربما لأول مرة إلى نظام متعدد الاقطاب ، يسوده أكثر من قطب اسلامى وأكثر من قطب مسيحى . ولقد ولد هذا انماطا من التحالفات والتوزانات بين هذه القوى جديرة بالدراسة للآثار التى تركتها على شكل النظام الدولي، كما أنه لم يعد من الممكن الحديث عن سياسة تعامل دولى "للدولة الإسلامية "فبعد انقسام تلك الدولة إلى مجموعة من الدول ، لم تعد دولة الخلافة العباسية هى وحدها الدولة الإسلامية ، فالمركزية فى الدولة الأموية والتى كانت تعنى ان المركز يرسم السياسة لتتبعها جميع الولايات لأن سياسة الدولة انتهت إلى حالة من اللامركزية السياسية مع الدولة العباسية بحيث أصبح من الممكن الحديث عن أكثر من توجه إسلامي للتعامل الخارجي بقدر ما كان يمكن الحديث عن أكثر من توجه مسيحي للتعامل الخارجي بعد انقسام الامبراطورية المسيحية إلى الامبراطورية الرومانية الغربية والامبراطورية الرومانية الشرقية ، ومن ثم تناولنا لسياسات التعامل الخارجي للدولة الإسلامية فى العصر العباسى الأول يتم فى مبحثين :

المبحث الأول : تسيد المشرق الاسلامى فى ظل استراتيجية جديدة للتعامل الدولى .

المبحث الثانى : سياسات الفتح وأنماط التحالفات فى ظل اللامركزية والتعددية فى المغرب الإسلامى .

المبحث الأول
تسيد المشرق الإسلامى فى ظل استراتيجية جديدة للتعامل الدولى

مقدمة :

رغم أن المشرق الإسلامى سيشهد طوال العصر العباسى الأول تسيداً للطرف الإسلامى فى النظام الدولى ، إلا أن هذا الموقع المتسيد خبر ثلاث مراحل متميزة ، ساهم فى تشكيلها جميعا عوامل داخلية كان لها أكبر الأثر فى تحديد شكل التوجه الخارجي . أما المراحل الثلاث فهى مرحلة توطيد أركان الدولة العباسية الناهضة ، وهى المرحلة التى ساهمت فى وضع حجر الأساس للمرحلة التالية والتى كان سمتها الرئيسية النشاط العسكرى غير المسبوق على الجبهة العباسية / البيزنطية والتى استمرت منذ بداية عهد الخليفة المهدى وحتى نهاية عهد الخليفة المعتصم وتعد بحق

مرحلة المجد العسكرى العباسى ، ثم كانت المرحلة الثالثة التى شهدت هدوءاً ملحوظاً وشبه توقف للنشاط الحربى على الجبهة البيزنطية . أما العوامل الداخلية التى خبرتها الدولة العباسية فى المشرق الإسلامى فى هذه المرحلة فأثرت على تعاملها الخارجى فتراوحت بين الصراع على السلطة الخلافية ، والفتن الداخلية وبدايات تمرد ومحاولات استقلال الولايات النائية وأيضاً التكوين الجديد لجيش الدولة الجديدة الوليدة . ولقد أثرت هذه العوامل بالسلب دائماً على القدرة على التعامل الخارجى الفعال للدولة العباسية ، وإن كان الأثر السلبى قد تزايد فى المرحلتين الأولى والأخيرة مقارنة بالمرحلة الثانية، حيث هى مرحلة جنى الثمار والتى تكون فتوة الدولة وقوتها عاملاً محيدا إلى حد كبير -للآثار السلبية للعوامل الداخلية المناوئة .

المطلب الأول : التمهيد للمواجهة الندية مع الدولة البيزنطية بالانشغال ببناء الدولة العباسية سياسياً واقتصادياً وعسكرياً :

كان التخلى عن قاعدة الهجوم خير وسيلة للدفاع والسعى الحثيث نحو تثبيت الحدود هو السمة الأساسية التى ميزت سياسات التعامل الخارجى للعباسيين عن سياسات سابقيهم من الأمويين . ولكن معالم هذا التغير الاستراتيجى الجذرى لم تتضح بصورة حاسمة فى عهد الخليفة العباسى الأول السفاح ١٣٢ - ١٣٦ ففترة خلافة السفاح تعتبر امتداداً للفترة الاخيرة من الدولة الأموية التى شهدت ارهاصات تحول فى السياسة العسكرية الإسلامية من الهجوم إلى الدفاع تراجعا امام نزعة هجومية توسعية للروم البيزنطيين فى كل من البر والبحر . ولقد رأينا كيف أن سياسة التراجع الاسلامى تلك كانت نتاجا بالأساس لبيئة داخلية متناحرة ، ولقد استمر الوضع على ماهو عليه طوال فترة السفاح حيث انشغل بتوطيد أركان الدولة ضد المناهضين لها عن الغزو الخارجى ، فاستمرت من ثم سياسة الدفاع ضد عدو خارجى شرس ونشط (١٤) . ولقد انتهز الروم الفرصة التى أتاحتها ظروف هذه الفترة من تاريخ الدولة العباسية الوليدة ، كما حدث وقت تمكين الأمويين لأنفسهم فاغاروا على الحدود ودمروا خط حصون الفرات وهددوا الثغور الإسلامية تهديدا خطيرا ودخلوا عام ٧٥١/١٣٣ قاليقلا والحدث وأوقعوا بالمسلمين هناك ثم استولوا على المصيصة وتركوا الحصون خراب . ولقد استمر هذا الوضع ست سنوات حتى استطاع العباسيون التمكن من الجبهة الداخلية وبدأوا ينظرون إلى الخارج (١٥) ويبدو مدى ادراك الروم

---

١٤ ـ عثمان ، الحدود الإسلامية ، م س ذ ، ج٢ ، ص ٩٨ .

نادية حسني صقر ، السلم في العلاقات العباسية ، م س ذ ، ص ١٨ .

١٥ ـ نادية حسني صقر ، السلم في العلاقات العباسية ، م س ذ ، ص ١٨ نقلا عن ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ ـ ج٤ ص ٣٤١ والبلاذري ، فتوح البلدان ، ص٢٢٢ .

البيزنطيين للأثر السلبى الواضح للبيئة الداخلية المضطربة على التعامل الخارجى الفعال من الخطاب الذى أرسله امبراطور الروم لأهل ملطية يدعوهم للاستسلام له حيث نبه فى معرض الفت فى عضدهم - إلى ضرورة عدم اعتمادهم تماما على وصول مدد اليهم من الخليفة ذلك أنه منشغل تماما بأمور دولته الداخلية (١٦) .

ولانكاد نسمع طوال فترة السفاح عن أى نشاط خارجى عسكرى اللهم الا غزوة على بلاد الترك عام ١٣٣ غنم فيها المسلمون ثم ارتدوا إلى قواعدهم ، إلا أنها لم تكن للفتح بل للغنيمة ، ونستطيع أن نعزى الغزو على هذه الجبهة رغم اضطراب أمور الدولة الداخلية فى هذه الفترة إلى الاستقرار النسبى الذى كانت تتمتع به خراسان مركز الدعوة العباسية والتى كانت بمثابة القاعدة التى تخرج منها حملات الجبهة الشرقية ، أما الغزوة الأخرى التى أرسلها فى عهده فكانت عام ١٣٦ ، وكان الغرض منها تأمين الحدود مع الدولة البيزنطية بالاساس ولكنها لم تكلل بالنجاح .

وتجدر الاشارة هنا إلى أنه بداية من عصرالسفاح نستطيع أن نرصد تغيرا فى التكوين العرقى للجيش حيث يلاحظ فى عهده تقلص واضح فى الاعتماد على الجند الشاميين والعراقيين على حد سواء مع اعلاء واضح للجند الخراسانية (١٧) . وأهمية هذه الملحوظة ترجع إلى أنها توضح كيف تقدم العنصر الفارسى ليكون قوام الجيش العباسى وهذا سيولد صراعات خطيرة بين الفرس والعرب فى الجيش سيكون لها آثار وخيمة على تماسك القوة العسكرية للدولة ، والأخطر من ذلك أنه سيضطر الخلفاء العباسيين إلى الاستعانة بعنصر ثالث يلعب دور المحايد وهم الأتراك والدين سيكون مقدمهم وبالا على مصير الدولة العباسية كما سنرى .

ورغم انحسار الفتح فى زمن السفاح ، إلا أن الباحث لايستطيع أن يرصد من التحركات أو السياسات ما ينم عن عزم الدولة العباسية تبنى استراتيجية للتعامل الدولى مخالفة لما كان سائدا ، أما الخطوات العملية الحقيقية تجاه هذا التحول ، الذى أصبح معه القتال أداة دفاع تستخدم فى حالات الضرورة وليس أداة هجوم فنحن نلحظها مع الخليفة العباسى المنصور (١٨) ومخطئ من يظن ان تحول العباسيين عن استراتيجية الهجوم انما كان يعنى توقف الحروب بين الدولة العباسية وأطراف النظام الدولى الاخرى ، فالمتتبع لأحداث العصر العباسى الأول يلحظ اشتعال الحرب على أكثر من جبهة فى المشرق الاسلامى ، ولكن هذا الصدام العسكرى لم يكن يهدف إلى

---

١٦ ـ نادية حسني صقر ، السلم في العلاقات الدولية ، م س ذ ، ص١٨٣ .

١٧ - Hodgson , op.cit , vol .1 , p 284 .

١٨ ـ نادية حسني صقر ، السلم في العلاقات الدولية ، م س ذ ، ص٧ .

عثمان ، الحدود الإسلامية ، م س ذ ، ج١ ، ص ٨١ .

فتح أراض جديدة للدولة كما كان الحال فى عهد الفتوحات الكبرى في زمن الراشدين ثم الأمويين ، فالغاية من القتال فى العصر العباسى الأول كانت اما الدفاع عن الحدود إذا حدث تعد عليها أو الأنتقام أو التأديب لعدوان يقع على الأراضى الإسلامية أو الحصول على الغنائم ثم العودة إلى قواعد الانطلاق ، وحتى فى حالات الهجوم القليلة كان الأمر لايتعدى مجرد كونه حملة وقائية تهدف إلى تأكيد قوة المسلمين وقذف هيبتهم فى قلوب أطراف النظام الدولى الآخرين [١٩] .

ولقد تطلبت الحروب على جبهات متعددة جيشا كبير العدد والعدة . ولقد تنبه خلفاء العصر العباسى الأول لهذه الحقيقة فلم يألوا جهدا فى بناء الجيوش الجرارة التى تمكنهم من حماية حدود الدولة الإسلامية وفرض هيمنتها فى النظام الدولى . فنجد جيش الرشيد فى خلافة أبيه المهدى قد وصل عدده إلى سته وتسعين ألفا ، ولقد كان هذا الجيش القوى عنصرا فى تأكيد السياسة الخارجية الجديدة للدولة العباسية حيث مكن الدولة من أن تنحى منحى السلم فى علاقاتها الدولية وهى مدعومة بقوة مادية ضخمة تتيح لها القدرة على أن تظل الدولة القطب فى النظام الدولى .

ولقد كان الفاعل الدولى الرئيسى الذى تتعامل معه الدولة العباسية فى المشرق الاسلامى هو الدولة البيزنطية . ويجمع معظم الباحثين على ان اسقاط الدولة البيزنطية وفتح حاضرتها القسطنطينية لم يعد أحد الأهداف الاستراتيجية العليا للدولة العباسية خلافا لما كان عليه الحال مع الدولة الأموية، فغزوات العباسيين على الجبهة البيزنطية كانت إما وقائية أو دفاعية وإما تأديبية ترمى إلى اظهار أن اليد الطولى فى النظام الدولى مازالت لهم [٢٠] . ولعل أقوى دليل يسوقونه لاثبات مدى صحة ما يصلون اليه هو وصول الجيوش الإسلامية غير مرة حتى مشارف القسطنطينية أثناء العصر العباسى الأول وبدلا من أن تتقدم فى محاولة لاسقاطها ترتد وتترك الأراضى مكتفية بفرض الجزية وأخذ الغنائم والاسرى كما سنرى بعد قليل .

ولقد كان على المنصور ١٣٦ - ١٥٨ / ٧٥٤ - ٧٧٥ المؤسس الحقيقى للدولة العباسية أن يواجه المشكلة البيزنطية الموروثة دون حل من أيام الأمويين بصورة حاسمة وأن يحدد بصورة جادة طبيعة المسار الذى ستتخذه علاقات الدولة العباسية معها خاصة وأن البيزنطيين كانوا قد عاودوا الهجوم على ثغر فلسطين عام ١٣٨ - ٧٥٥ فاستولوا عليه وحطموا حصونه مستغلين انشغال الدولة العباسية بتمرد عبدالله

---

١٩ - نادية حسنى صقر ، السلم فى العلاقات الدولية، م س ذ. ص،ص ٧ - ٨ ، ١٧.

فاروق عمر ، العباسيون الأوائل (بغداد : دار الارشاد ١٩٧٠)ج٢ ، ص ٢٥٢ .

٢٠ - نادية حسنى صقر ، السلم فى العلاقات العباسية ، م س ذ ، ص ١٧ .

حسن ابراهيم حسن ، تاريخ الإسلام ، العصر العباسى الأول (القاهرة مكتبة النهضة العربية - ١٩٦٤ - ط٧) ج٢ - ص ٢٤٠ .

بن على عم السفاح والذى كان قد خرج على رأس جيش لمحاربة الروم بأمر من ابن أخيه الخليفة السفاح - كما ذكرنا - فلما علم بوفاته وهو فى طريقة لملاقاة الروم وأن البيعة انعقدت للمنصور ترك المواجهة وعاد ليطالب لنفسه بالخلافة (٢١) . وكانت هذه الواقعة مقدمة هامة لغيرها من الوقائع المماثلة التى سنراها تحدث فى العصر العباسى الأول لتظهر كيف أن التناحر على المنصب الخلافى بين أبناء البيت الحاكم يضحى أحيانا أهم من مصلحة الأمة عامة والمتمثلة فى المواجهة الجادة الرادعة لعدو معتدى .

ورغم أن المسلمين استطاعوا أن يستعيدوا ملطية ويعيدوا بناء قلاعها فى العام التالى ١٣٩هـ - ٧٥٦م الا أن هذه المواجهة العدائية مع البيزنطيين والتى حدثت مبكرا فى عهد المنصور وعند أول فرصة سنحت لهم فاغتنموها دفعت المنصور إلى التفكير الجدى فى ضرورة رسم سياسة فعالة فى مواجهة البيزنطيين خاصة فى مناطق الحدود التى مافتئوا يهاجمونها فى أوقات حرجة جدا فى تاريخ الدولة العباسية . ولقد تركزت خطة المنصور فى العمل على تحصين الثغور القائمة واعادة بناء وترميم مابها من حصون وقلاع ، وكان من أهم الثغور التى دعمت ثغور ملطية والمصيصة وهى من أهم الثغور الجزرية التى كانت مهمتها طرسوس واطنه ، ثم انه اعاد اعمار المصيصة عام ١٤١ وكذلك قاليقلا ،ثم عمل على شحن مناطق الثغور بالجند والمرابطين واستخدم فى ذلك كل وسائل الجذب والاغراء للجند والمدنيين على حد سواء ومنها زيادة العطاء والمعونات واقطاع اراضى الثغور لمن يرابط بها ويقطنها (٢٢). ولقد اثبتت سياسته تلك التى تستهدف تحصين الثغور وشحنها بالسلاح والمقاتلة والمرابطين نجاحا واضحا حيث وفرت حماية جيدة لحدود الدولة الإسلامية أثناء انشغاله حتى عام ١٤٦ / ٧٦٣ باخماد الفتن الداخلية التى أثارها ولدا عبدالله بن الحسين بن على فى الحجاز والبصرة وكذا القلاقل الداخلية فى خراسان ونيسابور والمرسى من قبل سكانها المحليين ، وتجدر الاشارة هنا إلى أنه طوال هذه الفترة غير المستقرة من حكم المنصور والتى استمرت حوالى سبع سنوات منذ بداية حكمه لم تشر مصادرنا لأى صائفه وجهها إلى أرض الروم ، وفى هذا تأكيد مرة أخرى لمدى تأثير البيئة الداخلية على التعامل الخارجى .

---

٢١ - نادية حسنى صقر ، السلم فى العلاقات العباسية ، م س ذ ، ص ١٨ .
رمضان ، الصراع بين العرب وأوروبا ، م س ذ ، ص ص ١٧٠ - ١٧١ .
Shachan , op.cit , vol . 2 , p 12 .

٢٢ - نادية حسنى صقر ، السلم فى العلاقات العباسية ، م س ذ ، ص ص ١٨ - ١٩
رمضان ، الصراع بين العرب والمسلمين ، م س ذ ، ص١٧٢ .
حسن ، تاريخ الإسلام ، م س ذ ، ج٢ ، ص ٢٤٣ .
- Shachan , op.cit , vol . 2 , p .12 - 13.

ولكن إذا كانت سياسة المنصور الرامية إلى تحصين الحدود قد نجحت مع الدولة البيزنطية بوصفها دولة تستخدم الجيوش النظامية فى مواجهة خصومها ، فان هذه السياسة لم تنجح فى مواجهة القبائل التى تسكن مناطق الحدود وتنتهز أى فرصة لاثارة القلاقل بما يحقق مصالحها ، ولقد رأينا ذلك أيام الدولة الأموية وسيظهر أيضا مع الدولة العباسية حيث ستجد قبائل الخزر حليفة الروم البيزنطيين منذ أيام الدولة الأموية تشعل الجبهة الإسلامية الشمالية عند كل فرصة مما وجه نظر المنصور إلى ضرورة تحصين ثغور الدولة الإسلامية على هذه الجبهة أيضا(٢٣) .

ولمجابهة هذه المتطلبات الدفاعية المتنامية على الحدود كان لابد للمنصور أن يبحث عن موارد بشرية جديدة لدعم الجيش العباسى . فالخرسانية لم يكن من الممكن أن يقوموا وحدهم بأنجاز كل هذه المهام على كل الجبهات ، وفقدان الثقة فى الجند الشاميين والعراقيين كان قد تنامى بعد مؤازرتهم لعبدالله بن على فى منازعته المنصور على الخلافة ، ولذا كان توجه المنصور نحو تجنيد الجنود من الأقاليم الشرقية فيما وراء النهر ، على الأقل فى المهام العسكرية المحدودة مع استمرار تاكيد الاعتماد على الخراسانية (لانجاز)المهام الكبرى (٢٤) .

المطلب الثانى : تصعيد الدولة العباسية للمواجهات العسكرية على الجبهة البيزنطية لحفظ هيبتها وتأكيد تسيدها على النظام الدولى :

وبتولى المهدى الخلافة بعد وفاة أبيه المنصور ١٥٨ - ٧٨٥/١٦٩ بدأت مرحلة من أنشط مراحل الصدام العسكرى بين الدولة البيزنطية والدولة العباسية ، فكما بذل عبدالملك بن مروان معظم سني خلافته فى تحقيق الاستقرار الداخلى وبناء الدولة سياسيا واقتصاديا واداريا فانشغل بذلك عن الغزو فى الخارج ولكنه مهد بما قام به من الداخل لمرحلة نشاط خارجي واسع فى عهد ابنه الوليد. فان جهاد المنصور كان من نفس طبيعة جهاد عبدالملك بن مروان ، حيث ترك المنصور بيئة داخلية مستقرة وخزانة مليئة ووليا للعهد رباه تربية عسكرية وولاه قيادة الجيش منذ صباه . فلما جاء المهدى إلى الخلافة بدأ سياسة مواجهة عسكرية نشطة على الجبهة البيزنطية ، فخلافا لعهد المنصور الذى كانت تنقطع فيه الصوائف لسنوات متتالية ، فان الفصول الخاصة بعهد المهدى فى كتب التاريخ الأولية مليئة بأخبار غزواته وصوائفه وشواتيه والتى

٢٣ - Shacban , op.cit , vol . 2 , p 15 .

٢٤ - Shacban , op.cit , vol . 2 , p 13 - 15 .

حسن احمد محمود ، أحمد ابراهيم الشريف ، العالم الاسلامى فى العصر العباسى (القاهرة - دار الفكر العربى ، ط٥ - ١٩٨٠)ص ١٥٦.

كانت كثيرا ما يقودها بنفسه أو يُؤَمِّر عليها ابنه وولى عهده هارون الرشيد (٢٥) ليحيي بصورة من الصور التقليد الاموى الذى يجعل من الخليفة القائد الأعلى للجيش ، وهو التقليد الذى سيختفى فى عصور الضعف العباسى حيث سينفصل الجيش عن الخليفة ويصبح ولاؤه الأول والأخير لأميره وقائده العسكرى المباشر .

ورغم هذا التصعيد الخطير لأمر المواجهة على الجبهة البيزنطية زمن المهدى فان المراجعة الدقيقة لتفاصيل مجريات الأحداث التى كانت تقود إلى هذه المواجهات الصدامية لتكشف بوضوح عن استمرار السياسة التى استنها المنصور ، فالحملات فى معظمها - رغم قوتها وحسن استعدادها - كانت رد فعل لهجوم سابق من الروم البيزنطيين الذين كانوا قد اتخذوا جانب الهجوم تحت قيادة الامبراطور ليو الرابع الذى كان كثيرا ما يبادر بالهجوم على مناطق الثغور الإسلامية (٢٦) .

ثم ان الغايات المستهدفة من هذه الغارات لم تتغير أيضا فحفظ هيبة الدولة الإسلامية وحدودها والقاء الخوف منها فى قلوب الأطراف الدولية الأخرى كان هدفا واضحا لهذه الحملات . يتضح هذامن الاهتمام بأن تكون الحملة ضخمة العدد هائلة العدة ومن الحرص على اتباعها سياسات تخريب وتحريق فى أرض الروم حتى أنهم كانوا ليصورون المهدى فى كنائسهم ويطلقون عليه "التنين" (٢٧) . والواقع أن هذه الحملات قد حققت نجاحا فيما يتعلق بتلك الغاية حيث امتد أثر هذه الحملات الكبرى حتى إلى الجبهة الشرقية ، فانتصارات المهدى وحملاته الضخمة وجيوشه الجرارة القت بالرهبة فى قلوب ملوك الأقاليم الواقعة على الجبهة الشرقية للدولة العباسية فلما أرسل اليهم ليدخلوا فى طاعته أجابه معظمهم دون قتال ومنهم ملوك كابول وطبرستان والسند وفرغانة وسجستان والتبت والصين والهند (٢٨) .

ورغم انتصار المسلمين فى معظم حملاتهم على الروم فترة المهدى الا أنهم لم يحاولوا أكثر من مجرد التأديب والترهيب واثبات التسيد ولكن دون ضم أو فتح ، فمثلا فى حملة ١٦٢ هـ والتى بلغ تعداد الجنود بها ثلاثين الفا وتوغلت فى أرض الروم فإنها لم تفتح حصنا واحدا واكتفت بأن خربت وارهبت ثم عادت ، ثم إن المهدى قد واجه المشكلة البيزنطية بنفس السياسة التى واجهها بها والده المنصور وهى تحصين الثغور والاستزادة منها وتجديدها واستجلاب الجنود لها وتشجيعهم على سكناها والاستقرار بها ، وتحصين الثغور لم يكن له عنده إلا معنى واحداً وهو الحرص على

٢٥ - راجع على سبيل المثال ، احداث حملة ١٦٥ هـ فى :

رمضان ، الصراع بين العرب وأوروبا - م س ذ - ص ١٧٣ .

٢٦ - راجع محمود والشريف العالم الاسلامى ، م س ذ ، ص ١٥٨.

٢٧ - رمضان ، الصراع بين العرب وأوروبا - م ص س ذ- ص١٧٢ - ١٧٣.

٢٨ - حسن ، تاريخ الإسلام- م س ذ - ج٢ - ص٢٤٥ .

تثبيت الحدود القائمة بينه وبين الدولة البيزنطية عن طريق حمايتها بطريقة تجعلها تمتنع على الدولة البيزنطية وبذلك تظل الدولة العباسية متماسكة آمناً داخلها ، ولم يكن الغرض من تلك الحملات المتتالية اسقاط القسطنطينية أو الغاء الدولة البيزنطية من على خريطة النظام الدولي وليس أدل على ذلك من أن المهدى لم يحاول ابدا استثمار انتصاراته المتكررة ليدفع بها خطوة أبعد من مجرد جلب الغنائم والاسرى وأثبات قوة الدولة ، فالرشيد ولي عهد المهدى خرج على رأس حملة عام ١٦٥ للانتقام من الروم لنقضهم عهدهم للمسلمين الذى كانوا قد ابرموه أثر حملة ١٦٣هـ . ولقد وصل الرشيد فى مسيره إلى سواحل البوسفور وعسكر تحت أسوار القسطنطينية فى وقت بلغت فيه الدولة البيزنطية الدرك الأسفل من الفوضى والاضطراب الداخلي بعد موت ليو الرابع ولي ابنه القاصر بولاية أمه الملكة ايرينا. ولاتورد المصادر أن الرشيد حاول مجرد المحاولة استغلال هذه الفرصة فى محاولة للهجوم على القسطنطينية ، بل نجده على العكس من ذلك يقبل بعقد هدنة مع الملكة ايرينا بناء على طلبها - مدتها ثلاث سنوات مقابل دفع بيزنطة مالا للمسلمين مع تسليمهم أسراهم [٢٩]. ونود أن نشير هنا إلى أنه من البنود المثيرة للانتباه فى هذه المعاهدة البند الذى ينص على أن يتعهد البيزنطيون بإقامة الأسواق للمسلمين على طول طريق عودتهم إلى بلادهم ليشتروا أو يبيعوا ، وفى هذا النص دليل على ان الأسلاب والغنائم لم تعد هى وحدها الهدف الأقوى للحملات العباسية الكبرى على الدولة البيزنطية بل ظهر واضحا اهتمام العباسيين بإقامة علاقات تجارية وأن تحل المكاسب التجارية محل أسلاب الحروب [٣٠].

ثم كان من النتائج الواضحة لحملات المهدى المستمرة على الجبهة البيزنطية إظهار الطابع الدينى لحكمه حيث كان الصدام مع البيزنطيين ينزل فى نفوس العامة من المسلمين منزلة الجهاد [٣١]. والواقع أن التزام المهدى الدينى كان واضحا أيضا فى سياساته الداخلية ذلك أنه من المعروف أنه رغب فى نشر العدل فأقام ديوان المظالم وكان يجلس فيه بنفسه يستمع إلى شكاوى شعبه ، ثم إنه عرف عنه أيضا مطاردته بلا هوادة للزنادقة [٣٢]. فكأن حروبه على الجبهة البيزنطية هى الوجه الخارجي المقابل لالتزامه الدينى فى الداخل . ولقد أضحى هذا النشاط الحربى المتنامى للدولة العباسية على الجبهة البيزنطية والذى بدأه المهدى هو السمة المميزة لعهود من خلفه من بنى العباس وحتى الخليفة التاسع الواثق عندما ستبدأ بوادر تحول ملحوظ نحو تهدئة التحركات العسكرية على الحدود العباسية البيزنطية ، ورغم أن الحرب المستمرة على

---

٢٩ - رمضان ، الصراع بين العرب وأوروبا ، م س ذ ، ص ١٧٣.

٣٠ - Shacban , op.cit , vol . 2 , p 25.

٣١ - نادية حسنى صقر ، السلم فى العلاقات العباسية ، م س ذ ، ص ٢٠

٣٢ - Shacban , op.cit , vol . 2.

الجبهة البيزنطية كانت هى القاعدة الهامة لهذه الفترة ، الا أن الأمر لايخلو من وجود استثناءات . فعصر الهادى على سبيل المثال ـ وهو الخليفة العباسى الرابع ـ لانجد فيه ذكر لأى نشاط عسكرى ، واذا كان هذا يرجع فى جزء منه إلى قصر مدة حكمه التى لم تتعد العام (١٦٩ – ١٧٠) ، (٧٨٥ – ٧٨٦) الا ان السبب الأساسى فى هذا التراجع يرجع إلى انشغاله خلال هذا العام بمحاولة اخماد تمردين فى الداخل كان لكل منهما نتائج على العلاقات الإسلامية غير الإسلامية وإن ظهرت متأخرة .

أما التمرد الأول فكان حركة شيعية أتخذت من المدنية مقرا لها لمناوئة الخليفة العباسى منصبه ، ورغم أن هذه الحركة لم تشكل خطرا داهما وقت حدوثها حيث تمكن المركز من أن يقضى عليها سريعا ، الا أن أهميتها تكمن فى نتائجها المستقبلية حيث أن ابن عم قائد هذه الحركة وأحد أعوانه نجح في أن يفر من المدينة ووصل إلى شمال أفريقيا ، وهناك نجح ابنه فى تأسيس الدولة الادريسية عام (١٧٢ – ٧٨٨)[٣٣] كدولة مستقلة ومناوئة للدولة العباسية ، وكفاعل دولى مستقل له دوره فى النظام الدولى وله سياسته فى التعامل مع الأطراف الدولية غير الإسلامية ، كما سنرى فى المبحث الثانى من هذا الفصل.

أما التمرد الثانى فحدث في ارمينيا وقاده سكانها المحليون بالتحالف مع المسلمين الذين كانوا قد استقروا فى هذه المنطقة في عهود سابقة وفقا للسياسة الأموية فى تأمين الثغور عن طريق تشجيع المسلمين لسكناها ولقد جاء هذا التمرد كرد فعل للتوافد المستمر لمسلمين جدد يريدون الاستقرار فى الثغور، وربما كان للمزايا التى يجزلها العباسيون لمن يبدون استعدادا للاستقرار فى هذه المناطق ، ولقد شجع هذا التمرد قبائل الخزر على استئناف هجماتها على الدولة العباسية .

ومع ادرك الهادى لمدى خطر هذا الوضع الداخلى المتفجر في مناطق الثغور عمل على اقناع الوافدين الجدد بالتحول إلى مناطق ثغرية أقل كثافة ، وفى هذا كله إثبات لاهتمام العباسيين باستقرار منطقة الثغور بوصفها نهايات وحدود الدولة داخلها [٣٤] .

ومع تولى هارون الرشيد (١٧٠ – ١٩٣) ، (٧٨٦ – ٨٠٩) استعر الصدام العسكرى مع البيزنطيين ، ولم ينحصر الصدام فى عصره ، كما كان فى عصر أسلافه ، على ممتلكات الروم البرية بل تعداها إلى ممتلكاتهم فى البحر فى بادرة نادرة لاهتمام العباسيين بالبحر المتوسط بعد أن كان أحد المحاور الرئيسية للصراع مع البيزنطيين فى عهد الدولة الأموية . فنجد الرشيد يأمر بغزو قبرص عام ١٩٠ ويأخذ عددا هائلا من الأسرى من بينهم بعض رجال الدين [٣٥] ورغم استحواذ الجبهة

---

٣٣ - Ibid , p .

٣٤ - Ibid , vol . 2 , p 190 .

٣٥ ـ حسن، تاريخ الإسلام ، م س ذ ، ج٢ ـ ص ٢٤٧.

البيزنطية على قدر هائل من اهتمام الرشيد إلاأنه لم يصدر عنه ما ينم عن احيائه هدف اسقاط الدولةالبيزنطية بل تؤكد مجريات الأحداث انه كان يفضل عدم استخدام القتال كأداة من أدوات التعامل مع الدولة البيزنطية إلا فى حالات الضرورة القصوى .

فمع تولى الرشيد الخلافة كانت المعاهدة التى أبرمها مع الامبراطورة ايرينا بوصفه وليا للعهد قد اشرفت على الانتهاء ، ولادراكه لمدى الخطر البيزنطى ، اتخذ مجموعة من الخطوات الدفاعية الهامة كان أولها وضع الجيش تحت إمرته المباشر ليصبح هو قائده الأعلى ليضمن ولاء الجيش له أولا وأخيرا، ثم إنه نظر إلى أقليم الثغور وقرر دعم حصونه وتقوية قلاعه فى اشارة إلى اهتمام أكيد بتثبيت الحدود وتوفير الحماية التامة للدولة داخلها ، خاصة أنه قد لاحظ أن الثغور القائمة على الجبهة الشمالية قد فقدت طبيعتها العسكرية تماما وتحولت إلى شيء أقرب إلى المناطق التجارية الحرة بين المسلمين والبيزنطيين . فبالاضافة إلى المخاطر العسكرية الواضحة لهذا الوضع فإنه كان يكبد خزانة الدولة عبئا اقتصاديا واضحا ، فالدولة تدعم هذه الثغور دون أن تجنى من ورائها شيئا ، فالجنود لايؤدون الضريبة المقررة على الأراضى المقطعة لهم ، ثم لم يعودوا مؤهلين للقيام بوظيفتهم العسكرية التى يحصلون على كل هذه الامتيازات كمقابل لها حيث أنهم تحولوا إلى تجار وزراع .

وفى مواجهة هذا الموقف الخطير قرر الرشيد التخلى عن خط الثغور الشمالى وان يقيم بدلا منه خط دفاع جديد عن الدولة الإسلامية يمتد بطول السهول الجنوبية لسلسلة جبال طوروس ما بين طرسوس وحلب ولقد أطلق على هذا الخط الدفاعى الجديد اسم أقليم العواصم بدلا من الثغور وجعل قاعدته مدينة منبج [٣٦]. ولقد قرر منع استيطان الجند الحاميات فى أقليم العواصم ليمنع تحولهم إلى زراع وتجار مرة أخرى وأحل بدلا منه نظام الخدمة الدورية، ثم أنه لم يزد من عطايا جنود هذا الخط الدفاعى الجديد حتى لايصبح المال هو مصدر الجذب باستثناء واحد هو طرسوس لخطورة موقعها ولكن حتى فى حالة طرسوس فإنه لم يقطع الجنود بها أرضا زراعية[٣٧] .

أما الخطوة التالية والهامة لاقامة خط الدفاع هذا كانت هى أن يجد له العدد الكافى من الجنود. ولقد كان عامل الوقت فى صالحه حيث اقتنع الجنود الذين كانوا موجودين فى مناطق الثغور القديمة بعدم جدوى تمسكهم بالاقامة هناك فتحولوا إلى خط الدفاع الجديد، وهكذا بعد حوالى أربع سنوات وبحلول عام ١٧٤/٧٩٠ كان قد حقق استقرارا لنظامه الدفاعى الجديد مكنه من استئناف الصوائف على الجبهة البيزنطية منطلقة هذه المرة من منبج قاعدته الجديدة [٣٨]. ثم إنه قام أيضا بنقل مركز

---

٣٦ ـ نادية حسنى صقر ، السلم فى العلاقات العباسية ، م س ذ ـ ص ٢١ .
- Shachan , op.cit , vol . 2 , p 28 - 29 .

٣٧ ـ - Shachan , op.cit , vol . 2 , p 29 .

٣٨ ـ - Ibid , vol . 2 , p 30 .

اقامته إلى الرقة عام ٧٩٦/١٨٠ ليكون فى موضع وسط بين الجبهة البيزنطية من جانب واقاليم ارمينية واذربيجان من جانب آخر وهى أكثر الأقاليم اضطرابا فى دولته[٣٩]، ثم أنه حرص أيضا على ادخال دم جديد إلى جيشه بعد أن لاحظ استسلام الخراسانية إلى حياة الدعة والراحة وفقدهم من ثم الكثير من مقوماتهم كجنود ناجحين . ولقد استقدم عناصر جديدة من اشرسانه اسماهم بالقوات العباسية وجعل جنود هذه القوات موال له شخصيا، وسوف نلحظ أن مقدم هذا العنصر الجديد إلى الجيش سوف يثير حفيظة الجند الخراسانية وسيكون أحد اسباب انفجار الحزازات فى الجيش وبالتالى اثارة القلاقل فى الدولة بما يؤدى إلى ضعفها [٤٠] .

ولقد أثمرت كل هذه الاستعدادات الغايات المستهدفة منها، وهذه الغايات مرة أخرى لم يكن الفتح والتوسع فى الاراضى البيزنطية ولكن فقط اضفاء القوة والقدرة على الدولة العباسية حتى لاتجترىء عليها الدولة البيزنطية ، فكانت الغزوات التى يرسلها الرشيد هى فقط لاجبار الروم على الاستمرار فى دفع الجزية وتبادل الأسرى . وقبل هذا أو ذاك كانت استعراضا للقوة يضع الروم فى جانب التحرز من اثارة غضب جارتهم القوية . ولقد نجح الرشيد فى تحقيق هدفه طوال فترة الامبراطورة ايرينا التى كانت تحمل الجزية للمسلمين صاغرة ، فلما جاء الامبراطور نقفور على عرش بيزنطة خلفا لها نقض الهدنة وأرسل إلى هارون الرشيد ينذره برد أموال الجزية التى دفعت له والا فالسيف بينهما [٤١]. وان دلت هذه الرسالة على شىء فإنما تدل على أن الرشيد كان محقا عندما لم يستخف بالخطر البيزنطى رغم ضعف العرش اثناء حكم ايرينا ، فبذله أربع سنوات من حكمه لتدعيم موقفه العسكرى يعنى وعيا تاما بحجم المشكلة البيزنطية . ولقد أتت مجهودات الرشيد بثمارها فى الوقت المناسب حيث استطاع بفضل استعداده الجيد ان يقف لنقفور الصلف موقف الند وليجرد عليه حملة جرارة عام ١٨٧ قادها بنفسه فأخترق أسيا الصغرى فاستولى على هرقلة وهى من أهم مدنهم، ورغم هذا الانتصار الكبير ورغم قوة جيشه عددا وعدة ورغم اندلاع الفتن الدينية داخل بيزنطة وانشغال نقفور بها وكذا بخطر البلغار فان الرشيد فعل ما فعله العباسيون دوما فأرتد عن هرقله بعد أن أرغم نقفور على دفع الجزية ليثبت أن أيدى المسلمين هى العليا ولكنه لم يحاول استغلال الفرصة الذهبية لا بالهجوم على

---

٣٩ - Ibid , vol .2 , pp 30 - 31 .

٤٠ - Ibid , vol .2 , pp 38 - 39 .

٤١ - راجع نص الرسالة

نادية حسنى صقر ، السلم فى العلاقات العباسية ، م س ذ ،ص ٢١ ، نقلا عن :تاريخ ابن الوردى - ج١ ص ٢١٢.

انظر أيضا :حسن ، تاريخ الإسلام ، م س ذ ، ج٢ - ص ص ٢٤٥ - ٢٤٦

القسطنطينية رغم وجود قوة بحرية تعزز حملته البرية ، ولاحتى باقتطاع جزء من الاراضى البيزنطية والاحتفاظ بهرقلة وضمها للدولة الإسلامية (٤٢). وعندما سارع الروم بنقض الهدنة وأوقعوا بالمسلمين فى جنوب آسيا الصغرى لم يقم الرشيد إلا بمعاودة غزوهم فى حملة كبرى اخرى عام ١٩٠ دمر فيها هرقلة ثم غزاهم فى قبرص فى نفس العام وفرض الجزية اليه كل عام (٤٣) .

ولتأكيد الأثر السلبى المعوق الذى تتركه البيئة الداخلية المضطربة والقرارات السياسية الداخلية على البيئة الخارجية ومدى القدرة على التعامل معها بفعالية نسوق قرارا اتخذه الرشيد فى نهاية عصره يعتبر من صميم قرارات السياسة الداخلية للدولة العباسية لكنه ترك اثارا وخيمة على شكل التعامل الخارجى للدولة ، هذا القرار يتعلق بولاية عهده حيث قرر تقسيم الدولة إلى قسمين وأن تكون الرى هى الحد الفاصل بين هذين القسمين وجعل الأمين الذى يلى الخلافة بعده مباشرة مسيطراً على الجزء الغربى أما المأمون الذى يلى الأمين فى الخلافة فيكون مسئولا عن الجزء الشرقى من الدولة حتى أثناء خلافة أخيه . ثم انه قرر أن يكون لكل من القسمين استقلاله المالى والادارى والسياسى والعسكرى على أن يساعد المأمون أخاه بموارد "امبراطوريته الشرقية" المالية والعسكرية إذا استدعت الضرورة ذلك ، وبغض النظر عن نوايا الرشيد عند اتخاذه هذا القرار فأن ما ترتب عليه عملا هو انقسام الدولة العباسية إلى معسكرين : الأول له طابع فارسى يرأسه المأمون وتتكون قواته العسكرية من أبناء الأقاليم الشرقية ، والثانى له طابع عربى ويرأسه الأمين وتتكون قواته العسكرية أساسا من الخراسانية الذين شعروا بمدى الخطر الذى يتعرض له مركزهم مع ظهور قوات عسكرية جديدة ، وسرعان ما وقع الصدام بين المعسكرين بعد وفاة الرشيد وتولى الأمين فكان أن وجهت مصادر الدولة العسكرية والمالية لهذا الصدام الداخلى حيث فضل الأمين أن يحافظ على السلام على الجبهة البيزنطية والذى كان قد توصل اليه الرشيد قبل وفاته بأجبارهم على دفع الجزية والتى استمروا فى المحافظة عليها بسبب اضطراب أمورهم الداخلية ، فنجد الأمين يوجه الفائض الضخم فى الخزانة لزيادة عطايا قواته العسكرية التى كان يستخدمها ضد قوات أخيه المأمون فى فتنة داخلية توقف أثناءها التحرك العسكرى على طول الجبهة البيزنطية تماما (٤٤) .

ومن النتائج الهامة التى ترتبت على هذه الفتنة والتى انتصر فيها المأمون والمعسكر الشرقى بقيادة القائد العسكرى عبدالله بن طاهر أن تسلل مفهوم الولايات المستقلة إلى المشرق الاسلامى القريب من مركز الخلافة بل والذى يعتبر قلب الدولة العباسية

٤٢ ـ نادية حسنى صقر ،السلم فى العلاقات العباسية م س ذ ،ص ص ٢١ – ٢٢ .

٤٣ ـ حسن ، تاريخ الإسلام ، م س ذ ، ج٢ ـ ص ٢٤٦.

٤٤ ـ Shacban , op.cit , vol . 2 , p 39 - 47.

بعد أن كان مقصوراً حتى هذه اللحظة على الأقاليم النائية كالمغرب الاسلامى . ذلك أن طاهر بن الحسين قد كوفىء من قبل المأمون على خدماته العسكرية أثناء الفتنة بأن منح هو وأسرته من بعده استقلال ذاتى شبه تام على الأقاليم الشرقية على أن تكون خراسان هى قاعدة دولة الطاهريين الوليدة (٤٥) .

ومرة أخرى بانتهاء الحرب الأهلية وبضمان المأمون استقرار الأوضاع فى الأقاليم الشرقية تحت القيادة الكفء للطاهريين بدأ يحول أنظاره نحو العالم الخارجى، وكانت خطوته التمهيدية لعودة الدولة الإسلامية للتواجد على المسرح العالمى بقوة هى خطوة هامة وحكيمة لأنها تتعلق بتنظيم الجيش الذى هو عدة الدولة فى القيام بدورها على المسرح العالمى بفاعلية ، فلقد انزعج المأمون أيما انزعاج للفرقة التى تمزق الجيش العباسى والتى تولد الصراع والتنافر فهناك الخراسانية وهناك جند الشام والعراق وهناك القوات الجديدة المستقدمة من الأقاليم الشرقية ، ولقد ظهرت خلافاتهم المدمرة واضحة للعيان أثناء الحرب الأهلية ، ولذا قرر المأمون أن يقيم جيشا متجانسا يستطيع أن يعتمد عليه فى حماية الدولة والدفاع عنها فعمد إلى تقسيم الجيش إلى ثلاث فرق كل منها يختص بالحرب فى جبهة معينة على أن يتكون قوام كل فرقة من مجموعة من السريات كل منها ينتمى إلى واحدة من الفرق السابق ذكرها بحيث تجمع كل فرقة الأجناس كلها فيوازنون بعضهم بعضا ولا يَعُدْ فى مقدور أى فرقة أن تقيم لنفسها امتيازات خاصة فى منطقة عملياتها، وسنرى أن هذه السياسة الرامية إلى اقامة جيش متوازن يسهل قيادته سيتم اتباعها أيضا فى بعض الأحيان فى الأندلس حيث سيؤدى الصراع بين العرب والبربر من جانب والقيسية واليمنية من جانب آخر إلى تمزق الجيش وانصرافه عن مهامه فى مواجهة الأخطار الخارجية (٤٦) .

واذا كان المأمون قد جعل من نفسه القائد الأعلى للجيش إلا أنه جعل القيادة المباشرة لهذه الفرق الثلاث للحاكم العسكرى لبغداد وهو من الطاهريين وأوكل اليه مهمة حماية بغداد والعراق وفارس ، اما الفرقتان الأخريان فجعلهما تحت إمرة ابنه العباس وأخيه المعتصم وأوكل لهما معا العمليات فى الجبهة البيزنطية فى مصر والشام واذربيجان والعواصم والثغور والجزيرة (٤٧). ولقد مكن ترتيب الجيش هذا المأمون من أن يتخذ موقفا ايجابيا عندما بدأت الأمور تتوتر على الجبهة البيزنطية بعد فترة من الهدوء النسبى ، ولكن المأمون يختار أسلوبا جديدا فى التعامل مع الدولة البيزنطية وهوأثارة القلاقل فيها بالوكالة ، فبدلا من أن تقوم القوات الإسلامية بالصدام المباشر مع القوات البيزنطية فإن أحد المتمردين البيزنطيين يقوم بهذا الدور نيابة عنها

٤٥ - Ibid , vol . 2 , p49 - 50.

٤٦ - انظر وقارن الفصل الثانى

٤٧ - Shaeban , op.cit , vol . 2 , p 53 .

على أن تقدم له الدولة الإسلامية ما يحتاجه من مساعدات مادية ، ولقد وجد المأ... ضالته فى توماس الصقلبى الثائر فى آسيا الصغرى [٤٨] .

ويرى البعض أن المأمون إنما كان يهدف من وراء هذه المساعدات إلى فتح القسطنطينية وأسقاط الدولة البيزنطية [٤٩] بما يحمله هذا من معنى تغير استراتيجية التعامل الخارجى للدولة العباسية وعودتها إلى ماكانت تؤمن به الدولة الأموية كأهداف خارجية عليا ، ولكن واقع متابعة أحداث هذه الفترة ينفى هذا ويؤكد استمرار تمسك المأمون بالسياسة التى وضع أسسها المنصور فى التعامل مع الدولة البيزنطية والتى لاتهدف إلى اسقاطها ولكن فقط إلى جعلها تسلم بعلو وتسيد الدولة الإسلامية . فالمأمون وفقا لما نجده من أخبار فى كتب التاريخ ما كان يهدف إلى أكثر من تقويض ملك الامبراطور تيوفيل بدليل أن اتفاقه مع توماس الصقلبى كان على إمداده بالمال والرجال لكى يتمكن من دخول القسطنطينية واسقاط تيوفيل (وليس الدولة) ثم الجلوس مكانه . فالمأمون اذن لم يكن يريد اسقاط الامبراطورية البيزنطية وانما فقط اسقاط تيوفيل لكى يجلس على عرشها امبراطورا حليفا (توماس الصقلبى) تستطيع الدولة الإسلامية أن تقيم معه روابط تعاون وصداقة دون خوف من غدر أو نقض لهدنة أو لصلح . ولقد أدرك الامبراطور تيوفيل نفسه هذا فأرسل إلى المأمون يعرض العلاقات السلمية والتعاون واستئناف التبادل التجارى ، ولكن المأمون لم يستسغ صيغة الخطاب فقاتله خاصة عندما ادرك أن الروم يكيلون له بنفس الكيل عندما استغلوا تمرد بابك الخرمى الذى بدأ عام ٢٠١ فى الجبال الشمالية الشرقية حيث أمده الروم بالمساعدات رامين إلى أنشغال المامون بهذه الفتنة فى الداخل عن أمر مواجهتهم [٥٠] .

والواقع أن مساندة الدولة البيزنطية للحركة الخرمية كان لها أثر واضح فى قدرتها على الاستمرار فى مقاومة جيوش المأمون حتى ان المأمون قرر أن يضع حدا لهذا بمواجهة الدولة البيزنطية مباشرة فقرر أن يتولى الجبهة البيزنطية بنفسه بعد أن كان تاركا لها بين ابنه وأخيه [٥١]. ولقد ساهم فى تأخير أخر وضع قرار المأمون هذا بالجبهة البيزنطية موضع التنفيذ الفورى المصاعب الداخلية المتعددة التى كان يواجهها فى ذلك اضافة الى حركة الخرمية ، فمصر كان يجتاحها تمرد واسع فى ذلك الوقت

---

٤٨ ـ حسن ، تاريخ الإسلام ، م س ذ ، ج٢ ص ٢٤٧.
نادية حسنى صقر ، السلم فى العلاقات الدولية ، م س ذ ، ص ٢٢.
٤٩ ـ حسن ، تاريخ الإسلام ، م س ذ ، ج٢ ، ص ٢٤٧.
٥٠ ـ المرجع السابق ، ص ٢٤٧.
- Shachan , op.cit , vol . 2 , p 56.
٥١ - Shachan , op.cit , vol . 2 , p 59.

بسبب السياسة الضريبية للأراضى الزراعية اتسع بحيث لم يعد المعتصم قادرا على القضاء عليه ، فما كان من المأمون الا أن توجه بنفسه إلى مصر فأعاد الأمور إلى نصابها (٥٢) فلما ضمن استقرار الأوضاع فى مصر بما يحمى ظهره توجه إلى الجبهة البيزنطية وبدأ سياسة مواجهة عسكرية نشطة فقاد الصوائف بنفس بدءاً من عام ٨٣٠/٢١٥ خاصة وأن توماس كان قد هزم على يد الامبراطور ميخائيل فيما اعتبره المأمون هزيمةشخصية له (٥٣). ثم أنه أمر ببناء خط جديد من العواصم يمر فى طوانه وفرض له حامية قوية (٥٤). فى تاكيد من جديد على سياسة العباسيين الثابتة بإزاء الحدود وهو تدعيمها وتقويتها بوصفها نهايات وسياجاً يحمى الدولة داخله . ولقد أثمرت هذه السياسات العسكرية النشطة النتائج المرجوة منها حيث طلب البيزنطيون عقد الهدنة ومرة أخرى مؤكدين ـ كما فعلوا فى الهدنة السابقة . على استعدادهم لتأمين الطرق واقامة علاقات تجارية .

ولكن المأمون لم يستجب لطلب الهدنة واستأنف القتال لا لأنه أراد أن يستمر فى الطريق إلى النهاية فيسقط الدولة البيزنطية ولكن ، وهو يريد أن تكون يد المسلمين هى العليا ، لم يستسغ صيغة الخطاب التى لم يتضح منها بصورة كافية أن البيزنطيين يأتون صاغرين ، فما كان منه إلا أنه استقدم قوات جديدة استعدادا لجولة جديدة عنيفة من الغزو فى الأراضى البيزنطية ولكنه توفى قبل سيره هذا اليهم وذلك فى طرسوس عام ٨٣٣/٢١٨ فوقع الدور على أخيه المعتصم ليكمل ما بدأه هو على الجبهة البيزنطية (٥٥).

ولكن المعتصم كما هو متوقع قرر أن يلتفت للجبهة الداخلية أولا حتى يؤمن ظهره، فكان أن انشغل بأمر بابك الخرمى ـ المساند من قبل البيزنطيين ـ عن التعامل المباشر معهم وذلك حتى نجاحه فى القضاء على هذه الحركة عام ٢٢١. ولقد انتهز الامبراطور البيزنطى فرصة انشغال المعتصم بأمر بابك فأغار على حصن زبطرة راميا إلى شغل المعتصم وتشتيت جهوده على جبهتين حتى يفشل فى القضاء على بابك ، والشوكة التى غرزها البيزنطيون فى جنب الدولة العباسية فكانت تقدم لهم خدمة جليلة فيما يتعلق بأمر مواجهتهم للمسلمين ، ولكن نجح المعتصم فى القضاء على بابك وسرعان ما

٥٢- Ibid , vol . 2 , pp 59 - 61 .

٥٣ – رمضان ، الصراع بين العرب والمسلمين ، م س ذ ، ص ١٧٤ .

٥٤ – نادية حسنى صقر ، السلم فى العلاقات العباسية ، م س ذ ، ص ٢٢.

- Shachan , op.cit , vol .1, p 67

٥٥ ـ نادية حسنى صقر ، السلم فى العلاقات العباسية ، م س ذ ، ص ٢٢ .

حسن ، تاريخ الإسلام ، م س ذ ، ج٢ ، ص ص ٢٤٧ – ٢٤٨ .

التفت إلى الجبهة البيزنطية فأرسل الحملة العمورية التأديبية الشهيرة التى أوقعت بالبيزنطيين هزيمة قاصمة وخسائر فادحة، وهذه الحملة هى حملة هامة جدا من أكثر من جهة .

فمن ناحية : هى قد أظهرت بما لايدع مجالا للشك أن العباسيين فى مجال تعاملهم مع البيزنطيين لايريدون إلا أخضاعهم ولا يفكرون فى اسقاطهم ، فرغم انتصار المعتصم الباهر فى هذه الحملة فإنه كر عائدا ولم يحاول التقدم ليحقق انتصارا حاسما رغم أن الطريق كان مفتوحا أمامه إلى القسطنطينية بل ولم يحاول اقتطاع أى جزء من أراضيها وضمه إلى الدولة العباسية ، فحملته لم تكن إلا حملة تأديبية خاصة ردا على هجوم الروم على زبطرة وتمثيلهم بالمسلمين هناك . واذا صح ما يقوله البعض من أن رجوع المعتصم واحجامه على التقدم إلى القسطنطينية كان بسبب سماعه عن دعوة العباس بن المأمون لنفسه بالخلافة وأنها إنما كر عائدا خوفا من استجابة الناس له [٥٦] فان هذه تكون الحادثة الثانية فى العصر العباسي الأول التى يترك فيها قائد عسكرى ميدان القتال ليخوض صراعا على السلطة تحكمه أهواء ومصالح شخصية ، وفى هذا أيضا إشارة إلى مدى التأثير السلبى للجبهة الداخلية غير المستقرة على التعامل الدولى الفعال للدولة الإسلامية .

أما الأهمية الثانية لهذه الحملة فتكمن فى أنها أظهرت بوضوح تحول النظام الدولى إلى نظام متعدد الأقطاب يحرص أقطابه على أقامة توازنات دولية عن طريق عقد الاحلاف ، فالامبراطور البيزنطى اتصل بمناسبة هذه الحملة ببعض ملوك أوروبا يستنصرهم على الخليفة العباسى كما سنرى ويستعديهم على عدوهم المشترك الخليفة العباسي كما أنه اتصل بالأمراء الأمويين الذين انشقوا بالأندلس عن الدولة العباسية محاولا أن يقيم حلفا دوليا من القوى الدولية الموجودة على الساحة ليواجه به الدولة العباسية .

أما الأهمية الثالثة لهذه الحملة فهى أنها قد اظهرت أن التعددية السياسية فى المشرق الاسلامى أضحت نظاما مدعوما بحماية المركز الخلافى ذاته ، على خلاف الموقف من التعددية السياسية فى المغرب الاسلامى ، على أساس أن الدويلات المستقلة فى المشرق الاسلامى تؤدى خدمات سياسية للمركز لايمكن الاستغناء عنها ، فبعد أن نجح القائد العسكرى أفشين فى القضاء على بابك الخرمى أراد أن يحصل على مثل المكافاة التى حصل عليها الطاهريون من قبل وهو استقلاله الذاتى بأقليم الصغد، ولكن لما كانت هذه الاماكن قد وقعت فى وقت لاحق قريب تحت أمرة السامانيين ـ حلفاء الطاهريين ـ ولما كان هذا النظام يخدم المركز فان المعتصم أثبت أنه لايريد إخلالا بهذا التوازن الحساس فى المنطقة فأرسل بأفشين إلى السجن حيث مات بعد قليل [٥٧] .

---

٥٦ ـ عثمان ، الحدود الإسلامية ، م س ذ ، ج٢، ص ٢١٠.

٥٧ ـ Shachan , op.cit , vol . 2 , p 67 .

ولعل من أهم الخطوات التى أتخذها المعتصم فى المجال العسكرى والتى لم تظهر آثارها السلبية على التعامل الدولى للخلافة العباسية إلا فى وقت لاحق استقدامه لجنود جدد لدعم قواته العسكرية لكى تصبح قادرة على القيام بواجباتها المتزايدة نتيجة النشاط المتنامى على الجبهة البيزنطية . وجاءت الاستجابة لدعوته أساسا من قبائل الخزر التى طالما ناوشت الدولة الإسلامية فى مناطق الحدود ولكنها الآن أغرتها فرصة الخدمة فى أكثر الدول قوة وثروة فى النظام الدولى فى ذلك الوقت ، ولقد دخلت هذه القوات الجديدة كتب التاريخ الاسلامى باسم الأتراك وسيقدر لهم بعد قليل أن يلعبوا دورا محوريا فى توجيه مصائر الدولة العباسية فى الساحة الدولية [٥٨] .

المطلب الثالث : توقف النشاط الحربى على الجبهة البيزنطية لانشغال طرفى المواجهة الدولية بأمورهما الداخلية المضطربة :

وبوفاة المعتصم عام ٨٤٢/٢٢٧ أنتهت فترة هامة من فترات النشاط الحربى على الجبهة البيزنطية للدولة العباسية ، فالفترة الممتدة بين ارتقاء المهدى ووفاة المعتصم تعتبر من أنشط مراحل الصراع العسكرى بين القوتين الدوليتين على طول عهد الدولة العباسية . ورغم أن هذا النزاع لم يسفر عن أى تغير فى خط الحدود بين الدولتين ولم يؤثر على الكيان البيزنطى الذى ظل قائما فى النظام الدولى كأحد أقطابه الرئيسية ، إلا أنها تعتبر بحق مرحلة المجد العسكرى العباسى اذا ما قصد بالمجد امتلاك الجيوش الجرارة والعتاد الحربى المتقدم والخلفاء القادة الذين يخرجون على رأس الحملات يقودون جيوشهم إلى النصر نتيجة حنكتهم وتدريبهم على فنون القتال فتوغلوا داخل الدولة البيزنطية إلى أبعد مدى كان يناوئونه ثم يعودون ادراجهم منتصرين دون أن يمسهم سوء يذكر .

ولقد جاءت بداية النهاية لكل هذا مع الواثق الذى خلف أبيه المعتصم ليتوقف النشاط الحربى ويسود الهدوء على الجبهة البيزنطية حيث تخبرنا الكتب البيزنطية أنه لم يقع فى أيام الواثق ما يستحق أن يذكر فى مجال المواجهة العسكرية [٥٩]. والواقع أن توقف المواجهة العسكرية بين الدولتين إنما كان يرجع إلى ظروف داخلية صعبة أمسكت بتلابيب الجانبين وأسهمت فى تولد رغبة مشتركة لديهما لتجنب الصراع الخارجى ، كما أنها أدت فى ذات الوقت إلى عدم قدرة أى من الطرفين على استثمار ظروف الاضطراب الداخلى لدى الطرف الأخرلتحقيق مكاسب له على حساب هذا الطرف الأخر لأن كليهما كان منشغلا بدرجة كبيرة بمشاكله الداخلية[٦٠] .

٥٨- Ibid , op , cit , vol . 2 , pp 61 - 66 .

٥٩ – نادية حسنى صقر ، السلم فى العلاقات العباسية ، م س ذ ص ٣٦.

٦٠ـ المرجع السابق ، ص ص ٢٥ – ٣٦ – ٤٠ – ٥٧ – ٦٢.

فبالنسبة للدولة العباسية فلقد انشغلت فى هذه الفترة بسلسلة من الفتن والتمردات الداخلية من قبل ثورة القيسية فى دمشق والتى بدأت عام ٢٢٧ وكذا تمرد أعراب بنى سليم فى الحجاز والذى بدأ عام ٢٣٠. والملاحظة الجديرة بالاهتمام هنا هو أنه قد ظهر فى هاتين الحركتين مدى عدم رضا العنصر العربى فى الدولة العباسية على التزايد الواضح فى نفوذ الأتراك ليس فقط فى الجيش وإنما فى كافة أجهزة الدولة، ثم كان هناك أيضا تحرك خارجى عام ٢٣١، وفى نفس العام تمرد الأكراد فى اصبهان [٦١] هذا بالاضافة إلى مؤامرة على حياة الواثق ذاته دبرتها جماعة مناهضة للمذهب المعتزلى الذى كان المذهب الرسمى للدولة فى ذلك الوقت [٦٢] .

ولعل أخطر هذه التحركات من وجهة نظر هذه الدراسة كانت تلك الناقمة على تزايد نفوذ الأتراك لأن لها علاقة مباشرة بموضوع التعامل الدولى للدولة العباسية . فرغم أن الواثق لم يكن هو الذى استقدم العسكريين الأتراك إلى الدولة العباسية بل بدأ هذا مع المأمون وتزايد مع المعتصم، الا أن كلا منهما كان قائدا عسكريا أساسا استطاع أن يسيطر عليهم بوصفه قائدهم الأعلى فكان يستخدمهم فى العمليات العسكرية وكان قادرا على أن يحد من طموحهم الهدام ، والوضع كان مختلفا مع الواثق الخليفة المفكر المثقف الذى كان الكتاب هو رفيقه وليس السيف فلم يدرك الطريقة السليمة للتعامل معهم ، كما أن تطورا خطيرا قد طرأ على مركز الأتراك فى عهده وسيكون له أكبر الأثر على مستقبل الدولة الإسلامية وقدرتها كقوة دولية ، ذلك أنه مكنهم من السيطرة على الأمور المدنية فى الدولة عندما منح أشناس القائد التركى سلطات سياسية وأعطاه لقب سلطان فأضحى هو صاحب السلطة الحقيقى فى الدولة وفتح الباب للجند الأتراك لتولى المناصب الادارية العليا ، ثم أنه تقدم خطوة أبعد من هذا فى ذلك الطريق الشائك عندما قسم الدولة الإسلامية اداريا بين أشناس وايتاخ القائدين التركيين للأول القسم الغربى من الدولة والثانى القسم الشرقى وأصبح من سلطتهم ارسال الولاة من قبلهم لأقاليم هذين القسمين ، فأصبحوا دولة داخل دولة وبعد أن كان الأتراك قوة فى يد الدولة أضحوا قوة عليها فى وقت كانت الادارة فى الدولة قد وصلت إلى درجة من التردى تحتاج معه إلى اداريين أكفاء وليس عسكريين كل همهم أضحى اعتصار موارد الدولة ليحصلوا على عطاياهم دون أن يلتفتوا إلى حقيقة أنهم يعتصرون من الدولة الحياة ذاتها [٦٣] .

---

٦١ ـ المرجع السابق ، ص ٦٤.

٦٢ ـ Shacban , op.cit , vol . 2 , p 70 - 71 .

٦٣ ـ راجع :نادية حسنى صقر ، السلم فى العلاقات العباسية ، م س ذ ، ص ص ٤٢ – ٤٦.

فهذه التمردات الداخلية والثورات المذهبية وتزايد نفوذ الأتراك وسيطرتهم على الحياة المدنية وعلى الحكم والادارة وكذا الأزمة المالية كانت كلها عوامل أدت إلى اضطراب البيئة الداخلية فأثرت تأثيرا مباشرا على قدرة الدولة فى عهد الواثق على سلوك سياسة نشطة مع الدولة البيزنطية . ولقد مكن الواثق من المضى فى سياسة تهدئة الأمور على جبهته مع البيزنطيين أن الأخيرين رغبوا فى نفس الشيء لأنهم كان لديهم أيضا من مشاكلهم الداخلية والخارجية كذلك على جبهات أخرى ما يغنيهم عن فتح جبهة جديدة مع العباسيين هم فى غنى عنها طالما أن الأخيرين لايثيرون المتاعب .

فالامبراطورية البيزنطية كانت تعانى فى ذلك من أزمة انتقال الحكم حيث توفى تيوفيل وترك أبنه على العرش وهو طفل فى الثالثة من عمره يقوم عليه مجلس وصاية[٦٤]، ثم كانت هناك صراعات دينية أيضا بين مذاهب متعددة حول مسألة الايقونات وهى الصور والتماثيل التى تمثل السيدالمسيح والسيدة العذراء والقديسين ، ويسبب هذاالصراع كانت ثورة توماس الصقلبى الذى استغلها المأمون لصالح الدولة العباسية فى صراعها مع البيزنطيين [٦٥] ثم كان هناك أيضا صراع الدولة البيزنطية مع البوليسيين والذى أدى إلى هروبهم إلى ملطية وإلى موافقتهم على مساعدة الدولة العباسية فى صراعها مع الدولة البيزنطية باثارة القلاقل المستمرة للروم فى فلسطين وأرمينيا المتاخمة [٦٦]. واذا كان العباسيون بسبب ظروفهم الداخلية المتردية لم يستطيعوا استثمار عوامل الضعف الداخلى للدولة البيزنطية لصالح تعاملهم الصراعى معها، ولم يتمكنوا حتى من استغلال البوليسيين لتشكيل خطر حقيقى على الدولة البيزنطية ، الا أن طرفا اسلاميا آخر استطاع أن يستغل ظروف انشغال الدولة البيزنطية بأمور داخلية خطيرة لتحقيق مكاسب لهم على حساب الروم البيزنطيين هؤلاء كانوا الأغالبة والادارسة فى المغرب الاسلامى الذين استطاعوا أن ينتزعوا كريت كاملة وجزءاً من صقلية عام ٢١٢ . ولقد ادركت الامبراطورة تيودورا أمام المخاطر المحدقة بها على جبهات ثلاث الداخلية أولا ثم الجبهة العباسية من جانب ثان وجبهة المغرب الاسلامى من جانب ثالث أن عليها أن تحدد أولوياتها فى ظل ادراكها لقدرتها المحددة على تحـرك خارجى فعال بالنظر إلى تردى الاوضاع الداخلية ، فكان أن أختارت أن تواجه جبهة المغرب الاسلامى . وفى هذا دلالة على تعاظم خطر هذا الطرف الاسلامى الصاعد اذا ما قيس بخطر العباسيين فى الشرق ، وفيه دلالة أيضا على ادراك البيزنطيين قدرتهم على تحييد العباسيين نتيجة ظروفهم الداخلية السيئة

---

٦٤ ـ المرجع السابق ، ص ص ٨٢ – ٨٣ .

٦٥ ـ غازيليف فازيليف ، العرب والروم ـ ترجمة محمد عبدالهادى شعيرة (القاهرة :دار الفكر العربى، د ت) ص ص ٣٨ – ٣٩ .

٦٦ ـ المرجع السابق ، ص ص ٢٠٢ ـ ٢٠٤.

على خلاف الوضع مع الأطراف الإسلامية فى المغرب الاسلامى ، ومن ثم نجد الامبراطورة تسعى إلى الواثق بطلب للفداء عام ٨٤٥/٢٣١ لتضمن السلام الرسمى ولو إلى حين تتفرغ خلاله للجبهة الغربية محاولة أن تعيد لبيزنطة نفوذها فى البحر المتوسط حيث كانت قد أرسلت حملتين فاشلتين واحدة لاسترداد كريت عام ٨٤٣/٢٢٩ والثانية لرد المسلمين عن صقلية عام ٨٤٤/٢٣٠ (٦٧) .

وبوفاة الواثق دون أن يعهد إلى أحد جاء الجند الأتراك بالمتوكل إلى حكم الدولة العباسية ٢٣٢ - ٨٤٧/٢٤٧ - ٨٦١ فى اشارة قوية إلى بداية تدخل الأتراك فى مؤسسة الخلافة ذاتها . ولقد حاول المتوكل القيام باصلاحات داخلية تنعكس ايجابية وفعالية فى التعامل الخارجى وكان من أهم ماحاول اصلاحه الجيش فعمد إلى اعادة بناء القوات الحربية بما يسمح بتكوين جيش متجانس يخضع له مباشرة دون أى وساطة من أى قائد عسكرى إنما يستتبعه ذلك من ضرورة القضاء على القادة العسكريين الذين يتمتعون بقدر ملحوظ من الاستقلال والسطوة مثل الأتراك والطاهريين ، ولقد ساعدته الظروف أحيانا بموت بعض هؤلاء القادة وتحرك هو أحيانا أخرى فأسر البعض ثم قسم الدولة بين أبنائه الثلاثة ليضعف الطاهريين ثم عمل على تكوين جيش جديد بدلا من الجيش القائم يكون موال له شخصيا ثم أنه أنتزع الاقطاعات من أيدى القواد العسكريين فكانت هذه القشة التى قصمت ظهر البعير حيث قرر القادة الأتراك قتله قبل أن يستفحل أمره أكثر من ذلك ونجحوا فيما أرادوا فكان المتوكل أول خليفة يقتل بيد العسكريين الأتراك الذين أحكموا سيطرتهم منذ ذلك الوقت على البلاد وأضحى الخلفاء ألعوبة فى ايديهم هم الذين يولونهم وهم الذين يعزلونهم أو يقتلونهم ويعذبونهم اذا اقتضى الأمر (٦٨).

ولسنا فى حاجة إلى أن نقول إن فترة المتوكل شهدت تراجعا واضحا للدولة الإسلامية فى المجال الدولى نتيجة انشغاله الشخصى التام بأمور الجبهة الداخلية ، فنجد ذيول بابك الخرم يثورون فى أرمينيا واذربيجان ونجد قبائل البجه تنتفض فى مصر ونجد البيزنطيين ينشطون مرة أخرى بعد فترة سكون طوال عهد الواثق ليهاجموا دمياط بكل جرأة عام ٨٥٢/٢٣٨ . واذا كانت الدولة العباسية حتى عهد الواثق كانت مازالت تتعامل دوليا من مركز قوة رغم كل مشاكلها الداخلية فتملى ارادتها عند التفاوض مع البيزنطيين على شروط الصلح والفداء (٦٩)، فإن الآية سرعان ما ستنقلب تماما فى عهد المتوكل ، واذا كان تردى أحوال المسلمين ليس بالأمر الذى

٦٧- المرجع السابق ، ص ص ٨٢ - ٨٣ .

٦٨ - Shachan , op. cit , vol .2 , pp 72 - 78 .

٦٩ ـ نادية حسنى صقر ، السلم فى العلاقات العباسية ، م س ذ ص ص١٢٧ - ١٢٨ .

جد فى عهد المتوكل هو سبب أنقلاب الآية لصالح البيزنطيين ، فإن الذى جد حقيقة ووضع الدولة العباسية فى موضع الدفاع والتراجع بصورة واضحة هو بداية انتعاش الدولة البيزنطية فى تلك الفترة . فلقد نجحت فى تخطى مشكلة الصراعات الدينية داخلها ، وبدأت فى تبنى سياسة اصلاحات اقتصادية أتت ثمارها لتولى أمر خزانة الدولة واحدا من أكفأ الماليين ، ثم جاء دور الاصلاحات السياسية والثقافية مع تولى الامبراطور المثقف الشاب ميخائيل الثالث الذى رعى العلم والثقافة (٧٠) ولاحظ أن كل هذه الاصلاحات كانت تحتاجها الدولة العباسية ولم تجد السبيل اليها كما حدث فى الدولة البيزنطية .

ولكن نقطة التحول الرئيسية فى الدولة البيزنطية فى هذه الفترة وبالتالى فى تاريخ علاقاتها الدولية مع الأطراف الإسلامية جاءت مع وصول الأسرة المقدونية إلى الحكم عام ٨٦٧/٢٥٣ ، فلقد بدأت هذه الأسرة عصر بعث حقيقى للدولة البيزنطية . ولقد استمر حكمها قرابة مائتى عام ٢٥٣ - ٨٦٧/٤٤٩ - ١٠٣٧ بلغت فيها دولة الروم ذروة مجدها وقوتها فى حين شهدت ذات الفترة أقصى درجات الضعف والتدهور للدولة العباسية وهى الفترة التى عرفت بالعصر العباسى الثانى . ولكن اذا كانت الدولة العباسية قد ضعفت فى تلك الفترة فلم تستطع أن تقف موقف الند من الدولة البيزنطية المنتعشة ، فإن الأطراف الإسلامية الموجودة فى المغرب الاسلامى فى ذات الفترة استطاعت أن تحمل العبء الذى ناءت به الدولة العباسية فى المشرق لتبقى على راية الإسلام مرفوعة فى الساحة الدولية .

المبحث الثانى
سياسات الفتح وأنماط التحالفات فى ظل اللامركزية والتعددية فى المغرب الإسلامى

رأينا فى المبحث السابق الظروف الدولية التى تشكلت من خلالها سياسة الدولة العباسية فى المشرق الإسلامى فتحولت عن سياسة الفتوحات ضد الدولة البيزنطية والتى كانت السمة المميزة لدولة الخلافة الأموية السابقة عليها وذلك رغم استمرار الصراع قائما بينها وبين الدولة البيزنطية ، حيث أكتفت الدولة العباسية بالعمل على الحفاظ على زمام المبادرة فى أيديها فكان يدفعها هذا أحيانا إلى ارسال الحملات وتسيير الجيوش بغرض التأديب وحفظ الهيبة وليس بغرض الفتح .

وسنرى فى هذا المبحث كيف أن ذات الوقت الذى شهد انتهاء سياسات الفتح فى المشرق، شهد فى الجانب المقابل مدا قويا للفتوح فى المغرب حيث زحف المسلمون على

---

٧٠ ـ المرجع السابق ، ص ٩٠.

طول الساحل الافريقى الشمالى على غرب أوروبا خاصة فى شمال اسبانيا وفرنسا وايطاليا وسويسرا ، كما أنهم نزلوا البحر المتوسط واحتلوا جزره المحورية ووصلوا جبال الالب واستقروا فى جنوب فرنسا [٧١] .

أما الأطراف الأساسية التى اضطلعت بمهمة الفتح فى المغرب فكانت هى الدويلات الإسلامية التى قامت فى هذا الجزء من العالم الاسلامى مستقلة عن الدولة العباسية إما استقلالا تاما هو أقرب إلى الانفصال وإما استقلالا فى إطار قبول نمط التبعية الاسمية للخلافة العباسية فى المشرق . واذا كانت الامارات المستقلة التابعة اسميا للخلافة العباسية مثلت بسياستها الفتحية أضافة للدولة العباسية فى تعاملها مع الأطراف الدولية الأخرى ودعما لمركزها فى المحيط الدولى ، فإن الدويلات المنفصلة التى قامت فى مواجهة الدولة العباسية إما سياسيا (الدولة الأموية فى الأندلس) ، أو مذهبياً (دولة الادارسة)كان من البدهى أنها تقوم بفتوحاتها لحسابها الخاص بما يحمله هذا من تفتيت لمعنى الوحدة فى دار الإسلام ، بل الأخطر من ذلك ان سياسات العداء التى استعرت بين هذه الدويلات المنفصلة والدولة العباسية أضحت عاملا مضعفا لقدرة الدولة الإسلامية ككل على التعامل الدولى الفعال حيث أفرزت نمطا عجيبا من التحالفات الدولية يجمع أطرافا دولية مسلمة وغير مسلمة فى حلف واحد ضد حلف آخر له نفس التركيبة ـ كما سنرى بالتفصيل بعد قليل .

فاللامركزية كانت اذن سمة أساسية من سمات الدولة العباسية فى تميزها عن الدولة الأموية التى ظلت منذ أن ولدت وحتى دالت دولة واحدة ورغم تعاظم مشكلاتها الداخلية والخارجية فى نهايات أيامها استطاعت أن تحافظ على وحدة دار الإسلام وسلمت رايته للعباسيين وشمل المسلمين كلهم مجتمع فى دولة واحدة [٧٢] . ولم يستطع العباسيون أن يحافظوا على هذه السمة أكثر من ست سنوات بعد قيامهم ، فاللامركزية كانت واقعا فى الدولة العباسية ، والخطير هنا أنه اذا كان العباسيون قد نجحوا ابان عصر قوتهم فى أن يحيدوا الآثار السلبية لهذه السمة ، بل وأن يفيدوا منها أحيانا ، إلا أن هذه السمة ستضحى وبالا على الدولة العباسية وستكون من الأسباب المباشرة فى دخولها عصر الانحلال والضعف بدءاً من منتصف القرن الثالث الهجرى /العاشر الميلادى . خاصة مع تنامى وتسيد نمط التعددية (ونقصد به الامارات المنفصلة عن المركز الخلافى العباسى فى بغداد انفصالاً تاماً) وتراجع نمط اللامركزية (ونقصد به الامارات المستقلة عن المركز الخلافى ولكن تقبل بالسيادة الاسميةله) . واللامركزية . ثم التعددية كانا مظهرين من مظاهر تفكك الدولة العباسية

---

٧١ ـ رمضان ، الصراع بين العرب وأوروبا ، م س ذ ، ص٢١٨ .

٧٢ ـ الخطيب ، دراسات تحليلية ، م س ذ ، ص ١٤٦ .

بعد أن اتسعت رقعة دار الاسلام لتصل من قلب آسيا شرقاً حتى بحر الظلمات غرباً مما أعجز يد الخلافة العباسية عن الامساك بذلك العدد الكبير من الأقاليم وعن احكام السيطرة علي الحكام المحليين فانفرط العقد وقامت دويلات اسلامية بعضها استقل عن الخلافة تماماً والبعض الآخر ربطته بالخلافة روابط وصلات تتفاوت فى مدى قوتها أو ضعفها .

والذى يهمنا من هذه السمة هنا ، سواء سمة اللامركزية أو التعددية ، هو مدى انعكاسها سلبا أو ايجابا على قدرة دولة الإسلام على التعامل الدولى الفعال .

وسندرس هذا فى مطلبين يتناول أولهما الولايات المستقلة التابعة للدولة العباسية ويتناول ثانيهما الامارات المنفصلة عن الدولة العباسية .

المطلب الأول : العلاقات التعاضدية بين الدولة العباسية والدويلات المستقلة التابعة لها وانعكاس ذلك على سياسات الفتح والتوسع :

رغم أن هذا المبحث يهتم بمغرب العالم الاسلامى إلا أن أى حديث عن سمة اللامركزية والاستقلالية فى الدولة العباسية لابد وأن يتعرض لما يعرف فى المصادر بالسياسة الشرقية للدولة العباسية .

فلقد أولت الدولة العباسية دائما الأقاليم الشرقية عناية خاصة حيث كانت تحرص على توفير قدر عال من الاستقرار فى هذه الأقاليم تأكيدا لاستمرار تدفق تجارتها العالمية عبر هذه المناطق ، فكانت الدولة العباسية تعتنى دائما باتخاذ الاجراءات اللازمة لتثبيت أقدامها فى أقاليمها الشرقية وللقضاء السريع والحاسم على كل اضطرابات تنفجر فى هذه المنطقة ، ومن أشهر هذه الاجراءات ما أُتخذ فى عهد الرشيد ، رغم انشغاله الواضح بالجبهة البيزنطية كما رأينا سابقا ، والذى عرف باسم السياسة الشرقية ومؤداها أن يكون للأقاليم الشرقية وضعها المالى والضريبى المستقل بحيث تكون مواردها حكرا عليها تنفق فيها ولاترسل للخزانة (٧٣) ، وسرعان ما ستتخذ هذه الأجراءات والتى تعنى استقلال تلك الأقاليم عمليا ، شكلا رسميا فى عصر المأمون عندما سيوافق أن تخضع تلك الأقاليم للحكم الذاتى للطاهريين الذين ساعدوه فى حربه ضد أخيه الأمين .

ولقد أحتفظ الطاهريون بعلاقات ممتازة مع الدولة العباسية فلم يؤد قيامهم إلى إضعاف المركز عن طريق شغله بصراعات معهم بل إن العكس كان هو الصحيح ، حيث دعموا من قوة الدولة العباسية لقيامهم بدور صمام الأمان فى الأقاليم الشرقية

٧٣- Shaban , op. cit , vol . 2 , pp 31 - 36 .

حيث تولوا نيابة عن المركز مهمة حفظ الاستقرار فى تلك المناطق الهامة للدولة من قبيل تحركهم السريع للقضاء على تمرد مازيار أمير طبرستان فى عهد المعتصم .

وليس أدل على الدور الايجابى الذى لعبه الطاهريون فى توطيد دعائم الدولة العباسية فى الأقاليم الشرقية الهامة وحماية جبهتها الشرقية التى تميزت بوجود - ليس كيانا دوليا مثل الدولة البيزنطية - وإنما قبائل عدة ذات نزعة استقلالية واضحة كثيرا ما تنتهز كل فرصة ممكنة للانتفاض ، من أن خلفاء العصر العباسى الأول عملوا على تدعيم قوتهم ولم يعترض أى منهم على استقلالهم بأقاليمهم باستثناء المتوكل - آخر خلفاء العصر العباسى الأول - الذى قدر ، نتيجة تضخم قوتهم إلى حد الخطر ، أن الخدمات التى يقدمونها لاتوازى الخطر الذى أضحوا يمثلونه فعمل على القضاء عليهم والحد من نفوذهم فما كان إلا أن انفجرت اضطرابات عدة فى أرمينيا واذربيجان مما أكد الدور الايجابى الذى كانوا يلعبونه بالفعل على الجبهة الشرقية للدولة العباسية (٧٤) .

ولم يقتصر دور الطاهريين فى دعم الدولة العباسية والتمكين لها على مستوى علاقاتها الخارجية مع أطراف غير اسلامية ولكنه امتد أيضا إلى علاقاتها الداخلية مع الأقاليم الإسلامية خاصة فى القسم الغربى من دار الإسلام . والواقع أن هذا الجزء الغربى لم يكن أبدا خاضعا لسيطرة العباسيين ، فمصر مثلا كانت منتفضة على المركز بصورة شبه دائمة بداية من عهد المنصور بل وكادت تنجح فى أن تستقل فعليا عن المركز فى بغداد فى عصر المأمون بعد انتفاضة طولها أحد عشر عاما ، فلم يجد المأمون أكفأ من الطاهريين للتعامل مع الموقف فذهب عبدالله بن طاهر الى أهل مصر وقضى على اضطرابهم فى حينه (٧٥) .

ومثل الطاهريين فى المشرق كان الأغالبة ومجاهدى البحر فى المغرب . فإذا نظرنا أولا إلى الأغالبة وبالتحديد فى أفريقيا (تونس الحالية)(١٨٤ -٢٩٧ هـ) ، نجد أنه كما ارتضى العباسيون تمتع الطاهريين بالحكم الذاتى مقابل قيامهم بدور رجل الشرطة على الجبهة الشرقية بالأساس لحساب الدولة العباسية فانهم قد وافقوا على تمتع الأغالبة - ولاتهم على افريقية - باستقلال ذاتى حتى يقدموا لهم خدمات محددة فى ذلك الجزء المضطرب والنائى من العالم الاسلامى . فالمغرب الاسلامى كان يعانى بصفة مستمرة من ثورات البربر المتوالية ، ثم كان قيام دولة الادارسة فى مراكش عام ١٧٢ هـ كدولة شيعية مناهضة للدولة العباسية ومنفصلة عنها عاملا حاسما فى استجابة هارون الرشيد لطلب واليه ابراهيم بن الأغلب أن يستقل بأفريقية مقابل مال يؤديه إلى الخزانة العامة كل عام .

---

٧٤ - Shachan , op. cit , vol .2 , pp 77 - 78 .

٧٥ - حسن ، تاريخ الإسلام ، م س ذ ، ج٢ ، ص ص ٨٩١ - ٢٠٢ .

فاحتمال خروج المنطقة كلها من يد الدولة العباسية لم يعد بعيدا ففضل الرشيد أن يوليها تابعا له يدين بتبعية ولو أسمية للخلافة على أن يحفظ المنطقة من أخطار التوسع الادريسي أو الاستقلال البربري [٧٦] .

ولقد قامت دولة الأغالبة بمهمتها كرجل شرطة يعمل لصالح العباسيين في المنطقة على وجه حسن حتى سقوطهم للفاطميين الذين لم يكن لهم قبل بهم .

ولم تقتصر مهام دولة الأغالبة على القيام بدور في العلاقات الإسلامية /الاسلامية، بل إن دورها الايجابي تمثل في قيامها بمهام فعالة على مستوى العلاقات الإسلامية - غير الاسلامية حيث استأنفت في المغرب الاسلامي سياسة الفتوحات فمثلت سياستها تلك إضافة ايجابية لمركز الدولة العباسية التي كانت تتبعها في المحيط الدولي في وقت كانت الدولة تنشغل فيه عن القيام بهذا الدور[٧٧] ..

والواقع أن الاغالبة سينجحون في فتح جزيرة فشل المسلمون منذ بداية حركة الفتوحات في عهد الخلافة الراشدة وحتى نهايتها مع زوال الخلافة الأموية في فتحها رغم المحاولات المستمرة لتحقيق ذلك وهي جزيرة صقلية . ويرجع هذا الفشل لأسباب عديدة منها بعد جزيرة صقلية عن مراكز الأسطول الإسلامي آنذاك في الشام ومصر ، فضلاً عن أن أقدام المسلمين لم تكن قد استقرت نهائياً في شمال افريقيا وهي بلاد اشتهر أهلها بركوب البحر . ففي عام ٢١٢ بدأ الاغالبة عملية طويلة وشاقة لفتح تلك الجزيرة التي بدأت أولى محاولات فتحها عام ٦٥٢/٣٢ واستمرت طول العهد الأموي فخرجت الحملات متوجهة اليها أعوام ٦٦٨/٤٨ ، ٧٠٠/٨١ ، ٧٢٠/١٠٢ ، ١٢٧/١٠٩ ، ٧٢٨/١١٠ ، ٧٣٠/١١٢ ، ٧٣٢/١١٤ وكذلك في بداية العصر العباسي عامي ٧٥٢/١٣٥ ، ٧٥٣/١٣٦ ، ثم توقف غزو صقلية من الشرق الاسلامي منذ ذلك العام ولم يبدأ غزوها مرة أخرى إلا مع الاغالبة ومن الشمال الافريقي في المغرب الاسلامي . ولقد تصاعدت الحملات الإسلامية التي تخرج من افريقية الاغالبة إلى صقلية حتى وصلت حدا دفع حاكمها من قبل الامبراطورية البيزنطية إلى أن يسعى وينجح في عقد صلح مع الأمير الاغلبي عام ١٩٠ ولمدة عشر سنوات، وظل يُجدد حتى سنحت فرصة ذهبية للأغالبة للاستيلاء على الجزيرة عام ٨٢٦/٢١١ . وهذه الفرصة تكرر مثلها كثيرا قبلا وسوف يتكرر مثلها كثيرا بعدا في تاريخ العلاقات الإسلامية - غير الإسلامية وتمثلت ، في حالة صقلية ، في لجوء أحد المتمردين الصقليين على

---

٧٦ - حسن ، تاريخ الإسلام ، م س ذ ، ج٢ ، ص ص ٢١٢ - ٢١٣ .

٧٧ - رمضان ، الصراع بين العرب وأوروبا ، م س ذ ، ص ١٨٨ .

الحكم البيزنطى إلى أمير الأغالبة يقترح التعاون على فتح الجزيرة ليتمكن الثائر من الوصول إلى الحكم على أن يكون تابعا للأغالبة ويدفع لهم الجزية (٧٨) .

والواقع أن الاغالبة لم يوافقوا على هذا الحلف مع الثائر الصقلى ، ولكن خطوته تلك كانت هامة فى دفعهم إلى عقد العزم على نقض الهدنة والتقدم للاستيلاء على الجزيرة مستغلين اضطراب الأحوال الداخلية بها والذى أظهره لأعينهم واقترح الثائر الصقلى ، ولقد اتخذ فتح الاغالبة لجزيرة صقلية طابعا دينيا واضحا حيث حرصوا مثلا على أن يحصلوا على فتوى بامكان نقض العهد المبرم بينهم وبين صقلية ، وعندما صدرت فتوى بذلك كانت دعوة الحاكم الأغلبى إلى الجهاد ، وكان رفضه القاطع أن يشترك الثائر البيزنطى أو أى من قواته فى العمليات العسكرية لفتح الجزيرة ، وكانت روح الجهاد التى ظهرت على عملية فتح هذه الجزيرة منذ البداية عام ٢١٢ هى التى مكنت المسلمين من الصمود المستميت لفتح تلك الجزيرة والتى لم يتم إلا عام ٢٦٤هـ بسبب الصعوبات الهائلة التى واجهتهم حيث كان البيزنطيون قد انتبهوا لرغبة المسلمين الجادة فى الاستيلاء عليها فعملوا على تحصينها بصورة جعلت منها قلعة منيعة خاصة أنها تمثل القاعدة الأساسية لحماية الحدود الجنوبية للامبراطورية البيزنطية(٧٩) .

ومما تجدر الاشارة اليه فى علميات فتح صقلية أن المساعدات كانت تأتى الاغالبة ـ عندما تأتى ـ من الأندلس وليس من الدولة العباسية التى يدين لها الأغالبة رسميا بالولاء ، هذا على الرغم من أن الدولة البيزنطية كانت خصما عنيدا فى هذه العملية ليس فقط من خلال القوات المحلية التابعة لها رسميا ولكن أيضا من خلال المدد العسكرى ـ والبحرى خاصة ـ الذى كانت ترسله دوما لدعم القوات المحلية التى تدافع عن الجزيرة باسمها (٨٠) . ويؤكد هذا ما سبق بيانه من أن الدولة العباسية ـ حتى فى صراعها مع الدولة البيزنطية ـ كانت مهتمة بصورة أساسية بممتلكاتها فى آسيا الصغرى والوسطى حيث تمر طرق التجارة وليس بممتلكاتها الجزرية فى البحر المتوسط.

وربما يكون قصور المدد من المركز فى بغداد سببا ولو غير مباشر فى بطء تقدم المسلمين فى الجزيرة ، ولكن رغم أن اتمام فتحها استمر قرابة النصف قرن الا أنه

---

٧٨ ـ المرجع السابق ، ص ص ١٨٨ ، ١٩٨ .

حسن ، تاريخ الإسلام ، م س ذ ، ج٢ ، ص ص ٢١٨ ، ٢٢٠ .

عنان ، مواقف حاسمة ، م س ذ ، ص ص ٧٨ ـ ١٩ .

نادية حسنى صقر ، السلم فى العلاقات العباسية ، م س ذ ، ص ص ٢٠١ ـ ١٠٥ .

٧٩ ـ رمضان ، الصراع بين العرب وأوروبا ، م س ذ ، ص ص ١٨٩ – ١٩٠

٨٠ ـ المرجع السابق ، ص ١٩٠ .

كانت هناك محطات حاسمة فى طريق فتحها منها سقوط باليرمو عام ٢١٦ هـ والتى جعل منها المسلمون قاعدة ثابتة لهم فى الجزيرة ينطلقون منها للغزو بعد أن كانوا ينزلون فى معسكرات متنقلة وهو ماعده المؤرخون نقطة انطلاقة هامة فى سبيل الفتح النهائى للجزيرة ، ثم كان فتح المسينا عام ٨٤٣/٢٢٩ والتى ادى فتحها إلى انفتاح الطريق أمام المسلمين إلى جنوب ايطاليا والتى كانت من أواخر ممتلكات البيزنطيين فى حوض المتوسط الأوسط .

ثم كان سقوط قصريانة عام ٥٤٢ وهو السقوط الذى اهتزت له القسطنطينية وحاولت من ثم استرجاعها بشتى الطرق ولكنها فشلت [٨١] . والواقع انه مما تجدر الإشارة اليه هنا هو أنه رغم أن الفتوحات الإسلامية فى غرب أوروبا لم تكن تستند إلى العمق الاسلامى فى المشرق من حيث الحصول على المدد والعون المادى المباشر ، إلا أنه لايمكن اغفال أن أحد أهم العوامل غير المباشرة فى انجاح الحملات الإسلامية فى الممتلكات البيزنطية فى حوض المتوسط هو نجاح الدولة العباسية فى المشرق فى ابقاء البيزنطيين منشغلين عن ممتلكاتهم فى حوض المتوسط بالخطر العباسى الرابض على حدودهم فى آسيا الصغرى والذى تصاعد فى عهد المأمون والمعتصم اللذين زامن عهدهما حملات الاغالبة على صقلية لتتخذ شكل حملات ضخمة على الامبراطورية فى المشرق .

واذا كانت قوة الدولة العباسية فى المشرق قد ساعدت الأغالبة فى المغرب بصورة غير مباشرة على تحقيق نجاحات واضحة فى غزوهم لصقلية ، الا أن عدم تقديم الدولة العباسية عونا عسكريا مباشرا أدى إلى انقضاء العصر العباسى الأول ولم يوفق الاغالبة فى فتح جزيرة صقلية فتحا كاملا ، ولكن قد يكون عدم اعتماد الاغالبة فى فتوحاتهم على العمق الاسلامى فى المشرق منه . اذا نظرنا له من ناحية أخرى ، حيث إن انقضاء العصر العباسى الأول ، عصر ازدهار الدولة العباسية وبداية العصر العباسى الثانى عصر انحلالها وضعفها ، لم يؤثر بالسلب عل فتوح الاغالبة فأستمرت بنفس القوة وسقطت لهم مدن من الجزيرة هامة كانت تهتز لسقوطها القسطنطينية كما اهتزت لسقوط قصريانه من قبل ـ كما سيأتى بيانه فى الفصل القادم .

ونزول المسلمين صقلية حتى قبل اتمام فتحها وتأسيسهم حكما اسلاميا بها استمر قرنين من الزمان ، كان له أثر عظيم على مد الفتوحات فى حوض البحر المتوسط وعلى النظم المسيحية المطلة عليه . ذلك أن المسلمين استطاعوا أن يجعلوا من صقلية بحق مفتاح حوض البحر المتوسط الأقصى والغربى خاصة فى ايطاليا ، ولقد ساعدهم على ذلك ظروف الجانب المسيحى حيث كانت ايطاليا منقسمة فى ذلك الوقت إلى

---

٨١ ـ المرجع السابق ، ص ص ١٩٠ ـ ١٩١ .

امارات متنافسة فلجأ بعض أمرائها إلى الجار المسلم القوى فى صقلية للاستعانة به فى صراعاتهم ، فكان أن عرف المسلمون كيف يستفيدوا من هذه الأوضاع فاتخذوا من قواعدهم فى باليرمو والمسينا خاصة نقطة انطلاق تخرج منها حملاتهم البحرية على سواحل ايطاليا فأحتلوا برنديزى عام ٨٣٦ واجتاحوا نابولى وكلابريا وبنفيتو وتارنتو وبارى فيما بين ٨٣٦ ، ٨٤٢ وثبتوا أقدامهم فى بعض هذه المناطق لفترات امتدت إلى النصف قرن ، بل أنهم بدأوا محاولات فتح مالطة بدءاً من عام ٢٢١هـ ، وان كان تمام فتحها على أيديهم لم يحدث أيضا إلا فى العصر العباسى الثانى عام ٨٦٩/٢٥٦ فكان فتحها نصرا عظيما سوف يدعم من تسيد المسلمين فى حوض المتوسط بسبب موقعها المتوسط وتحكمها فى البواغيز كما سنرى (٨٢) .

ولقد ساعد الأغالبة فى فتح صقلية جماعات يسميها المؤرخون المسلمون مُجاهدة البحر المسلمين ، والواقع أن الحديث عن العلاقات الدولية الصراعية بين القوى السياسية الإسلامية والقوى السياسية غير الإسلامية فى حوض البحر المتوسط بداية من نهاية القرن الثانى الهجرى ـ الثامن الميلادى لايمكن أن يغفل الاشارة إلى هذا الطرف الاسلامى الذى مثل ركنا اساسيا فى منظومة التفاعلات الصراعية الإسلامية ـ غير الإسلامية رغم عدم تكوينهم كيانا سياسيا خاصا بهم . ولقد كانت بداية ظهور هذه الجماعة على صفحة البحر المتوسط عام ١٩١ /٨٠٦ بداية قوية تمثلت فى اكتساحهم لجزيرة كورسيكا ، وكان هذا فاتحة نشاط بحرى واسع اضطلعوا به فغزوا جزرا عده فى البحر المتوسط المرة تلو المرة أهمها كورسيكا وسردينيا وكذا سواحل نيس وبروفانس وسيفيتا وفكشيا ، ولقد وصل خطرهم حدا جعل شارلمان يأمر ببناء الأبراج والحصون على السواحل عند مصب الأنهار لمواجهة غزوات مجاهدة البحر المسلمين والتى كانت قد استفحلت خاصة فى عهده (٨٣) .

وتجدر الإشارة إلى أن معظم غزوات مجاهدة البحر المسلمين كانت للغنائم والأسر وليس للفتح باستثناءات قليلة ولكن هامة وهى مساعدتهم فى فتح صقلية وكذا فتحهم لكريت ، وبالرغم إن هذا فأنه حتى غزواتهم التى لم تكن للفتح كان لها نتائج هامة جدا فيما يتعلق بعلاقات المسلمين بغير المسلمين . فمجاهدة البحر هؤلاء كانوا يقومون بغزواتهم تلك إما لحساب الدويلات الإسلامية القائمة فى المغرب مباشرة وهى القوى الإسلامية التى كان يهمها حضورها القوى فى حوض البحر المتوسط على خلاف الدولة العباسية فى المشرق والتى بعدت بحاضرتها عن السواحل ، وأما لحسابهم الخاص ولكن بتأييد معنوى وكثيرا مادى من هذه الحكومات فى المغرب الاسلامى التى كانت تسمح لهم باستخدام مرافئها وموانيها ، وهذا الدعم لمجاهدة البحر من جانب

٨٢ ـ المرجع السابق ، ص ص ١٩١ ـ ١٩٢ .
٨٣ ـ المرجع السابق ، ص ص ١٨٢ – ١٨٣ . .

القوى الإسلامية فى المغرب جاء لإيمانهم بأنهم يقدمون لهم خدمات جليلة بانهاكهم القوى المسيحية بغاراتهم الخاطفة المستمرة ، وكذا بتقديمهم أسرى المسيحيين للقوى الإسلامية يبادلون بهم أسراهم، هذا فضلا عن كونهم قوة عسكرية تضاف إلى قواهم فى العمليات العسكرية الهامة مثل فتح صقلية كما ذكرنا [٨٤] .

ومن أبرز الامثلة على الخدمات الجليلة التى قدمها مجاهدة البحر المسلمين للقوى الإسلامية فى المغرب فى مواجهتها الصراعية مع القوى المسيحية فتحهم لكريت وكذا غزوهم لروما ملكة العالم فى ذلك الوقت .

وسوف نستعرض فى ايجاز قصة فتح جماعة من مجاهدى البحر لكريت لأنها تلقى بالضوء على بعض جوانب العلاقات الإسلامية ـ الإسلامية وأثرها على العلاقات الإسلامية ـ غير الإسلامية . فالجماعة التى قامت بفتح جزيرة كريت عام ٢١٢ /٨٢٧ وهو نفس العام الذى بدأ فيه الاغالبة محاولات فتح صقلية ، هى أصلا من المسلمين الذين أقاموا بالأندلس الإسلامية فترة حتى ثاروا عام ٢٠٢ على الأمير الأموى الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل فى قرطبة ولما تغلب عليهم كان الحكم الذى أنزله بهم هو الطرد من البلاد ، فذهب فريق منهم إلى المغرب ووصل الفريق الآخر إلى الاسكندرية فى ذات الوقت الذى كانت فيه مصر منتفضة على الخلافة العباسية ، وانتهزت تلك المجموعة التى يفرض طموحها السياسى عليها تحركاتها فرصة الاضطرابات العنيفة فى أرض مصر فأستولوا على الاسكندرية حتى نزل مصر عبدالله بن طاهر موفدا من قبل الخليفة المأمون ـ كما ورد بيانه سابقا ـ ليمسك بزمام الأمور فى يده ، ولقد نجح عبدالله بن طاهر فى التغلب عليهم ، كما نجح قبلا الحكم بن هشام فى الأندلس ، وكان حكم عبدالله بن طاهر مماثلا لحكم الحكم بن هشام أيضا من حيث طبيعته وإن كان أقسى درجة . فلقد ارتضى عبدالله بن طاهر أن يعقد معهم صلحا يؤمنهم فيه على أن يخرجوا من مصر ولكن على أن لاينزلوا بأى أرض تابعة للدولة العباسية ، فلما وجدت هذه المجموعة نفسها مطرودة من الدولة العباسية فى المشرق بعد أن سبق طردها من الدولة الأموية فى المغرب تحولت أنظارهم عن الاراضى الإسلامية وقرروا أن يستوطنوا بدلا منها أرضا غير اسلامية فوقع الاختيار على كريت فاحتلوها فى نفس عام خروجهم من مصر وهو عام ٢١٢ /٨٢٧ دون عناء يذكر ساعد على ذلك عجز الامبراطور البيزنطى عن ارسال المدد اللازم لحامية الجزيرة لانشغاله بقمع الثورة فى آسيا الصغرى فى نفس الوقت [٨٥] .

---

٨٤ ـ عنان ، مواقف حاسمة ، م س ذ ، ص ص ٩٩ – ١٠٠

٨٥ ـ المرجع السابق ، ص ص ٨٥ – ٨٧ .

نادية حسنى صقر ، السلم فى العلاقات العباسية ، م س ذ ، ص ص ٩٨– ١٠٠

وهكذا سقطت كريت للمسلمين بعد محاولات عدة فاشلة لفتحها أتخذت شكلا جادا منذ عهد الوليد بن عبدالملك ، ولقد كان لسقوطها وقع الصاعقة على الامبراطورية البيزنطية وذلك لموقعها الاستراتيجى الهام حيث تقسم بحر أيجه إلى قسمين تتحكم فيهما معا .

وكان رد الفعل البيزنطى سريعا حيث أرسل الامبراطور الحملة تلو الحملة أملا فى استعادتها قبل أن يثبت المسلمون أقدامهم هناك ولكنه فشل . ولقد حدث ما كان يخشاه البيزنطيون فلقد أقام المسلمون فى هذه الجزيرة دولة قوية (الدولة الحفصية) سرعان ما حصنت الجزيرة وانتقلت من موقع الدفاع إلى موقع الهجوم فهددت سواحل بحر أيجه وجزر الارخبيل بل وأخذوا يهاجمون سواحل آسيا الصغرى أيضا [٨٦].

فكان سقوط كريت عام ٢١٢ فاتحة لمرحلة من التوسع الاسلامى الزاحف فى حوض البحر المتوسط ، دفع مؤرخى الدولة البيزنطية إلى اعتباره نكسة مريرة منيت بها الدولة البيزنطية [٨٧] ، وخاصة وأن كريت أصبحت بفضل نشاط أسطولها البحرى الاسلامى قاعدة نضالية صلبة لاتتوانى عن ضرب المواقع البحرية البيزنطية وأسطولها فى غارات متواصلة . وكان من أهم النتائج المترتبة على ذلك النشاط الاسلامى للدولة الحفصية فى كريت أن ضعفت قدرة الدولة البيزنطية على مواجهة العباسيين فى المشرق خاصة وأن الدولة الحفصية التى قامت فى كريت اختارت أن تعلن تبعيتها للدولة العباسية وكانت الجزيرة تابعة اداريا لمصر وإن تمتعت بحكم ذاتى [٨٨] . فقيام دولة اسلامية فى كريت ساعد اذن من ناحية على مد حركة الفتوحات فى حوض المتوسط فى مواجهة بيزنطة وكذا دول أوروبا المسيحية ، ومثل من ناحية أخرى أضافة إلى قوة الدولة العباسية فى مواجهتها للدولة البيزنطية فى المشرق ولقد دفع حرج الموقف بالنسبة للدولة البيزنطية إلى العمل على أقامة شبكة من التحالفات الدولية بدأتها بالتوجه إلى ملوك أوروبا المسيحية مثل لويس التقى ابن شارلمان وكذا إلى دوق البندقية وكذا التوجه إلى الأمير الأموى فى الأندلس تستعديه ضد العباسيين وضد الحفصيين الذين كانوا أصلا من الثائرين عليه [٨٩] .

---

٨٦ ـ رمضان ، الصراع بين العرب وأوروبا ، م س ذ ، ص ص ١٨٣ – ١٨٥

نادية حسنى صقر ، السلم فى العلاقات العباسية ، م س ذ ، ص ص ١٠٠ ـ ١٠١، ص ص ١٠٧ ـ ١١٣.

٨٧ ـ فازيليف ، العرب والروم ، م س ذ ، ص ١٦٦

٨٨ ـ رمضان ، الصراع بين العرب وأوروبا ، م س ذ ، ص ١٨٤

نادية حسنى صقر ، السلم فى العلاقات العباسية ، م س ذ ، ص ١٠٥

٨٩ ـ راجع تفاصيل بعض محاولات التحالف :

فازيليف ، العرب والروم ، م س ذ ، ص ص ١٦٢ ، ١٦٣ ، ١٧٥ .

نادية حسنى صقر ، السلم فى العلاقات العباسية، م س ذ ، ص ص ١٠٧ – ١١٣ .

فإذا انتقلنا الآن إلى غزو جماعات أخرى من مجاهدة المسلمين لروما لوجدنا مثالا آخر على مدى الاضافة الايجابية التى جسدها هؤلاء لقوة أمة الإسلام خاصة فى غرب العالم . ولقد قام مجاهدة البحر المسلمين بغزو روما أكثر من مرة فى أعوام ٢٣١/٨٤٦ ، ٢٣٦/٨٥٠ ، ٢٥٦/٨٧٠ ويرى بعض المؤرخين أن تكرار الحملات وجرأتها وضخامتها ليعد مؤشرا قويا على أنها خرجت بوحى ومباركة من حكومات اسلامية قائمة فى المنطقة ويشيرون إلى صقلية خاصة التى كانت تابعة لأغالبة افريقيا(٩٠) .

ورغم أن الحملات على روما لم تسفر عن أكثر من الأسلاب والاسرى فضلا عن القاء الرعب من المسلمين فى قلوب أفراد شعبها ، الا أن ما يهمنا فى مقام دراستنا هذه هو السبب الذى دفع إلى قيام القوى الإسلامية فى المغرب بتشجيع مجاهدة البحر على غزو روما ، فالمحللون يؤكدون أن هذه الغزوات كانت ردا حاسما وقويا على غارة وحشية للنورمانديين على ثغر لشبونة فى الأندلس عام ٢٢٩/٨٤٤ (٩١) . وهذا يعنى أن المغرب الاسلامى كان قادرا فى هذه الفترة على الرد بعنف على أى تعدى على أراضيه مثله فى ذلك مثل المشرق الاسلامى . فى ذات فترة الدراسة . والمحصلة أن العالم الاسلامى فى شرقه وغربه فى العصر العباسى الأول كان ومازال ممسكا بزمام المبادرة فى يده فيما يتعلق بعلاقاته الدولية سواء كانت الأطراف الفاعلة فى هذا العالم الاسلامى تتبع سياسات فتح وتوسع أم لاتتبعها .

ثم إن هذه الغارات على روما نتيجة العدوان المسيحى على ثغر لشبونة تلقى بالضوء على بعض أوجه علاقات القوى الإسلامية فى مغرب العالم الإسلامى . فرغم أن هذه الغارة على ثغر لشبونه كانت موجهة ضد أرض تابعة للدولة الأموية ، ورغم أن الأمير الاندلسى عبدالرحمن الابن جرد ضدها جيوشا الحقت بالنورمانديين هزيمة نكراء ، إلا أن هذه الغارة النورماندية قد استثارت أيضا حمية القوى الإسلامية الأخرى فى المنطقة، حيث خرجت حملات مجاهدة البحر على روما بوحى ودعم من حكومة صقلية (٩٢) .

ثم إن الغارات والغارات المضادة أظهرت أيضا وبوضوح أنه رغم ظهور الجانب الاسلامى فى الجزء الغربى من العالم على الجانب المسيحى فى هذا المكان من المعمورة ، الا أنه لم يكن يواجه خصما ضعيفا يمكن الاستهانة به . فروما فى ذلك

٩٠- انظر تفاصيل الغزوات فى :

عنان ، مواقف حاسمة - م س ذ - ص ٩٩ ومابعدها

رمضان ، الصراع بين العرب وأوروبا - م س ذ ،ص ص ١٩٢ ، ١٩٤ .

٩١ - رمضان ، الصراع بين العرب وأوروبا ، م س ذ ، ص ١٩٤ .

٩٢ - المرجع السابق ، ص ص ١٩٤ - ١٩٥ .

الحين كانت تحت حماية دولة الفرنجة بعد أن توج البابا شارلمان امبراطورا على الامبراطورية الرومانية المقدسة عام ٨٠٠ ، ولقد جهز شارلمان جيشا ضخما لرد هذه الغارة الإسلامية ، وكانت قوة الدفاع المسيحى على روما سببا مرة أخرى فى ظهور التكافل الاسلامى فى هذا الجزء من العالم حيث أرسل المسلمون فى كافة الثغور الايطالية المدد البحرى للمجاهدة فدارت معركة عنيفة أظهرت بوضوح ندية الجانبين الإسلامى والمسيحى فى هذا الجزء من العالم ، وكانت هذه دلالة واضحة على مدى عنف الصراع الذى سيدور بينهما فى هذه المنطقة فى المستقبل (٩٣) .

يتضح من استعراضنا لنشاط الأغالبة ومجاهدة البحر المسلمين فى حوض المتوسط أن هاتين القوتين نجحتا فى انهاء تسيد الدولة البيزنطية على هذه الجزر واحلتا السيادة الإسلامية عليه بدلا منها ، فكان القرن الثالث الهجرى /التاسع الميلادى الذى شهد تخلى دولة الخلافة عن الاهتمام بالبحر المتوسط هو بحق عصر السيادة الإسلامية على هذا البحر نتيجة نشاط القوى الإسلامية المستقلة القائمة فى هذا . ومن أهم النتائج المترتبة على هذا الظهور الاسلامى فى حوض البحر المتوسط هو أنه مهد للدور الأخير من أدوار المد الاسلامى فى أوروبا والذى حمل المسلمين إلى حدود المانيا وسويسرا(٩٤)، ولكن الفاعل الاسلامى الرئيسى الذى اضطلع بدور الغزو داخل الأراضى الاوربية كان طرفا مناهضا للدولة العباسية فى المشرق على خلاف الاغالبة والحفصيين ، هذا الفاعل هو الامارة الأموية فى الاندلس، وينقلنا هذا إلى المطلب الثانى من هذا المبحث .

المطلب الثانى : العلاقات الصراعية بين الدولة العباسية والدويلات المستقلة المناهضة لها وانعكاس ذلك علي سياسات الفتح والتوسع :

إذا كان الأغالبة قد تمتعوا باستقلالهم الذاتى برضا وقبول من الخلافة العباسية ، فإن المغرب الاسلامى شهد ظهور قوتين اسلاميتين مناهضتين للدولة العباسية أقام كل منهما دولة قوية قامت بدور رئيسى فى الفتح والتوسع ونشر الإسلام . ورغم هذا فإن علاقة الدولة العباسية بهما كانت علاقةعداء سافر وصدام ظاهر أحيانا وخفى أحيانا أخرى ولكنه أثبت فى كل الأحوال أن التعددية السياسية فى إطار الوحدة الإسلامية الكبرى لم تكن تحظى بشرعية وقبول مطلقين فى هذه الفترة بل كانت مشروطة، على الأقل من وجهة نظر دولة الخلافة ، بأن تكون هى المانحة لحق الاستقلال حتى تكسبه

٩٣- المرجع السابق ، ص ١٩٥ .

٩٤ - المرجع السابق ، ص ص ١٩٥ - ١٩٦ .

صفة الشرعية ، فاستقلالية الأغالبة كانت اذن شرعية من وجهة نظر الدولة العباسية ، أما دولة الادارسة والدولة الأموية فى الأندلس فكانتا عند العباسيين تجسيدا للتمرد على شرعية العباسيين يجب مواجهته والتصدى له .

فإذا نظرنا إلى دولة الادارسة الشيعية التى قامت فى مراكش والتى أقامها ابن أحد الثائرين على الدولة العباسية فى الحجاز والذى فر منهم إلى الشمال الافريقى ، كما سبق بيانه ، لوجدنا الخليفة هارون الرشيد يفكر بصورة جدية فى ارسال جيش لاسترداد مراكش من الادارسة خاصة عندما بدت نيتهم واضحة فى ضم أفريقية أيضا والتى قام بها الأغالبة اتباع الدولة العباسية ، ولكن بعد الشقة على الجيش الذى يخرج من بغداد جعل الرشيد يحجم عن ذلك ويلجأ إلى القضاء على ادريس بالسم آملا فى سقوط دولته بعد موته .وهو إن كان قد نجح فى أرسال من دس السم عليه فمات إلا أنه لم ينجح فى اسقاط دولة الادارسة [٩٥] .

وكان فى استمرار دولة الادارسة كسبا واضحا للاسلام حيث قاموا بحملة إلى مناطق لم يتوجه اليها أى من القوى الإسلامية الأخرى فى المنطقة . ففى حين وجهت الدويلات الإسلامية فى الشمال الافريقى أنظارها عبر الساحل الشمالى لافريقيا نحو البحر المتوسط وما وراءه ، فإن الادارسة قد يمموا وجوههم صوب الداخل - داخل القارة الافريقية - حيث عملوا على حمل الإسلام إلى الصحراء الكبرى التى تفصل بلاد المغرب عن السودان [٩٦] ، وستكون مبادرتهم تلك بنشر الإسلام داخل افريقيا مقدمة وتمهيدا لظهور دولة المرابطين التى نشرت الإسلام فى مناطق عدة من افريقيا السوداء ثم تقدمت للذود عن الإسلام فى المغرب والأندلس فى وقت من أصعب الأوقات التى مرت بها الدولة الإسلامية فى مواجهتها لقوى الاسترداد المسيحى كما سنرى بالتفصيل فى الفصل الثالث من هذا الباب .

أما الدولة الأموية التى أسسها فى الأندلس الأمير الأموى الهارب من مذابح العباسيين عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبدالملك بن مروان عام ١٣٨/٧٥٦ ، أى بعد ست سنوات فقط من قيام الدولة العباسية فقد كانت شوكة فى جنب هذه الدولة أقضت مضجع خلفائها تفكيرا فى كيفية التصدى لها والقضاء عليها . ويصل بعض المؤرخين فى تحليلهم لأثر قيام الدولة الأموية فى الأندلس إلى حد القول بأن قيامها كان بمثابة انقسام العالم الاسلامى إلى دولة شرقية وغربية على غرار انقسام العالم المسيحى إلى الامبراطورية البيزنطية والامبراطورية الرومانية المقدسة ، بكل ما يحمله هذا من معانى العداء والصراع والخوف والحذر والتوجس بين طرفى العالم

---

٩٥ - حسن ، تاريخ الإسلام ، م س ذ ، ج٢ ، ص ٢٢٦ .

٩٦ - راجع التفاصيل فى رمضان ، الصراع بين العرب واوربا ، م س ذ ، ص ص ٢٧٨ - ٢٨٠ .

الواحد . بل الأخطر من ذلك ما دفع اليه هذا العداء والخوف من قيام علاقات تحالف وتقارب ومودة بين الدولة العباسية ودولة الفرنجة فى جانب بسبب عدائهما المشترك لأموى الأندلس وبين الأخيرين والامبراطورية البيزنطية فى الجانب الأخر بسبب عدائهما المشترك للدولة العباسية ، يسر من اجراء هذا التحالف العداء المستعر بين الدولة الرومانية الشرقية والدولة الرومانية الغربية .

وهكذا بعد أن كان عالم البحر المتوسط فى عهد الدولة الأموية ينقسم بين المسلمين والمسيحيين فى علاقة مواجهة صراعية واضحة ، أضحى ينقسم مع بداية الدولة العباسية بين تكتل اسلامى مسيحى فى جانب ضد تكتل اسلامى مسيحى فى الجانب الأخر [٩٧] .وكان هذا من أوائل الاشارات الدالة على تحول العالم ، مع اختفاء الخلافة الأموية وحلول العباسية محلها ، من نظام ثنائى الأقطاب إلى نظام متعدد الأقطاب تسوده تحالفات تحكمها المصالح السياسية قبل الأهداف الدينية .

والواقع أن محاولات العباسيين القضاء على الدولة الأموية الناهضة فى الأندلس بدأت منذ عهد الخليفة المنصور الذى خطط لاشعال ثورة فى الأندلس بيد أحد صنعائه عام ١٤٦ تمكن الداخل من إخمادها وكذا من القضاء على الجيوش التى أرسلها هذه العباسيون من افريقية الأغالبة . ولقد كان هذا الفشل فى استخدام أسلوب المواجهة السافرة سببا فى تحول المنصور إلى أسلوب المداهنة فى محاولة استمالة الداخل واقناعه التنازل للعباسيين والأقرار بخلافتهم ، ولما فشل هذا الأسلوب أيضا كان لجوء العباسيين إلى اقامة تحالفات مع القوى السياسية غير الإسلامية المجاورة لهذه الإمارة المنشقة لتهديدها [٩٨] . وإذا كانت هذه التحالفات لم تسفر عن أى تحرك مشترك إلا أن آثارها السياسية الدولية كانت واضحة حيث أنها ساهمت فى تشكيل إدراك كل من الإمارة الأموية ودولة الفرنجة بخطر كل منهما على الآخر ، ولقد ضاعف من أحساس أموى الأندلس بهذا الخطر لجوء الكثير من الثائرين على الحكم الأموى فى الأندلس إلى ملوك الفرنجة وكذا إلى الممالك المسيحية فى شمال الأندلس يستقوون بهم .

وسوف نلحظ أن تحرك الامارة الأموية فى الخارج سوف تحكمه عوامل داخلية أيضا، أولها تثبيت دعائم حكمها ضد محالات الإجهاض العباسية ، ثم تثبيت دعائم حكمها ضد محاولات التنافس الداخلى فيها على السلطة . وسيظهر تحليل الأحداث إنه مع نجاح الإمارة الأموية فى مواجهة هذه العوامل الداخلية ستكون انطلاقة الجهاد –

---

٩٧ ـ رمضان ، الصراع بين العرب وأوروبا ، م س ذ ، ص ص ١٤٧ – ١٤٨ – ١٥٦ .

٩٨ ـ حسن ، تاريخ الإسلام ، م س ذ ، ج٢ ، ص ص ٢٢٩ – ٢٤٢ .

عبدالجليل عبد الرضا الراشد ، العلاقات بين الدولة العباسية والأندلس فى القرنين الثانى والثالث الهجريين (الرياض ـ مكتبة النهضة ـ ١٩٦٩)ص ص ١١٢ ـ ١١٣ ، ١٤٧ ، ١٥٤ .

بالتحالف مع الدولة البيزنطية ضد الفرنجة – وإنه مع ظهور هذه العوامل الداخلية من جديد وتحت وطأتها سيكون الانكسار ٠٠٠وهكذا بين شد وجذب ٠

ولقد أثر الادراك الاموى لخطورة دولة الفرنجة على نمط تحالفاتها الدولية حيث لجأت فى مواجهة هذا الخطر المسيحى المزدوج على حدودها الشمالية وكذا الخطر العباسى إلى التحالف مع الدولة المسيحية الند لدولة الفرنجة وكذا للدولة العباسية وهى الامبراطورية البيزنطية ، كما أنها لجأت أيضا إلى التحالف مع مقاطعة بافار شمال البرنيه لتكون حاجزا بينها وبين دولة الفرنجة (٩٩) ونلحظ هنا احياء واضحاً لسياسة دولة الخلافة الأموية فى المشرق الاسلامى مع سكان الحدود بينها وبين الدولة البيزنطية كما سبقت الإشارة اليه تفصيلا .

ثم أن نمط التحالفات الجديد قد أثر بوضوح على طبيعة التوجه الدولى للامارة الأموية الوليدة ، حيث إن ادراكها لمدى الخطر الذى تمثله دولة الفرنجة وكذا الامارات المسيحية فى شمال اسبانيا دفعها إلى اتباع سياسة هجومية على غرار سياسة أسلافهم الأمويين القائمة على شعار أن الهجوم خير وسيلة للدفاع ، وليس لهذا إلا معنى واحد هو الفتح والتوسع . وهكذا أحيت الامارة الأموية سياسة الخلافة الأموية ولكن هذه المرة فى أملاك الامبراطورية الرومانية المقدسة وليس فى أملاك الامبراطورية البيزنطية إلتى اضحت حليفة أموىٍ اليوم بعد أن كانت عدوة أموىٍ الامس .

ولقد ساعد على حسم توجه الامارة الأموية نحو اتباع سياسة هجومية واضحة ضد الفرنجة تطور التحالف العباسى ـ الفرنجى ضدها من مجرد التناصر المعنوى فى عهد المنصور إلى اقامة تحالف عسكرى فعلى فى عهد المهدى بن منصور استهدف القضاء على الحكم الأموى فى الأندلس .

ففى فترة حكم المنصور حدثت فتنه داخلية فى الأندلس كان أساسها قيام تحالف قوى بين ثلاثة من الولاة المسلمين هناك غرضه اسقاط الحكم الأموى وإعادة الأندلس إلى حظيرة الدولة العباسية ، ولهذا الغرض اتصل هؤلاء أولا بالخليفة المهدى فى بغداد لاعانتهم بجيش من شمال أفريقيا ثم اتصلوا ثانيا بشارلمان الذى كان فرغ فى تلك الأثناء من حروبه فى أوروبا وتطلع إلى اسقاط العدو الإسلامى الخطر على حدوده الجنوبية . ولقد التقت مصالح الخليفة العباسى والامبراطور الفرنجى على أسقاط الحكم الأموى فى الأندلس فوافق كل منهما على المشاركة فى الخطة التى وضعها المتمردون الثلاثة وجاءت موافقة شارلمان مشروطة بتسليم مدنا إسلامية عدة تمكنه من فرض سيطرته كاملة على نصف اسبانيا كله (١٠٠) .

---

٩٩ ـ نادية حسنى صقر ، السلم فى العلاقات العباسية ، م س ذ ، ص ١١٠ ٠

رمضان ، الصراع بين العرب وأوروبا ، م س ذ ، ص ص ١٤٨ – ١٥١ .

(١٠٠) رمضان ، الصراع بين العرب المسلمين ، م س ذ ، ص ص ١٤٩ – ١٥١ .

ولقد وعد الولاة المسلمون بتسليمه تلك المدن مقابل اطباقه من الشمال بجيش ضخم في ذات الوقت الذي يتقدم فيه الجيش العباسي من الجنوب لتقع اسبانيا الإسلامية بين فكي الكماشة الإسلامية /المسيحية ، ولظروف عدة تتعلق بالاختلاف في خروج توقيت الجيوش الإسلامية والمسيحية وبانفجار ثورة داخل المملكة الافرنجية قدر شارلمان أن خطرها مؤكد ، وأهم من ذلك بالنسبة لموضوع دراستنا ، رفض أهالي مدينة سرقسطة احدى المدن التي كان من المتفق أن تسلم لشارلمان ـ تسليم مدينتهم لملك مسيحي واغلاقهم أبواب المدينة في وجهه ووجه حلفائه المسلمين ، لكل هذه الأسباب مجتمعة فشلت الخطة الإسلامية ـ المسيحية لاسقاط الحكم الأموي في الأندلس ، والأكثر من ذلك أنه في طريق عودة شارلمان إلى بلاده لمواجهة الثورة عليه هناك أوقع به المسلمون القاطنون في جبال البرنيه هزيمة نكراء في موقعة باب الشزري (رونسفال)١٦١/٧٧٨ (١٠١)

وتعتبر موقعة باب الشزري من المواقع الحاسمة في تاريخ التعامل الصراعي الاسلامي /غير الإسلامي حيث أنها انقذت أسبانيا الاسلامية من السقوط في يد شارلمان . ورغم تربصه المستمر بها، إلا أن وقع الهزيمة الثقيل يظهر واضحا في رفضه طلب هارون الرشيد تجديد التعاون العسكري بين الدولة العباسية وامبراطورية شارلمان والمستهدف اسقاط الأمويين من الأندلس ، فرغم قيام علاقات ودية جدا بين الدولة العباسية والامبراطورية الرومانية المقدسة في عهد هارون الرشيد وشارلمان إلا أن الأخير تحفظ على فكرة خوض حرب جديدة ضد الأمويين بناء على طلب الرشيد في بعثته الدبلوماسية الشهيرة إلى بلاط شارلمان والتي تناقلت المراجع الاجنبية أخبارها (١٠٢) .

ولقد كان لانتصار المسلمين في باب الشزري أثر بالغ في اضفاء قدر كبير من الشرعية على حكم الأمويين في الأندلس لايعكر صفوها إلا بعض التمردات الداخلية التي أولاها عبدالرحمن الداخل اهتمامه بعد انحسار الخطر الخارجي ولو إلى حين ولكن مع موت الداخل تولى أبنه هشام عام ١٧٢ وأنشغاله بحربه مع اخيه على الامارة نجد موقفا شعبيا مشابها لما سوف يحدث في بغداد حاضرة للدولة العباسية عندما سينشغل خلفاؤها بأمورهم الداخلية عن صد الأعداء وذلك في العصر العباسي الثاني كما سيرد بيانه في الفصل القادم ، فنجد العامة تثور في أيام هشام معترضين على

١٠١ـ انظر تفاصيل المعركة في :

رمضان ، الصراع بين العرب وأوروبا ، م س ذ ، ص ص ١٥١ ـ ١٥٢ .

عنان ، مواقف حاسمة م س ذ ، ص ٧١ – ٨٣ .

١٠٢ ـ رمضان ، الصراع بين العرب وأوروبا ، م س ذ ، ص ص ١٥٣ – ١٥٤ .

عنان ، مواقف حاسمة ، م س ذ ، ص ٨٣ .

انشغال ولاة أمورهم بقتال بعضهم البعض عن قتال غير المسلمين ، وزاد من خطورة الموقف الداخلى أن بعض الفقهاء قد أفتى بعدم جواز دفع الخراج لأمراء يقاتلون مسلمين مثلهم ، بل واجريت فى بعض الحالات مقارنات بين أمراء بنى أميه فى الأندلس والخلفاء العباسيين الذين كانوا فى ذلك الوقت يتابعون التصدى للقسطنطينية بندية ويرسلون على حكامها الحملة تلو الأخرى [١٠٣] . ولقد استجاب هشام بن معاوية لدعوى الفقهاء والعامة وبدأ سياسة جهاد واضحة استمرت طوال فترة حكمه على محورين أساسيين :

الأول محور مسيحى شمال الأندلس الذين استقروا فى ركنها الشمال الغربى أثناء فتح المسلمين للاندلس عندما أنسحب القائد بلاى ببقايا الجيش القوطى إلى أقليم اشتورياس وتركهم الفاتحون أستهانة بشأنهم ولكنهم كانوا قد استغلوا فرصة انشغال أمراء بنى أمية بتوطيد دعائم ملكهم وكذا صراعهم مع مملكة الفرنجة فأستفحل أمرهم بزعامة بلاى.

وأما المحور الثاني فهو محور مملكة الفرنجة ذاتها والتى كان قد نجح زعيمها بيبين وابنه شارلمان من بعده فى استرداد معظم جنوب فرنسا من المسلمين أثناء انشغال الأمويين بالتمكين لحكمهم فى الأندلس [١٠٤] فبعد هزيمة المسلمين فى معركة بلاط الشهداء عام ١١٤والتى ورد ذكرها تفصيلا عند دراستنا للدولة الأموية ، استطاع ولاة الأندلس فى عهد دولة الخلافة الأموية أن يلملموا شتات أمرهم ولو نسبيا وبدأوا الإغارة مرة أخرى على فرنسا متخذين من قاعدتهم فى سبتمانيا فى جنوب فرنسا نقطة أنطلاق عبر جبال البرنية إلى أوروبا حيث لم يطارد شارل مارتل المسلمين بعد هزيمتهم فى بلاط الشهداء وارتدادهم إلى قاعدتهم فى سبتمانيا ليطردهم منها . ولقد ادرك بيبين بن شارل مارتل وحفيده شارلمان مدى فداحة الخطأ الذى وقع فيه مارتل وقررا أن السبيل الوحيد للقضاء على تهديد المسلمين للأراضى الاوروبية هو انتزاعهم من سبتمانيا وردهم إلى ما وراء البرنية ، ولقد نجح بيبين فى ذلك مستغلا ظروف نهايات دولة الخلافة الأموية وما صاحبه من اضطرابات داخلية فى جميع أنحائها دون استثناء ، وكذلك امتداد هذه الاضطرابات فى بداية عهد الامارة الأموية ، فتقدم ينتزع أملاك المسلمين فى جنوب فرنسا الواحدة تلو الأخرى حتى تم له ذلك بحلول عام ٧٦٠/١٤٢ [١٠٥] .

---

١٠٣ ـ رمضان ، الصراع بين العرب وأوروبا ، م س ذ ، ص ص ١٥٧– ١٥٨ .

١٠٤ ـ المرجع السابق ، ص ١٥٨ .

١٠٥ ـ المرجع السابق ، ص ص ١٤٦ – ١٤٧ .

عنان ، مواقف حاسمة ، ص ص ٧١ – ٨٣ .

ولقد رأينا أنه فى الوقت الذى بدأ فيه الأمراء الأمويون فى الأندلس مستعدين لمواجهة الأخطار الخارجية من دولة الفرنجة كان شارلمان قد أفاق هو أيضا من حروبه مع القبائل السكسونية الوثنية وبدأ يستعد للخطر الأسبانى على حدوده الجنوبية ، والواقع أن مطالبة مسلمى الأندلس حاكمها هشام بن معاوية بن عبدالرحمن الداخل بضرورة جهاد المسيحيين فى الشمال قد يكون رد فعل للهمة الدينية العالية للامبراطور شارلمان الذى كان يحارب قبائل أوروبا الوثنية ويرغمها على اعتناق النصرانية [١٠٦] ، بما يحمله هذا من معانى أكتساب السيادة الدينية على الأمة النصرانية ، وكذا علاقاته الطيبة مع البابوية وتنصيب البابا له امبراطوراً للامبراطورية الرومانية المقدسة .

وهكذا اتخذت المواجهة بين الامارة الأموية فى الأندلس بداية من عهد هشام بن معاوية وبين امبراطور الفرنجة بزعامة شارلمان طابعا دينيا واضحا حيث أضفى كل جانب على حروبه مع الجانب الآخر سمة الجهاد الدينى سواء باسم الإسلام أو المسيحية .

ولذا نجد هشام بن معاوية يعلن الجهاد بين صفوف المسلمين ويستخدم من تقدم منهم فى حروب على محورين :محور الامارات المسيحية فى شمال الأندلس الذى جرد عليها جيشا عام ٧٩٢ أوقع هزيمة نكراء بجيوش قشتالة وجليقية، وكذا محور مملكة الفرنجة حيث خرج جيش أموىٌ الأندلس عليها عام ٧٩٣ فى وقت كان شارلمان مشغولا بحروب اوروبية على ضفاف الدانوب فكانت هذه الحملة من أنجح الحملات حيث تقدم المسلمون فى جنوب فرنسا ، فى اربونه وسبتمانيا وغيرها من الممتلكات التى نجح الفرنجة فى انتزاعها من المسلمين كما ذكرنا ، ولقد كان لانتصارات المسلمين الساحقة فى هذا الاقليم بعد طول غيبة عنه أثر ايجابى فى رفع معنويات الجيش الإسلامى وزيادة تقدمه ، كما أن هذه النجاحات استنفرت مسيحيي أوروبا من أقليم تولوز الذين استنفرهم حاكمها بشعارات الجهاد فكانت معارك حامية استمات فيها كلا الجانبين ولكن النصر فى النهاية كان لمسلمى الأندلس [١٠٧] .

ولقد كان لانتصار المسلمين فى هذه الغزوة فى جنوب فرنسا أثار واضحة على قرارهشام بن معاوية الاستمرار فى سياسة الجهاد تلك ، ورغم قلة ما كان يتجمع له من قوات يستنفرها للجهاد مقارنة بما كان يتجمع لولاء الأندلس من مجاهدين فى عهد دولة الخلافة الأموية حيث كان المجاهدون وقتها يأتون من كافة أنحاء دولة الإسلام الواحدة ـ لايستثنى من ذلك الشام والجزيرة العربية ـ فى حين أن المجاهدين

---

١٠٦ ـ رمضان ، الصراع بين العرب وأوروبا ، م س ذ ، ص ١٥٣ .

١٠٧ـ المرجع السابق ، ص ص ١٥٨ – ١٥٩ .

فى عهد الأمارة الأموية للاندلس وبسبب الانقسام فى دولة الإسلام بين العباسيين فى المشرق والأمويين فى الأندلس ، وكانوا يأتون من الأندلس وجبال البرينية على أكثر تقدير ، إلا أن هشام بن معاوية أستطاع أن يخوض بهم حروبا مستمرة على محورى الصراع فى ذلك الجزء من العالم أثبتت ان زمام المبادرة عاد ليد المسلمين مرة أخرى فى مواجهة الاسبان والفرنسيين المسيحيين (١٠٨) .

ولكن هذا المد الاسلامى الأموى انكسرت حدته إلى حد ما فى عهد الحكم بن هشام وهنا يظهر مرة أخرى عامل البيئة الداخلية ومدى تاثيرها على القدرة على التعامل الخارجى الفعال ، فمعظم سنى حكم الحكم انقضت فى مواجهة للثورات الخطيرة التى ثارت ضده فى الداخل ، والتى كان من آثارها تجرؤ الممالك المسيحية فى الشمال ومملكة الفرنجة على الأراضى الإسلامية بل ونجاح الفرنجة فى اقامة تحالفات تمكن من اسقاط برشلونة فى يدهم عام ١٨٥ /٨٠١ بعد أن بقيت فى يد المسلمين تسعين عاما . ولقد كان لسقوط برشلونة صدى حزينا وقاسيا فى نفوس مسلمى الأندلس وذلك لموقعها الحصين فى الشمال الشرقى للاندلس واطلالها على البحر المتوسط وقربها من فرنسا ففقدوا بفقدها قاعدة حصينة لهم كانت تخرج منها غاراتهم على محورى الصراع مع المسيحيين ، وبقدر ما كانت خسارة المسلمين بفقد برشلونة قاسية كان ضم فرنسا لها كسبا واضافة لقوتها حيث أضحى لها قدم ثابتة فى شمال اسبانيا ، ولقد ادى سقوط برشلونة للفرنج إلى تأجج الصراع بين أموىّ الأندلس والفرنجة فدارت الحرب سجالا بينهما منذ سقوط برشلونة وحتى وفاة الحكم فى ٢٠٦/٨٢١ وحرص المسلمون خاصة على أن يعبئوا جيوشهم تعبئة دينية خاصة فى الحملة التى حاولوا فيها استرداد برشلونة عام ١٩٩/٨١٥ ورغم أن كل هذه الحملات الممتدة والمستمرة لم تستطع أن تكسب المسلمين أراضى طوال عهد الحكم إلا أنها نجحت فى وقف خطر امتداد الفرنجة جنوبا على الساحل الشرقى للاندلس مستفيدين من تواجدهم فى برشلونة (١٠٩) ، ولكن قدر للأندلس الأموية أن تستعيد ثقتها وقدرتها على أخذ زمام المبادرة فى يدها فى صراعها مع الامبراطورية الرومانية المقدسة وأمارات الشمال الاسبانى المسيحية فى عهد عبدالرحمن بن الحكم (الاوسط) فلقد جعل عبدالرحمن الأوسط لصراعه مع الأسبان والفرنسيين الأولوية على أى صراع داخلى ، وكان لايكاد يخلو عام من أعوام حكمه من غزوة أو أكثر فى أرض هذين العدوين . ولقد استغل فى مواجهته للفرنسيين خاصة الأوضاع الداخلية المتردية فى الأقاليم التابعة لهم خاصة فى شمال أسبانيا حيث كان أهلها المسيحيون ثائرين بصفة مستمرة على الفرنسيين لقسوتهم ولذلك كان عبدالرحمن الاوسط يستجيب لأى

---

١٠٨ ـ المرجع السابق ، ص ص ١٥٩ - ١٦٠ .

١٠٩ ـ انظر التفاصيل فى المرجع السابق ، ص ص ١٦٢ - ١٦٣ .

دعوة من هؤلاء الأهالى لمساعدتهم فى التخلص من الفرنسيين فى مقابل اعلانهم التبعية والطاعة للمسلمين أو تسليمهم مدنا مسيحية (١١٠) .

ثم إن عبدالرحمن الأوسط قد نجح فى فتح جبهة جديدة للمد الاسلامى فى المغرب وهى جبهة البحر المتوسط ، فلقد كان من النتائج الحاسمة لغزوة النورمانديين على ثغر اشبيلية عام ٢٢٩- ٢٣٠ وهى الغزوة التى سبقت الإشارة اليها فى حديثنا عن غزوة مجاهدة البحر لروما ، أن تنبه عبدالرحمن الأوسط لضرورة تدعيم الأسطول البحرى للاندلس الإسلامية والتى كان قد وضع الداخل ـ مؤسس الامارة ـ نواته ولكن انشغل خلفاؤه بحروبهم داخل أوروبا عن تدعيمه ، فاستعدادا لأى غزو بحرى محتمل فى المستقبل على ثغور الأندلس قام عبدالرحمن الاوسط بانشاء ترسانة بحرية ضخمة فى اشبيلية ، ورغم أن تطوير الأسطول وتدعيمه كان لغرض دفاعى فى الأساس إلا أنه سرعان ما أستخدم أموى الأندلس هذا الأسطول الضخم فى الهجوم على جزر البليار القريبة من سواحل الأندلس فتم لهم فتحها وضمها إلى دولة الإسلام عام ٢٣٤هـ (١١١)

ونتذكر هنا أن المسلمين الذين أقاموا إمارات لهم على طول الساحل الشمالى لافريقيا قد نجحوا فى الاستيلاء قبلا على كورسيكا وسردينيا وكذا فتحوا كريت وكانوا فى سبيلهم إلى فتح صقلية ثم مالطة ، فلما نجح أمويو الأندلس فى اضافة جزر البليار أيضا إلى أملاك المسلمين أضحى القرن الثالث الهجرى /التاسع الميلادى هو عصر السيادة الإسلامية الغربية على حوض المتوسط (١١٢) .

وهكذا بنهاية العصر العباسى الأول ، كانت الأندلس الأموية فى أقصى الطرف الغربى من العالم الاسلامى تقف على قدم المساواة مع الامبراطورية الرومانية المقدسة وتخوض ضدها صراعا ظهرت فيه بوضوح نديتها لها رغم عدم استنادها إلى العمق الاسلامى فى المشرق العباسى ، ثم إن خطى النظام الدولى المترددة نحو النظام متعدد الأقطاب وقت خروجه من عصر الدولة الأموية وولوجه إلى عصر الدولة العباسية أضحى مع نهاية العصر العباسى الأول وبفضل إنجازات أمراء الأندلس الأمويين لاقامة دولة عظمى حقيقة ثابتة حيث انتهت القطبية الثنائية تماما وأضحى النظام الدولى نظاما تتنازعه أطراف أربعة كل منها يمثل دولة من دول العالم العظمى وهى الدولة العباسية فى بغداد والدولة الأموية فى الأندلس والدولةالبيزنطية فى الشرق والدولة الرومانية المقدسة فى المغرب .ولانستطيع أن نغفل كذلك القوى الدولية الموجودة على الحدود الشرقية لديار الإسلام فى آسيا كالصين مثلاً .

---

١١٠ ـ راجع المرجع السابق ، ص ص ١٦٣ - ١٦٤ .

١١١ـ المرجع السابق ، ص ص ١٩٥ - ١٩٦

١١٢ - المرجع السابق .

خاتمة :

رغم أن سقوط دولة الخلافة الأموية ـ دولة الفتوحات الكبرى ـ كان يعنى توقف مد الفتوحات الإسلامية الا أن هذا لايعنى أن الصراع بين المسلمين وغير المسلمين قد توقف فى العصر العباسى الأول .

فلقد استمر الصراع محتدما بين الطرفين طوال هذا العصر ودائرا حول محورين بعد أن كان له محور واحد فى العصر الأموى هو المحور الأموى /البيزنطى ، أما فى العصرالعباسى الأول فلقد دار الصراع حول محور شرقى طرفاه الدولة العباسية والدولة البيزنطية ومحور غربى أطرافه هى الامارة الأموية فى الأندلس والدويلات الإسلامية المستقلة فى الساحل الافريقى الشمالى من جانب و دولة الفرنجة من الجانب الآخر .

وإذا كان الصراع على المحور الغربى قد أتخذ شكل المد الفتحى على خلاف ما كان عليه الحال فى المحور الشرقى ، إلا أن حركة الفتح هناك لايمكن مقارنتها لامن حيث الدرجة ولا الاستمرارية بحركة الفتوحات الكبرى فى عصر دولة الخلافة الأموية . والواقع أن سببا رئيسيا للحد من قدرة المغرب الاسلامى على قيادة حركة فتوح كبرى مثل التى قادتها دولة الخلافة الأموية رغم رغبته واستعداده هو الأنقسام الذى أصاب دولة الإسلام بعد ست سنوات فقط من زوال دولة الخلافة الأموية وقيام دولة الخلافة العباسية مكانها حيث قامت الدولة الأموية فى الأندلس وأتخذت قرطبة عاصمة لها ودخلت فى علاقات صراع وعداء وخوف وشك وتوجس مع الدولة العباسية فى المشرق وعاصمتها بغداد فأضحى كل منهما أقرب إلى طرف غير مسلم عنه إلى الطرف الإسلامى الآخر ، ولقد أثر هذا بلا شك على قدرة الطرف الإسلامى الراغب فى الفتح على تحقيق أنجازات ضخمة فى هذا المجال لانشغاله بعلاقاته الصراعية مع الطرف الإسلامى الآخر . وبالفتن الداخلية التى كانت فى كثير من الأحيان انعكاساً لهذا الانقسام فى دولة الإسلام وكذا لاضطراره الدخول فى علاقات تحالف مع أطراف غيراسلامية أثرت بالضرورة على مصداقية دعاواه للجهاد من جانب وكبلت قدرته على التوسع فى أملاك الطرف غير الاسلامى الحليف من جانب آخر .

ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد بل أن انقسام العالم الاسلامى إلى دولتين اسلاميتين متنافستين جعل أمكانية قيام دول المغرب الاسلامى بفتوحات فى أوروبا على غرار الفتوحات التى تمت فى آسيا وشمال أفريقيا والأندلس فى عهد الخلافة الأموية أمرا شبه مستحيل وذلك لسبب بدهى وهو أن فتوحات دولة الخلافة الأموية تمت تحت راية دولة واحدة موحدة قوية سياسيا واقتصاديا ، أما الامارة الأموية فى الأندلس فمهما وصلت حدود ثروتها الاقتصادية وقوتها السياسية والعسكرية فإنها لايمكنها أن

تقوم وحدها بفتح أوروبا دون أن تستند إلى العمق الاسلامي فى المشرق ، وبالتالى فأن فكرة غزو القسطنطينية من الغرب ، من الأندلس ، والتى كان قد فجرها فتح موسى بن نصير لاسبانيا قد انتهت بعد أنقسام دولة الإسلام وذلك لأن أساسها وهو الدولة الإسلامية الموحدة التى تدعم من المشرق الشرق هذا المشروع الذى يبدأ من الغرب ، لم تعد قائمة فحل محلها دولة مشرقية ودولة مغربية تأكلهما علاقات العداء وتأكل معهما كل المشاريع الكبرى التى يمكن لدولة اسلامية قوية وموحدة أن تحققها .

وهكذا ورغم تمسكنا بالمقولة التى بدأنا بها هذا الفصل والتى حاولنا اثباتها على طوله وهى أن توقف حركة الفتوحات والتوسع فى المشرق الإسلامى فى العصر العباسى الأول قابلها مد فتحى واضح فى المغرب الاسلامى ، إلا أننا نلفت النظر فى خاتمة الفصل إلى أن حركة الفتح داخل اراضى أوروبا من الغرب لايمكن أن تقاس ، على أى مستوى من المستويات ، بما حدث والمسلمون مجتمعون كلهم فى ظل دولة واحدة هى دولة الخلافة الأموية .

الفصــل الثاني

العصر العباسي الثاني : ٢٤٧ - ٤٤٧ هـ / ٨٦١ - ١٠٥٥م
انتهاء دور الدولة العباسية كقوة مركزية فى التعامل الدولي بدء صعود الدولة الفاطمية في المشرق والدولة الأموية في المغرب مع تكرس نمط اللامركزية والتعددية فى دار الإسلام

الفصـــل الثاني

العصر العباسي الثاني : ٢٤٧ - ٤٤٧ هـ / ٨٦١ - ١٠٥٥م
انتهاء دور الدولة العباسية كقوة مركزية في التعامل الدولي بدء صعود الدولة الفاطمية في المشرق والدولة الأموية في المغرب مع تكرس نمط اللامركزية والتعددية في دار الإسلام

مقـدمــة :

إذا كانت الدولة الأموية هي دولة الفتوحات الكبرى التي قامت سياستها الخارجية على مبدأ ثابت هو العمل على توسيع رقعة الدولة الإسلامية بالسعي حثيثا نحو طي أركان المعمورة تحت لواء الإسلام فلم تعترف بقضية الحدود الثابتة ، واذا كانت الدولة العباسية الأولى - ربما اقتناعا منها بأن الدولة الإسلامية قد وصلت إلى أقصى مدى لها وأن اقتصاد الحرب قد أستنفد الغرض منه إلى حد كبير - قد عملت على تثبيت حدودها مع القوى الدولية الآخرى خاصة الدولة البيزنطية فانتهت حركة الفتوحات وان لم ينقطع سير هجماتها لاثبات الندية والامساك بزمام المبادرة على الساحة الدولية في يدها فحفظت قوة الدولة ومن ثم هيبتها ومكانتها الدولية فكان منطقها الدولي المخالف لمنطق سابقتها الدولة الأموية مفروضاً من منطلق قوة وليس من منطلق ضعف، فان العصر العباسي الثاني شهد تراجعا واضحا في قدرة الدولة العباسية ليس فقط على أن تمسك بزمام المبادرة ولكن حتى أن تقف من القوى الدولية الأخرى على قدم المساواة ، فكان دور مركز الخلافة في العصر العباسي الثاني على المسرح الدولي هو موقف الدفاع دائما ودفاع الهزيل غير القادر على صد الضربات المكالة له في معظم الأحيان .

وإذا كان المؤرخون يختلفون قليلا حول السنة التي يبدأون بها التأريخ لبداية العصر العباسي الثاني إلا أنهم يتفقون على أنه بدأ حول منتصف القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي ، ونحن نختار عام ٢٤٧ / ٨٦١ وهو عام مقتل الخليفة العباسي المتوكل بداية للعصر العباسي الثاني ، وعلى الرغم من أن هذا الحدث الجلل هو حدث داخلي قد لايبدو للوهلة الأولى مدى ارتباطه بمسار العلاقات الدولية إلا أن انعكاسات هذا الحدث على التوجه الخارجي للدولة العباسية كان عظيما ، فمقتل المتوكل جاء على يد الجند الاتراك وكان بداية لوقوع الخلافة العباسية في قبضتهم ، وهذه السيطرة

على مركز الخلافة من قبل الجند الأتراك كانت السبب الرئيسى لضعف مركز الخلافة العباسية ومن ثم فى تخفيف حدة ضغطها على الامبراطورية البيزنطية .

وإذا كان استخدام العباسيين للأتراك قد بدأ فى عهد المأمون وفى حرسه الخاص ، وإذا كان تواجدهم فى هيكل الجيش قد تعاظم فى عهد المعتصم ، فهؤلاء الخلفاء بالإضافة إلى كونهم سياسيين محنكين كانوا قوادا عسكريين أيضا مما مكنهم من كبح جماح الجند الأتراك والإبقاء على قوتهم فى إطار الحدود الممكن التحكم فيها ، ولقد بدأت مؤسسة الخلافة تفقد قدرتها على السيطرة على الجند الأتراك بصورة تدريجية بداية من وفاة المعتصم ، وكان استفحال أمرهم التام مع المتوكل حيث نجحوا فى قتله وكان هذا ايذانا بتزايد تدخلهم فى شئون الخلافة حتى أضحى الخليفة دمية مشدودة إلى أيديهم هم يحركونها كيف شاءوا ، هذا فضلا عن قيامهم باختيار شخص الخليفة الذى أضحى بقاؤه فى منصبه أو فقدانه له مرهونا بمدى قدرته على الامتثال لهم (١)

ولما أستاثر الجند الأتراك من دون الخلفاء العباسيين بأمور الحكم وتحكموا فى شئون الدولة ساءت الأحوال كافة والأحوال الاقتصادية خاصة وذلك لانصرافهم إلى استنزاف موارد الدولة للحصول على أرزاقهم دون الأعتناء بضرورة تعويض هذه الموارد فأهملت شئون الزراعة والرى والسدود وأدى سوء الأحوال الاقتصادية إلى أنفجار الثورات ذات الطابع الاقتصادى والاجتماعى مثل ثورة الزنج وهى ثورة عمال الأراضى الزراعية فى العراق والتى نجحت فى الاستيلاء على مناطق كبيرة منه واستمرت حوالى أربعة عشر عاما ، وكذا حركة القرامطة التى روعت البشر من سواد العراق إلى الشام إلى البحرين إلى مكة ، هذا بالاضافة إلى تفشى جرائم السرقة وقطع الطريق مما انعكس على عدم استقرار الحالة الأمنية وأثر بالتالى على تدفق التجارة فكان أرتفاع الأسعار لنقص المحاصيل الزراعية وتقلص تدفق التجارة حتى أن بعض جماعات قطع الطريق والسرقة أتخذت طابع وتوجه أسطورة روبن هود ومنهم جماعات الشطار والعيارين الذين كانوا يسرقون من الموسرين ليعطوا الفقراء والمحتاجين . ولقد أثر أنتشار الثورات والفتن الداخلية وعدم استقرار الحالة الأمنية فى الداخل بالضرورة على قدرة الدولة على التفرغ للتعامل الخارجى الفعال ، هذا فضلا عن الموراد الهامة والحيوية التى كانت تستنزفها أعمال هذه الحركات سواء هى ذاتها

١ ـ حسن ، تاريخ الإسلام ، م س ذ ، ج٣ ، ص ص ٢٨ ـ ٢٩ .

– شاكر ، التاريخ الإسلامى للدولة العباسية ، م س ذ ، ص ص ، ١٢ ـ ١٤.

– رمضان ، الصراع بين العرب وأوروبا ، م س ذ ، ص ١٨١ ، ص ص ٢٢١ ـ ٢٢٢ .

– خليل ابراهيم السامرائى وآخرون ، تاريخ الدولة العربية الاسلامية فى العصر العباسى ، الموصل :دار الكتب للطباعة والنشر ـ بجامعة الموصل ١٩٨٨ ص ص ١٠١ ـ ١٠٢ .

بأعمال التخريب والأستيلاء التى كانت تمارسها أو من جانب الدولة وهى تواجهها وهى الموارد التى كان من الممكن توجيهها نحو تدعيم قوة الدولة بما يكسبها قدرة على كسب أحترام البيئة الدولية .

ضاعف من الآثار السلبية لهذه الحركات الداخلية التى فجرتها الأوضاع المتردية الناجمة عن سيطرة الأتراك على مجريات أمور الدولة أن هؤلاء الجند كانوا جنداً مرتزقة فلم يكن يهمهم إلا الحصول على رواتبهم والإثراء من وراء مهنتهم كما ذكرنا ، ولما لم يكن لديهم الدافع لخوض معارك حقيقية ذوداً عن عقيدة أو حماية لأرض فإنهم انشغلوا باستنزاف موارد الدولة للحصول على ما يريدون من مال دون اضطرار إلى خروج فى حروب ، ولما عجزت موارد الدولة عن الوفاء بمطالبهم بعد نضوبها نتيجة اهمالهم زادت شراستهم وضراوتهم وتفننهم فى الحصول على الأموال وزاد بالتالى أنشغالهم عن التصدى للأخطار الخارجية فكانت مصادرتهم لأموال التجار وكبار رجال الدولة مما زاد من أنهيار الاقتصاد وضعف الطبقة الغنية - والتى كانت تساعد أحيانا فى تجهيز الجيوش كما سنرى - بعد أن كان العامة قد تغربوا قبلا ، بل إن الخليفة نفسه لم يسلم من مصادرة أمواله حيث خصصوا له مرتبا شهريا وسلبوه حقه فى أجراء ميزانية الدولة فلم يعد فى مقدرته تجهيز الجيوش أو تسييرها أو إصلاح الحاميات [٢]

وكان من الطبيعى فى ظل ضعف المركز هذا أن تنمو النزعات الاستقلالية ليس فقط فى الأقطار النائية كما كان الحال فى العصر العباسى الأول ، بل وفى الأقطار القريبة من المركز أيضا . فبعد أن شهد العصر العباسى الأول خروج المغرب الاسلامى من قبضة الدولة العباسية فإن العصر العباسى الثانى شهد تفكك المشرق ذاته منذ منتصف القرن الثالث الهجرى /التاسع الميلادى فظهر الصفاريون بعد الطاهريين فى خراسان عام ٢٥٤ وظهر السامانيون فى بخارى قبلهم عام ٢٥٠ وظهر الطولونيون فى مصر عام ٢٥٤ ، ثم بعدهم الأخشيديون عام ٣٢٣ ، وظهر الزيديون فى اليمن عام ٢٤٦ والحمدانيون فى الموصل وحلب عام ٣١٧ حتى وصل الأمر فى الربع قرن التالى لمقتل المتوكل إلى تقلص نفوذ العباسيين وأقتصاره على العراق والجزيرة [٣]

---

٢ - السامرائى ، تاريخ الدولة العربية ، م س ذ ، ص ص ١٠٤ ، ١٣٠ ، ١٣١ .
- رمضان ، الصراع بين العرب و أوربا ، م س ذ ، ص ٢٢٢ .
٣ - شاكر ، التاريخ الإسلامى :الدولة العباسية ، م س ذ ، ج٢ ص ص ١٩ - ٢٦ .
حسين محمد سليمان ، الدولة الاسلامية فى العصر العباسى والعلاقات السياسية مع الأمويين والفاطميين (الرياض :دار عالم الكتب للنشر والتوزيع /١٩٨٤)ص ٧٧ نقلا عن ابن الأثير الذى قرر فى أحداث عام ٣٢٤ / ٩٣٥ أنه "بطلت بيوت الأموال وتغلب أصحاب الأطراف وزالت عنهم الطاعة ولم يبق للخليفة غير بغداد وأعمالها "
رمضان ، الصراع بين العرب وأوربا ، ص ٢٢٢ ، ٢٢٦ .

نخلص مما سبق إلى أنه رغم أن سيطرة الأتراك على مؤسسة الخلافة تعتبر في حد ذاتها حدثا داخليا ألا أنه كان له أثار وخيمة على مركز الدولة العباسية في الهيئة الدولية وذلك أنه أفرخ سلسلة خبيثة من الأحداث التى قامت كل منها بدور النتيجة والسبب فى آن واحد لمجموعة من الظروف والأحوال المتدنية أفقدت الدولة ليس فقط قدرتها على الأخذ بزمام المبادرة فى يدها ، بل أفقدتها ما هو أهم فى التعاملات الدولية وهو هيبتها فى حسابات الأطراف الدولية الأخرى حيث أضحى ضعفها مفضوحا لكل الأعين فاجترأ الجميع عليها ، فالذى توقف فى العصر العباسى الثانى ليس هو قيام الدولة العباسية بأتباع سياسة هجوم فعلى ، فلقد رأينا أن هذا مجد انتهى مع انتهاء الدولة الأموية ولم تأخذ به الدولة العباسية الأولى ولكن المهم هو فقدان الدولة العباسية فى عصرها الثانى قدرتها الفعلية على إجراء الهجوم بنجاح إذا استدعت ظروف الساحة الدولية هذا .

وكذا فقدانها قدرتها الأكيدة على الدفاع عن أراضيها فى حالة أتباع طرف دولى آخر سياسة هجومية ، ولم يؤد مجيء البويهيين عام ٣٣٤ إلى احداث كسر فى الحلقة المفرغة التى أسرت داخلها الدولة العباسية الثانية ولكنه على العكس ضاعف من حدة دوران هذه الحلقة لأنه إنما عزز سيطرة المؤسسة العسكرية الفاسدة على مقدرات الدولة فزاد تدنى أحوالها فى الداخل والخارج .

وإذا كان مركز الخلافة العباسية فى بغداد قد عجز فى عصره الثانى عن الحفاظ على مركز متكافىء مع الأطراف الدولية الأخرى فى الساحة الدولية ولم يتمكن من حماية أرض الإسلام من سياساتهم الهجومية فإن الولايات التى استقلت عن المركز الخلافى فى المشرق والمغرب حملت عبء الجهاد ضد أطماع الأطراف الدولية الأخرى وأحبطت خططهم لاستغلال ظرف انحلال مركز الخلافة العباسية فى المشرق ، بل وأستطاعت فى المغرب الاسلامى أن تستكمل دور الفتح والمد الاسلامى فى الأراضى غير الإسلامية والذى كان قد بدأ فى العصر العباسى الأول وسيتضاعف هذا الدور الايجابى للمغرب الاسلامى على الساحة الدولية بقيام الدولة الفاطمية الفتية لتعوض بشبابها هرم الدولة العباسية وعجزها .

وهكذا فإن انقسام العالم الاسلامى بين مشرق ومغرب سيستمر أيضا فى العصر العباسى الثانى بل وسيتأكد بانفصال ولايات القلب فى المشرق أيضا ، وكما كانت هذه الظاهرة مرفوضة فى معظم الأحيان من المركز فى العصر العباسى الأول فإنها ظلت مرفوضة وبشدة فى العصر العباسى الثانى، ولكن هذا لاينفى أن حركات الاستقلال والأنفصال هذه التى مثلت بقدراتها على التصدى للخطر فى الداخل والخارج ونجاحها فى المد والتوسع اضافة إلى دولة الإسلام ككل فى العصر العباسى

الأول كانت هى أيضا التى أنقذت دولة الإسلام فى العصر العباسى الثانى بانقاذ المركز الخلافى ذاته من السقوط تحت وطأة المد الخارجى والتهالك الداخلى .

وهكذا فإن دراستنا لهذا العصر تهتم مرة أخرى بمتابعة الموقف فى شرق العالم الاسلامى وأيضاً فى مغربه ، مع اعطاء اهتماماً منفصلاً إلى الدولة الفاطمية وذلك لوزنها المتميز كقوة دولية أولاً ، وثانياً لأنه رغم ابتداء ظهورها كان فى المغرب الإسلامى إلا أنه لايمكننا دراستها بوصفها إحدى القوى السياسية المنتمية لهذا الجزء من العالم الإسلامى وحسب ذلك أنها تعاملت مع الواقع الإقليمى منذ البداية كقوة تسعى إلى التوسع شرقاً ، ولقد نجحت فى ذلك بالفعل فوصلت المشرق الإسلامى بمغربه وأضحت من الناحية الفعلية قلباً للعالم الإسلامى كما سوف نرى .

المبحث الأول

ضعف مركز الخلافة العباسية وفقدانها القدرة علي المبادرة الدولية وإرادة الهجوم والدفاع : بين سندان سيطرة العسكريين وتزايد نمط التعددية والاستقلالية ومطرقة تجدد قوة الطرف الآخر

إذا كان العباسيون قد فرضوا فى عصرهم الأول هيمنتهم كقوة دولية عظمى على الساحة الدولية فكانت حالات الإجتراء عليها محدودة من الطرف الدولى الرئيسى المناوئ – ونعنى الدولة البيزنطية– وإذا كانت قد أثبتت مقدرة وفعالية فى رد محاولات الاجتراء تلك عندما تحدث ، فإن العصر الثانى للعباسيين سيشهد تدهورا واضحا فى ميزان القوى لغير صالح المركز الخلافى ستتعاضد على إحداثه عوامل داخلية أهمها التفاقم الخطير للنمط الإنفصالى وتسيد الصراع والتنافس فى العلاقات الإسلامية -الإسلامية ، وكذا عوامل خارجية أهمها تجدد قوة الدولة البيزنطية كنتيجة لظروف داخلية مواتية فى فترات حاسمة . ولكن هذا الاختلال فى ميزان القوى العباسى–البيزنطى سيتم تعويضه ببروز قوى إسلامية أخرى أهمها الدولة الفاطمية والدولة الأموية والتى سيفرض تزامنهما صراعهما أنماطاجديدة للتحالفات الإسلامية -الإسلامية و الإسلامية -غير الإسلامية .

المطلب الأول : تراجع المشرق الإسلامي في مواجهة دولة بيزنطية قوية وتفتته إلي دويلات مستقلة متصارعة في ظل سيطرة الجند الأتراك والبويهيين :

إذا كان الخليفة الواثق قد أُرِّخ لعهده بوصفه عهد تراجع عن الغزو فى أراضى الدولة البيزنطية فإن الكثير من الباحثين قد أثبتوا انه كان قد جهز اسطولاً بحرياً ضخماً للإغارة على القسطنطينية ولكن حطمته عاصفة قوية عام ٢٢٨ / ٨٤٢ (٤)

٤ـ نادية حسنى صقر ، السلم فى العلاقات العباسية ، م س ذ .

والواقع أن فشل هذه المحاولة البحرية العباسية على القسطنطينية يمكن اعتباره نقطة البداية لمرحلة انتقالية كان طولها عشرين عاما مهدت لانتقال زمام المبادرة فى المشرق من الدولة العباسية إلى الدولة البيزنطية ، فالتاريخ يعلمنا أن التحولات الكبرى فى مسار احداثه كما أنها لاتولد من فراغ بل تسببها الأسباب ، فهو يعلمنا أيضا أنها بالضرورة لاتقع فجأة وبدون مقدمات ، فإذا كان العصر العباسى الأول هو عصر التسيد والعلو الاسلامى على الساحة الدولية ، واذا كان العصر العباسى الثانى سيأتى ليشهد تقهقرا عباسيا أمام الدولة البيزنطية التى كانت تمر بدور من أدوار اليقظة أدى إلى عودتها إلى قوتها مرة أخرى فى هذه المرحلة ، فإن مرحلة انتقالية مهدت لهذا التحول الخطير فى موازين القوى كانت سمتها الأساسية هو نوع من التوازن فى العلاقات الصراعية بين الجانبين العباسى والبيزنطى حيث دار الصراع فيها سجالاً وبات واضحاً فيها أن قدرة الجانب الإسلامى على المبادرة قد بدأت تتحول سريعا إلى مجرد القدرة على التصدى وصد الهجوم وهو ما ستفقده أيضا مع نهاية هذه المرحلة الانتقالية

ولقد أشرنا إلى أن بداية هذه المرحلة الانتقالية يمكن اعتبارها من تحطم أسطول الواثق على القسطنطينية عام ٢٢٨/ ٨٤٢ ، أما أنتهاؤها فيؤرخ له بعام ٢٤٨ / ٨٦٢ وهو العام الذى نجح فيه البيزنطيون بضرب مثلث للتحالف كان يقوم بدور فعال فى التصدى لهم وكسر هجماتهم تمثلت أضلاعه فى على بن يحيي أمير طرسوس من ثغور الشام وعمر بن عبدالله الاقطع أمير ملطية من ثغور الجزيرة أما الضلع الثالث فتمثل فى البيالصة وهم فرقة مسيحية منتمية أصلا إلى الدولة البيزنطية (٥) .

والواقع أن الظروف الداخلية غير المستقرة فى الدولة البيزنطية فى ذلك الوقت هى التى ساعدت الجانب الاسلامى على تأجيل تراجع الدولة العباسية عن مركزها على الساحة الدولية أمام المد البيزنطى مدة عشرين عاما ، فالدولة البيزنطية فى ذلك الوقت كانت تأكلها النزاعات الدينية فى الداخل بين الموالين لمذهب الايقونات والمعادين له وهوالصراع الذى أدى بالدولة إلى اضطهاد جماعات بعينها نتيجة معتقداتها الدينية وعلى رأس هذه الجماعات البيالصة الذين دفعهم الاضطهاد البيزنطى ليس فقط إلى الفرار من الأراضى البيزنطية ولكن أيضا إلى اتصالهم بالمسلمين يخطبون ودهم ويعرضون عليهم خدماتهم فى مقاومة البيزنطيين والايقاع بهم . ولقد عرضوا خدماتهم تلك على أمير ملطية فقبل منهم هذا وكان يحالفهم فى حروبه مع البيزنطيين ، ولما كان على بن يحيي أمير طرسوس يحمل مع أمير ملطية عبء صد

---

٥ - رمضان ، الصراع بين العرب وأوربا ، م س ذ ، ص ص ٢١٨ - ٢٢١ .
- شاكر ، التاريخ الإسلامى ، الدولة العباسية ، ج٢ ،ص ٥٨ .

محاولات التقدم البيزنطى فى الشرق الإسلامى فانه أصبح بالضرورة الضلع الثالث لهذا التحالف الذى استطاع أن يتصدى للخطرالبيزنطى طوال عشرين عاما [٦] .

ولكن هذا الصراع العسكرى بين هذا التحالف المثلث الأضلاع من جانب والدولة البيزنطية من جانب أخر لم يضف إلى قوة أى من الطرفين فالمعارك التى دارت سجالا بينهما لم تنجح فى إحداث أى تغير يذكر فى الحدود بينهما فى أسيا الصغرى حيث لم تصل قوة أى من الجانبين حدا يمكنه من اقتطاع أجزاء من أراضى الطرف الآخر فيضمها إليه بصورة نهائية ، فالصراع الذى دار طوال عشرين عام لم يكن له من نتيجة اذن إلا المحافظة على نوع من التوازن الهش ضُرِب بحلول عام ٢٤٨ عندما نجح البيزنطيون فى التخلص من القائدين المسلمين [٧]ولقد ضاعف من النتائج السلبية لانهيار هذا السد المانع للتقدم البيزنطى فى الأراضى الإسلامية مقتل المتوكل فى العام السابق وبروز سيطرة الجند الأتراك بصورة سافرة على الخلافة وتداعيات ذلك على التعامل الخارجى للدولة العباسية ، فكان تزامن هذين العاملين الخارجى والداخلى حاسما فى إنهاء مرحلة التوازن الانتقالية تلك وفى التأريخ لبداية فترة الأنحسار التام للمد الاسلامى فى المشرق .

ولقد برزت فى أحداث هذه الفترة الانتقالية ظاهرتان تتعلقان بالتعامل الخارجى للدولة العباسية تجدر الإشارة إليهما :

أما الظاهرة الأولي : فتتعلق بالتحالف بين طرف اسلامى وطرف غير اسلامى ، ضد طرف غيراسلامى وهو نمط فى التحالفات رأيناه قبل ذلك فى الدولة الأموية وكذا فى العصر العباسى الأول ولكن فى حالات محدودة ، هذا النمط سيصبح تقليدا شبه ثابت فى العصر العباسى الثانى خاصة فى المغرب الإسلامى حيث سيكون تعامل القوى الإسلامية هناك بالأساس مع دويلات وإمارات مسيحية مستقلة تعادى بعضها البعض مما يتيح فرصة أكبر لظهور هذا النمط وترسخه عما لو كان طرف الصراع يشكل دولة واحدة .

أما الظاهرة الثانية : فتتعلق بمولد تقليد جديد فى هذه المرحلة الانتقالية بدأ عجيبا فى أول الأمر ثم سرعان ما ترسخ وأضحى غير مستغرب رغم شذوذه عن الواجب والمفروض . هذا النمط هو تراجع دور الخليفة عن تجهيز الجيوش وتسييرها ، ففى هذه المرحلة الانتقالية نجد أمراء الثغور هم الذين يضطلعون بالدور الأساسى والعبء الأكبر فى تجهيز الجيش وتسييره لصد حملات البيزنطيين ، فتجهيز الخليفة لجيش كان هو الاستثناء وليس القاعدة كما أن مثل هذا الجيش الخليفى عندما يُسيَّر كان

٦ـ رمضان ، الصراع بين العرب وأوربا ، ص ٢١٩.

٧ـ راجع فى سلسلة المعارك ، المرجع السابق ، ص ص ٢١٩ ـ٢٢١ .

يرسل كعنصر مساعد ، أما القوام الأساسى لحائط المواجهة فكان هو جيوش أمراء الثغور [8]، وسوف نلحظ أنه بانتهاء هذه المرحلة الانتقالية وتسيد الجند الأتراك على مؤسسة الخلافة وتحكمهم فى خليفة المسلمين وبيت مالهم فسوف ينعدم أى دور للخليفة - أى السلطة المركزية - وهذا بدهى فى ظل مصادرة ماله ومخصصاته واغتصاب حقه فى تصريف أمور الدولة المالية . الأهم من ذلك أن عبء تجهيز الجيوش سوف يقع على أثرياء القوم فى معظم الأحيان ومن نافلة القول إن هذا المصدر اتسم بالمرحلية وعدم الثبات حيث يهرع القادرون لتجهيز الجيوش فى حالات التهديد الخارجى المباشر والخطير فيدفعهم خوفهم إلى القيام بهذه المهمة فى ذلك الوقت [9]، وهذا الواقع المرير إنما كان يعنى أمرين أولهما أن الدولة بتخليها عن أحد المهام السلطوية الأساسية كانت تعرض صورتها - ليس فقط أمام مواطنيها فى الداخل- ولكن أيضا أمام الفاعلين فى النظام الدولى إلى الاهتزاز بشدة مما عجل بأجتراء هؤلاء الفاعلين عليها متأكدين من عدم قدرتها على تجهيز القوة اللازمة للردع ، أما الأمر الثانى فهو أن مرحلية تكون الجيوش وارتباطها بأحداث وقتية على الحدود إنما كان يعنى بالضرورة افتقار الدولة لجيش نظامى له وظيفته الثابتة المستمرة وهذا انعكس بالضرورة على مركزها فى الهيئة الدولية وقدرتها على المبادرة أو حتى على الردع .

ولقد كان رد الفعل لهذا الوضع الخطير أمنيا عنيفا فى صفوف العامة الذين كانوا كثيرا ما يخرجون إلى الشوارع فى ثورات عنيفة يطالبون الخليفة القيام بواجبه فى حمايتهم والذود عن أراضى الإسلام [10]، والواقع أن هذا المطلب الشعبى الذى تردد فى أكثر من مناسبة نستطيع أن نجد فيه مؤشرا هاما جدا على التحول فى قدرات الدولة العباسية على التعامل الخارجى ، فالعامة ما كانوا يطالبون الخليفة بأكثر من اثبات القدرة على صد الهجمات ورد المعتدى ، فكان الكر والمبادرة والتأديب والارهاب واثبات الهيبة والتى كانت أهدافا للتحركات الخارجية للجيوش العباسية فى العصر الأول أضحت من ذكريات الماضى الذى يدرك العامة بحسهم عدم امكان متابعتها فى الحاضر الزاخر بعوامل الضعف .

نجح اذن البيزنطيون فى توجيه ضربة قاتلة للتحالف الثلاثى المناوئ لهم عام ٢٤٨ بالقضاء على طرفيه المسلمين . والواقع أن هذا الحدث بالاضافة إلى منظومة الظروف الداخلية فى الدولة العباسية والتى أدت إلى ضعفها وإن كانا قد أضافا إلى قوة الدولة

---

٨ - المرجع السابق ، ص ٢١٩.

٩ - انظر أمثلة فى ، المرجع السابق ، ص ٢٢١ .

١٠ - أنظر المرجع السابق ، ص ٢٢١ .

- السامرائى ، تاريخ الدولة العربية ، م س ذ ، ص ص ١٦٤- ١٦٥ .

البيزنطية بنفس انتقاصهما من قوة الدولة العباسية ، فان حدثا داخليا خاصا بالدولة البيزنطية ذاتها سرعان ما هيأ لها بصورة حاسمة تبؤ مركز متصدر على الساحة الدولية كقوة أولية عظمى قادرة على المبادرة . ففى عام (٢٥٣ هـ / ٨٦٧ م) ارتقى عرش الامبراطورية البيزنطية الامبراطور المقدونى باسيليوس الأول كأول الاباطرة المقدونيين الذين استمر حكمهم حتى عام (٤٤٨ هـ / ١٠٥٧ م) ولقد استعادت الأسرة المقدونية للامبراطورية البيزنطية شبابها وقوتها بفضل اصلاحاتها الداخلية فى كافة المجالات السياسية والاقتصادية والدينية مما انعكس بالضرورة على قدراتها فى التعامل الخارجى فبدأت مرحلة جديدة وطويلة من الكر على أراضى الدولة العباسية، ذلك أن فترة حكمهم الزاهر للامبراطورية البيزنطية ٢٥٣ – ٤٤٨ هـ / ١٠٥٧م امتدت بامتداد العصر العباسى الثانى فترة التدهور العباسى [١١]

ولقد بادر الامبراطور باسيليوس باستغلال دخول الدولة العباسية دور ضعف وانحلال ليعمل على بعث الأمجاد الحربية للامبراطورية البيزنطية فأشعل نيران الحرب على طول الجبهة مع الدولة العباسية من شاطىء كيليكيا جنوبا إلى أرمينية شمالا . وكانت الفترة من ٨٧١ – ٨٨٢ من أنشط فترات الكر البيزنطى حيث استطاع هذا الامبراطور فى سلسلة من الهجمات المتلاحقة تحقيق نجاحات باهرة فى هذه الفترة القصيرة . أما أول هذه النجاحات فتمثل فى القضاء على البيالصة وقتل زعيمهم فانتهت بذلك تماما كل مقاومة للدولة البيزنطية على حدودها مع الدولة العباسية . أما ثانى النجاحات فتمثل فى دفعهم المسلمين إلى ما وراء الحدود التى كان قد ثبتها العباسيون الأوائل حيث فرض البيزنطيون سيطرتهم على معظم جبال طوروس بسلسلتيها وكذلك على ممراتها . ثم إن الامبراطور باسيليوس لجأ فى إدارته الصراع مع العباسيين إلى استخدام احدى الأدوات التى كثيرا ماوظفها المسلمون فى عهود قوتهم وهى احاطة الدولة المعادية بمجموعة من القوى الحليفة . فنجده، من ثم ، يخطب ود ملك أرمينيا ويكسبه حليفا للدولة البيزنطية . وكانت الدولة العباسية قد اعترفت بأرمينية دولة مستقلة عام ٢٧١ هـ / ٨٨٥م بعد أن كانت تابعة لها ، فى محاولة منها للابقاء على ودها بعد أن أضحت عاجزة عن السيطرة عليها بالقوة هذا فى إشارة قوية إلى التدهور السريع الذى لحق الدولة العباسية فى تلك الفترة [١٢]. ولم يشهد العصر العباسي عودة المد البيزنطى داخل آسيا الصغرى وحسب ، ولكنهم عادوا أيضا وبقوة إلى شرق المتوسط بالتحديد إلى ممتلكاتهم التى كانت قد سقطت للأغالبة ، ولعلم الامبراطور البيزنطى بعجز الامبراطور لويس الثانى

١١ـ رمضان ، الصراع بين العرب وأوربا ، ص ص٢٢٢ ، ٢٢٣ .

١٢ ـ السامرائى ، تاريخ الدولة العربية ، ص ١٢١ ، ١٢٢ .

– رمضان ، الصراع بين العرب وأوربا ، ص ٢٢٣ .

امبراطور الامبراطورية الرومانية المقدسة ، وكذا أمراء الدويلات الايطالية الصغيرة التى احتفظت باستقلالها أيام المد الاسلامى فى الغرب ، عن التصدى لخطر المسلمين فى حوض المتوسط ، والذى استمر فى العصر العباسى الثانى كما سنرى ، بادر منفردا بإرسال - ليس فقط قوات رمزية تسند القوات المسيحية الموجودة فى المنطقة - ولكن جيوشا جرارة أضحت هى القوام الأساسى لقوات التصدى للقوى الإسلامية فى حوض المتوسط ، ولقد بدأ توافد هذه الجيوش البيزنطية عام ٨٦٨ م ونجحت بالفعل فى مهمتها حيث لم يأت عام ٨٨٠ هـ حتى كان الأسطول البيزنطى قد فرض هيمنته ونفوذه على معظم جزر شرق المتوسط وكذا على سواحل ايطاليا الجنوبية ، بل ونجح فى انتزاع بارى من يد المسلمين عام ٨٧٦ والتى تعد منفذ ايطاليا الرئيسى للاتصال بشرق المتوسط وبآسيا الصغرى والشام [١٣] . وهذه هى المناطق التى كان المسلمون قد بذلوا سنوات طويلة وجهد مضن من أجل فتحها ، ولكن ظلت كريت صامدة لمحاولات استرداد البيزنطيين لها فاستعصت عليهم وأضحت قاعدة للمقاومة الإسلامية الصلبة لحركات الاسترداد المسيحى فى هذه المنطقة. [١٤]

ولكن ذات الفترة التى شهدت مدا بيزنطيا واضحا فى أراضى الدولة العباسية فى آسيا الصغرى وفى شرق البحر المتوسط خبرت مولد قوة اسلامية فى المشرق الاسلامى ذاته وبالتحديد فى مصر ، استطاعت أن تقوم بدور حاسم فى التصدى للخطر البيزنطى ، وهى الدولة الطولونية التى أسسها أحمد بن طولون والى مصر من قبل الدولة العباسية عندما استقل بمصر (٢٥٤/٨٦٨)[١٥] ، نفس العام الذى شهد بداية المد البيزنطى فى الحوض الشرقى للبحر المتوسط. ولقد أدرك أبن طولون كما أدرك معاوية قبله أن سبيل مواجهة البيزنطيين يكون ببناء جيش قوى تشكل القوى البحرية أحد أعمدته الاساسية . فالبيزنطيون - كما ذكرنا - كانوا يبدأون فى هذه الفترة مدا بحريا واسعا لم يكن ليغيب عن أعين قائد عسكرى مثل أحمد بن طولون ، هذا فضلا عن ذكريات الماضى القريب عندما نجحت سفن الاسطول البيزنطى عام ٢٣٨ هـ / ٨٥٣م من النزول ببعض السواحل المصرية وتخريبها[١٦]

ثم إن استراتيجية ابن طولون لمواجهة الدولة البيزنطية قامت أيضا على دعامة هامة جدا أمن بانها الأساس الأقوى لضمان نجاح مصر فى رد أطماع البيزنطيين فيها

---

١٣ - المرجع السابق ، ص ص ٢٢٣ - ٢٢٤ .

١٤ - المرجع السابق ، ص ١٨٥ .

١٥ - محمد أحمد زيور ، العلاقات بين الشام ومصر فى العهد الطولونى والاخشيدى من ٢٥٢ - إلى ٣٥٨ /٨٦٨ - ٩٦٨ (دمشق - دار حسان للطباعة والنشر ، ١٩٨٩) ص ص ٥٢ - ٥٣ .

١٦ - رمضان ، الصراع بين العرب وأوروبا ، ص ٢٣٦ .

وهى ضرورة توحيد مصر والشام [١٧]. والواقع أن هذا التفكير ما كان إلا أحياء بصورة معينة لسياسة تداعى الفتوحات التى أمنت بها دولة الخلافة الأموية وطبقتها بهمة لاتعرف الكلل ، ولكن ربما لتفكك الدولة الإسلامية فى العصر العباسى الثانى فإن سياسة تداعى الفتوحات أضحى لها طابع جزئى بعد أن كانت سياسة طابعها الكلية فى ظل الدولة الإسلامية الموحدة ، بمعنى أن حاكم الدولة الإسلامية عندما يؤمن بمبدأ تداعى الفتوحات فانه ينظر إلى الجبهة الملاصقة له وحسب ولا يفكر فى الامتداد إلى أبعد من هذا ، هذا فضلا عن أن الفتح هنا فى المشرق الاسلامى أضحى فى أرض اسلامية وليس فى أرض غير اسلامية وهذه أيضا ظاهرة جديدة وخطيرة سنرجع اليها بعد قليل ، والواقع أننا سوف نقابل استراتيجية توحيد مصر والشام فى جبهة واحدة كثيرا بعد ذلك خاصة عندما يقدر لأيهما قائد تكون همته عالية ومخلصة فى رد أطماع القوى الخارجية عن هذا الجزء من العالم الاسلامى ، فأمن مصر يبدأ فى الشام والعكس صحيح .

ولقد نجح ابن طولون بالفعل فى ضم الشام إلى مصر عام ٨٧٧ منتهزا فرصة وفاة حاكمها فأصبح هو المتصرف فى حصون وأسوار مدن الشام الهامة مثل عكا ويافا وجددها ودعمها ، ثم سرعان ما أنتقل من موقف الدفاع إلى موقف الهجوم بعد أن بادر بالكر على ممتلكات الامبراطورية البيزنطية فى جزر بحر أيجة فنجح فى وضع الأسطول البيزنطى فى موضع الدفاع مرة أخرى وكذا فى دفع الدولة البيزنطية إلى طلب مهادنته وعقد الصلح معه أحيانا كثيرة - كما حدث عام ٢٦٥هـ /٨٧٨م مثلا[١٨]

ولكن قدرة الدولة الطولونية على الاستمرار فى تدعيم قوتها بما يحفظ عليها هيبتها فيمنع الدولة البيزنطية من التفكير فى التجرؤ عليها أو يمكنها من التصدى بفاعلية فى حالات أتخاذ الدولة البيزنطية لقرار التعدى لم تستمر طويلا ، فقد أصاب الدولة الطولونية فى مقتل وعطل نشاطها ضد البيزنطيين عاملان كلاهما داخلى :

أما العامل الأول : فهو الثورات والحركات الداخلية التى قامت فى الدولة العباسية نتيجة للظروف الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التى سادتها وطالت بمعاناتها أكثر ما طالت عامة الشعب ، وكان من أعمق هذه الحركات أثرا وأوسعها أنتشارا وأطولها

---

١٧ - المرجع السابق ، ص ٢٢٦ .

- السامرائى ، تاريخ الدولة العربية ، ص١١٨ .

- حسن ، تاريخ الإسلام ، ج٢ ، ص ص ٨٨ - ٨٩ .

- زيور ، العلاقات بين الشام ومصر ، ص ٢٩ وما بعدها .

١٨ - شاكر ، التاريخ الإسلامى :الدولة العباسية ، ج٢ ، ص ٨٨ .

- زيور ، العلاقات بين الشام ومصر ، ص ٥٦ ، ٥٧ .

عمرا حركة القرامطة وذلك أنها قامت على أساس عقيدى فاستطاعت أن تتغلغل فى قلوب البسطاء فى فترة كانوا يتطلعون فيها إلى منقذ مما هم فيه من أوضاع متردية ، ولما يدرك العامة أن الحاضر البائس لايبشر بأى تحول نحو الأفضل فى الأفق المنظور فإنهم يتحولون إلى التماس الخلاص فى التشبث بمجموعة من الغيبيات ، على رأسها الأيمان بظهور مخلص ينشر العدل مكان الظلم فينتصر لهم ، وسنلحظ أن هذا كان دائما سبب نجاح الحركات التى تعد البسطاء من الناس فى أوقات التردى الاقتصادى والانحلال الاجتماعى بحياة أفضل غير ملموسة لهم، ولهذا نجحت حركة المختار مثلا وحركة الدعوة العباسية ذاتها ، والحركة الفاطمية ، وسوف يكون سببا فى نجاح الدعوةإلى الحروب الصليبية أيضا ، فالبشر يعانون ويحلمون ويطمحون سواء كانوا مسلمين أو مسيحيين .

نقول أن حركة القرامطة انتشرت فى بلاد الشام أول ما انتشرت وقت أن كانت تحت حكم الطولونيين ، والواضح أن هذه الحركة لم تلفت انتباه حكام الدولة الطولونية فى مصر فى البداية ، حتى كان أن وصلت حدا خطيرا عندما حملت السلاح وحاصرت دمشق ذاتها عام ٢٨٩ ، وكادت توقع بوالى الشام من قبل الطولونيين بن طغج الأخشيدى لولا النجدة التى وصلت من مصر وهنا بدأ اهتمام الطولونيين لمدى الخطر الذى تشكله هذه الحركة باستغلالها حاجات العامة خاصة وأنه قد تمثل أمام أعين الطولونيين واضحا مدى قوة الحركة عندما لم تستطع جيوش ابن طولون القضاء عليها تماما بل ردتها فقط عن دمشق [١٩]، ولقد أدى اهتمام الطولونيين بالتصدى لخطر القرامطة فى الداخل إلى انشغالهم عن مواجهة الخطر البيزنطى القادم من الخارج .

وهنا بدأ عامل داخلي ثانٍ يطل براسه ليتفاعل مع العامل الأول فيفت فى عضد الطولونيين ويزيد من انشغالهم عن مواجهة الخطر البيزنطى ، تمثل هذا العامل فى محاولات الخلافة العباسية فى المركز استغلال انشغال الطولونيين بمواجهة القرامطة لاعادة فرض سيطرتها على ولاياتها فى مصر والشام ، وكنا قد رأينا قبلا أن الخلافة العباسية كانت قد بدأت تقليدا منذ عهد الرشيد يسمح بالموافقة على استقلال الولاة بولاياتهم مقابل تقديمهم خدمات للمركز تحفظ للمركز هيبته كما حدث مع الطاهريين فى خراسان والأغالبة فى أفريقية ، إلا أن هذا كان يتم دائما من موقع قوة فيأتى الاستقلال كمنحة من المركز يقدمها طوعا ولا تفرض عليه فرضا ، أما حالات الانفصال فلقد استعدت دائما عداء الدولة العباسية حتى فى العصر العباسى الأول فعملت على مواجهتها وأسقاطها ، ولقد استمر هذا فى العصر العباسى الثانى خاصة مع تزايد حالات تجزؤ الأقاليم على السلطة المركزية والانفصال عنها وانتقال ذلك من الولايات

---

١٩ ـ حسن ، تاريخ الإسلام ، ج٣ ، ص ١٣٢ .
– زيور ، العلاقات بين الشام ومصر ، ص ص ١٥٢ ، ١٦٥ .

النائية فى المغرب الإسلامى إلى المشرق الاسلامى فى الولايات القريبة من قلب الدولة الإسلامية فى بغداد ، فإذا كان المركز قد اضطر لضعفه وقلة حيلته إلى السكوت عن هذه الولايات المنفصلة بما أكسبها شرعية ولو ضمنية ، فإن عدم رضا المركز عن هذه النزعة الاستقلالية كان يظهر فى انتهازه أى فرصة ضعف وتراجع فى قوى هذه الولايات للانقضاض عيها فى محاولة لاسترجاعها ، وهذا هو ما حدث مع ابن طولون الذى تجرأ على الاستقلال بمصر والشام فانتهزت الدولة العباسية فرصة الاضطرابات التى صاحبت أنتقال السلطة إلى خماروية ابن أحمد بن طولون بعد وفاة الأخير لتحاول استعادة مصر والشام بالقوة فكانت معارك حربية انتصر فيها الطولونيون ووقعوا عهد صلح مع الخليفة فرض فيه على الأخير ترك مصر والشام للدولة الطولونية مدة ثلاثين عاما دون منازعتها فيهما أو محاولة استردادهما[٢٠] . وكان المرء هنا أمام قوتين غير اسلاميتين يتحاربان فتنتصر فئة فتفرض شروطها على فئة أخرى فى معاهدة، والشروط هى عدم التدخل فى شئونها رغم أن الولاية أصلا تابعة للدولة العباسية .

وكان من الطبيعى أن ينشغل الطولونيين بالتصدى لمحاولات الخلافة العباسية تلك لاسترجاع مصر عن مواجهة البيزنطيين ولكن يظهر واضحا مدى الدور الايجابى الذى قام به الطولونيون فى التعامل مع البيزنطيين عندما نتعرف على نشاطاتهم قبلها فى الفترات التى كانوا فى الفترات التى كانوا يأمنون فيها جانب الدولة العباسية بعد كل جولة من جولاتهم معها فكانوا فى فترات الهدنة تلك يوجهون اهتمامهم صوب البيزنطيين فيصدون غاراتهم ويوقفون مدهم بل إنهم فى أحيان أخرى كانوا يقومون بالمبادرة ضدهم مثلما حدث عام ٩٠٤ عندما نجحوا فى احتلال سالونيكا بعد حملة بحرية عنيفة [٢١]

وتجدر الاشارة هنا إلى أنه رغم الخدمات التى كانت تقدمها الدولة الطولونية لدولة الإسلام على الصعيد الخارجى ، إلا أن محاولات الخلافة العباسية المستمرة القضاء عليها رغم علمها بعجزها هى عن القيام بالعبء الذى تقوم به الدولة الطولونية فى صد الخطر البيزنطى ليعد مؤشرا على تكرس نمط العداء فى العلاقات الإسلامية - الإسلامية فى العصر العباسى الثانى فقط بين المركز والدويلات المستقلة بل وبين تلك الدويلات بعضها وبعض . فإنجازات كل كيان سياسى اسلامى كان ينظر اليها بوصفها مكسبا خاصا به وليس بوصفها اضافة لدولة الإسلام ككل ، وكان لسيادة هذا الشعور بالانفصالية على حساب الشعور بالوحدة مع تزايد اللامركزية والحركات

---

٢٠ ـ حسن ، تاريخ الإسلام ، ج٣ ، ص ١٢١ .

- شاكر ، التاريخ الإسلامى :الدولة العباسية ، ج٢، ص ٨٩ .

- زيود ، العلاقات بين الشام ومصر ، ص ٥٧ وما بعدها .

٢١ ـ رمضان ، الصراع بين العرب وأوروبا ، ص ٢٢٧.

الانفصالية سببا مباشرا فى سيادة علاقات التناحربين الدويلات الإسلامية حتى كانت تحيد انجازاتهم على الصعيد الخارجى فتصبح المحصلة للصالح العام لدولة الإسلام صفرا ، وهكذاكانت اللامركزية دعما لقوة دولة الإسلام فى العصر العباسى الأول حيث كانت الدويلات أما تستقل برضا المركز فلاتقوم علاقات تناحر ، وأما كانت تستقل رغما عنه فى الأماكن النائية فتحد طول المسافة من حدة المواجهة وعنفها فتتفرغ تلك الدويلات لمواجهة الخطر الخارجى بكفاءة . بل وكنا نلحظ أيضا تعاونا وتناصرا بين الدويلات الإسلامية فى مواجهة الأخطار الخارجية خاصة فى الغرب الاسلامى وهو ما سيختفى تماما فى العصر العباسى الثانى ـ كما رأينا وكما سنرى على طول صفحات هذا الفصل .

ولقد جاءت الخطوة الحاسمة من قبل الخلافة العباسية تجاه الدولة الطولونية بعد تفشى حركة القرامطة فى الشام ووضوح عجز الطولونيين عن القضاء عليها بصورة حاسمة وكان قد تولى حكم الدولة العباسية فى ذلك الوقت الخليفة المستكفى الذى حاول بإخلاص أن يستعيد للدولة العباسية هيبتها ، وكان أن ابتدأ بترتيب البيت من الداخل قبل أن ينظر إلى الخارج ، فوجه اهتمامه أولا إلى حركات الفتن والثورات الداخلية ثم التفت ثانيا إلى حركات الاستقلال التى أُرغم المركز على قبولها أوقات ضعفه وكان أول الحركات الاستقلالية التى ركز جهده عليها هى الحركة الطولونية خاصة عندما لاحظ عدم قدرتهم على القضاء على القرامطة بصورة حاسمة وخاف أن تقع مصر والشام فريسة للقرامطة المناهضة للخلافة العباسية عقيديا ، وهكذا كان القرار الخلافى بضرورة وضع نهاية للدولة الطولونية وانتزاع مصر والشام منها واعادتها إلى قبضة الخلافة العباسية قبل أن يقعا للقرامطة فأرسل جيشا إلى مصر انتصر بالفعل على الطولونيين الذين كانت مواجهاتهم المستمرة بجهودهم المنفردة مع القرامطة فى الداخل والبيزنطيين فى الخارج قد أنهكت قواهم وجعلتهم بالفعل فريسة سهلة للجيش العباسى فعادت كل من مصر والشام ولايتين تابعتين مباشرة للخلافة العباسية عام٢٩٢[٢٢]

وكان من الممكن أن يضيف انضواء مصر والشام تحت سلطة الخلافة العباسية اليها قوة لموقعها الممتاز لو قدر للمركز أن تستمر به قيادة رشيدة تعمل على تحقيق أكبر افادة من ولاياتها ، ولكن عهد الخليفة المستكفى انتهى عام ٢٩٥ بعد عامين فقط

٢٢ـ المرجع السابق ، ص ص ٢٢٧ ، ٢٢٨ .
– السامرائى ، تاريخ الدولة العربية ، ص ١١٨ .
– شاكر ، التاريخ الإسلامى :الدولة العباسية ، ج٢ ، ص ١٠٥.
– حسن ، تاريخ الإسلام ، ج٣ ، ص ص ١٢٣ ـ ١٢٤ .
– زبور ، العلاقات بين الشام ومصر ، ص ص ١٦٥ ، ١٧٢.

من استعادة المركز لمصر والشام وبدأ عهد من أسوأ العهود وأكثرها تدهورا أمتد حتى عام ٣٢٠ ليكون سببا مباشرا فى انحطاط أحوال المركز بصورة استدعت تقدم البويهيين للأمساك بمقاليد الأمور فى أيديهم عام ٣٣٤ (٢٣)

وتدهور الأحوال فى الداخل كان لابد أن ينعكس تقهقرا فى الخارج ، ويكفى للدلالة على مدى سوء الأحوال فى فترة حكم المقتدر أن الدولة العباسية عجزت حتى عن الأستفادة من الظروف الداخلية السيئة التى عانتها الدولة البيزنطية فى ذلك الوقت بما يخدم مصالح الدولة الاسلامية، فلقد عانت الدولة البيزنطية فى ذات فترة حكم المقتدر من خطر البلغار وحروبهم معها وتمكنهم من أحتلال أراض وأقاليم بيزنطية عدة حتى أصبح خطرهم يتهدد القسطنطينية ذاتها حيث أشرفوا على أبوابها عام ٣١٢/٩٢٤ ، وبدلا من أن يتقدم الجانب الاسلامى للافادة من هذه الظروف لاسترداد بعض ما فقده للدولة البيزنطية طوال النصف قرن السابق على هذه الأحداث فإنه ظل ساكنا ، فالمركز يرزح تحت نير حكم من أسوأ ماقدر له والطرف الذى كان يمكنه أن يفيد من هذه الظروف - نعنى الدولة الطولونية - كان قد قضى عليها المركز فى علاقات التصارع الإسلامية - الإسلامية(٢٤)، فلو كان هناك تناصرٌ بين المسلمين وأوجدوا صيغة مناسبة للتعدد فى أطار الوحدة لكانت المحصلة لصالح دولة الإسلام حتما.

ولما قامت فى مصر دويلة مستقلة أخرى عام ٣٢٣/٩٢٥ وهى الدولة الأخشيدية ونجحت بعد قليل فى ضم الشام إليها وتوحيد الجبهة المصرية - الشامية ، ولم يمهلها الخليفة المقتدر لتحقيق شىء يذكر فى المجال الخارجى بالاستفادة من الجبهة القوية تلك ، فعين وزيره وأمير أمراء الجند على جنوب الشام لمناوئة الأخشيديين ، ولقد انشغل الأخشيديون بحرب أمير أمراء الجند الأتراك فى جنوب الشام وكذا بحرب الحمدانيين فى الشمال الذين كانوا قد نجحوا فى تأسيس ولاية لهم فى الموصل والجزيرة عام ٢١٧ /٩٢٩ ولم يرضوا بوجود خصم قوى على حدودهم حتى لو كان مسلما ، وكان لأنشغالهم هذا بالحرب على جبهتين "اسلاميتين "أثر واضح على انعدام أى تحرك أخشيدى على الجبهة البيزنطية غير الإسلامية (٢٥)

ولقد برز الأخشيديون فى هذه الحرب الإسلامية المثلثة الأضلاع حيث قضى على ابن رائق عام ٣٣٠ ، وكاد الأخشيديون أن يسقطوا الحمدانيين بالاستيلاء على حلب

---

٢٣ - رمضان ، الصراع بين العرب وأوروبا ، ص ٢٢٨ .

٢٤ - زيور ، العلاقات بين الشام ومصر ، ص ص ٢٢١ - ٢٢٤

- السامرائى ، تاريخ الدولة العربية ، ص ص ١٢٦ - ١٢٧

٢٥ - حسن ، تاريخ الإسلام ج٣ ص ص ١٢٠ - ١٢٨

- شاكر، التاريخ الاسلامى : الدولة الاسلامية،ج٢ ص ص ٢٩٢ - ٢٩٦

- زيور ، العلاقات بين الشام ومصر ، ص ص ٣٠٢ - ٣١١

واسترداد دمشق عندما تبدلت الظروف على الساحة الدولية والإسلامية إلى درجة أقنعت الجانبين الحمدانى والأخشيدى بضرورة التفاهم بينهما بدلا من الصراع . فالبيزنطيون قد بدأوا فى هذه الفترة ينشطون مرة أخرى على الثغور الشامية ، فى ذات الوقت الذى بدأ فيه واضحا خطر الفاطميين الذين أسسوا دولة لهم فى المغرب عام ٢٩٧ ، وبدأوا يوجهون أنظارهم إلى مصر يريدون الاستيلاء عليها ، وهنا تنازل الأخشيديون عن حلب وما يليها من بلاد الشام شمالا للحمدانيين حتى يتمكنوا من حماية الحدود الشمالية من غارات البيزنطيين على أن يتفرغوا هم لمواجهة خطرالفاطميين القادم من الغرب بعد أن يأمنوا على جبهتهم الشمالية بالصلح مع الحمدانيين (٢٦)

المطلب الثانى : تقلص حركة المد فى المغرب الإسلامى وتحولها إلى علاقات توازن مع الممالك المسيحية الأوروبية :

فى الوقت الذى كان يسيطر فيه الأتراك على مركز الخلافة العباسية فى بغداد ويتسببون بانصرافهم عن شئون التصدى للقوى غير الإسلامية فى أختلال توازن القوى فى المشرق لصالح الدولة البيزنطية على حساب الدولة العباسية ، وفى الوقت الذى كانت تجاهد فيه الدويلات المستقلة فى مصر والشام لمحاولة اعادة نوع من التوازن دون جدوى بسبب تشرذم جهودها وصراعها مع بعضها البعض ومع المركز ، كان المغرب الاسلامى يعيد هذا التوازن حيث دار صراع متكافىء بين الدويلات الإسلامية فى شمال أفريقيا من جانب والدولة البيزنطية من جانب أخر ولكن مسرحه ممتلكات تلك الامبراطورية فى وسط وغرب حوض البحر المتوسط ، فى نفس الوقت الذى كان فيه الأندلس الأموى يقوم بدور مجيد فى الصراع مع الممالك المسيحية فى شمال أسبانيا ومع دولة الفرنجة بعد اجتيازها فترة اضطراب سياسى داخلى فى عصر ملوك الطوائف .

فإذا نظرنا أولا إلى دويلات شمال أفريقيا الإسلامية لاستطعنا القول إن فتح المسلمين لجزيرة صقلية كان هو الخطوة الحاسمة على بداية الطريق لتقويض الخلل فى التوازن بين القوى الإسلامية والقوى غير الإسلامية فى المشرق ، فجزيرة صقلية - كما سبق بيانه - كانت بمثابة المفتاح الذى فتح للمسلمين حوض البحر المتوسط

---

٢٦ - رمضان ، الصراع بين العرب وأوروبا ، ص ٢٢٨

- زبور ، العلاقات بين الشام ومصر ، ص ص ٣١١ - ٣١٥

- حسن ، تاريخ الإسلام ، ج٣ ، ص ص١٢٠ - ١٢١ ، ١٣٨ - ١٣٩

الأوسط والغربي حيث استخدموها كقاعدة يهددون منها ايطاليا ويثبون عليها وعلى جزر عدة في البحر التيراني ليتسيدوا عليه (٢٧)

ولقد ذكرنا قبلا أيضا كيف أدرك المسلمون منذ بداية الدولة الإسلامية مدى أهمية موقع جزيرة صقلية فتلاحقت عليها الحملات خاصة في عهد الدولة الأموية التي كانت تؤمن بسياسة تداعي الفتوحات كمحور أساسي لتحقيق الأمن لدار الإسلام وتزايد العزم على فتحها مع تزايد اهتمام الدولة البيزنطية بتحصينها للتأكد من عدم سقوطها للمسلمين ، ولم تسفر كل هذه الحملات المتوالية إلا عن بعض الغنائم والأسرى حتى عقد الأغالبة عزمهم على فتح صقلية عام ٢١٢ ، ولكن برغم الجلد الذي أظهره الأغالبة وبرغم التعاون - أكثر من مرة - بين الأسطول الأغلبي والأسطول الأندلسي ، إلا أن الجزيرة ظلت بالفعل مستعصية على الأغالبة ولم تكن تسقط لهم إلا المدينة بعد المدينة، ولما أدرك الأغالبة مدة تحصن الجزيرة قرروا تأسيس إمارة لهم في الجزء المفتوح يتخذون منها قاعدة ثابتة للغزو في باقي الجزيرة ، وكان هذا القرار رشيدا حيث استطاعوا بالفعل تحقيق فتوح هامة بعد ذلك ، فافتتحوا قسريانة عام ٢٤٥ ثم سيراكيواز عام ٢٦٥ ثم طبرمين عام ٢٩٦ والتي كان لسقوطها وقع الصاعقة على الدولة البيزنطية ، ولقد توقفت فتوح المسلمين في جزيرة صقلية عند هذا الحد ذلك أن الجزء الشرقي منها ظل مستعصيا على المسلمين فقبلوا من ولاته الجزية وقنعوا بها عن محاولات الفتح المضنية (٢٨)

ولقد أثبت تاريخ العلاقات الإسلامية /غير الإسلامية أن الأمر كان يستحق المال والجهد والرجال والوقت المبذولين في فتح صقلية ، ذلك أنه منذ أن نجح المسلمون في اقامة إمارة لهم هناك في الأجزاء القليلة التي كانوا قد أتموا فتحها في نهايات العصر العباسي الأول وهم ينطلقون منها لغزو مناطق أخرى في حوض المتوسط ، وكانت أقاليم ايطاليا هي هدفهم الأساسي ولقد استفادوا في انجاز ذلك بالنزاعات المحلية التي كانت قائمة بين أمراء ذلك الأقليم الذي لم يكن يشكل وحدة سياسة في ذلك الوقت بل كان مجرد وحدة جغرافية منقسمة بين مجموعة الإمارات المتنافسة المتصارعة ، ولقد بدأ فتح الأغالبة لأقاليم أيطاليا منذ نهايات العصر العباسي الأول خاصة بعد استيلائهم على مسينا عام ٢٢٩ /٨٤٣ الذي فتح أمامهم الطرق إلى جنوب أيطاليا فاحتلوا معظم أقاليمه وتسيدوا عليها فترة حتى نجح الامبراطور البيزنطي في فرض نفوذه عليها مرة أخرى كما سبق بيانه .

---

٢٧ - عثمان ، مواقف حاسمة ، ص ص ٩١ - ٩٢

- خليل ابراهيم السامرائي واخرون ، تاريخ المغرب العربي (الموصل :دار الكتب للطباعة والنشر ١٩٨٨) ص ص ٢١٥ - ٢١٧

٢٨ - رمضان ، ص ص ١٩٠ - ١٩١

- السامرائي ، تاريخ المغرب ، ص ٢١٧ وما بعدها

- عنان ، مواقف حاسمة ، ص ص ٨٧ - ٩١

ولكن إذا كان الأغالبة قد فشلوا أثناء العصر العباسى الثانى ، رغم اتمامهم فتح صقلية فى بداياته، فى الاحتفاظ بتسيدهم على مدن جنوب ايطاليا التى كانوا قد فتحوها فى نهايات العصر العباسى الأول ، فإنهم قد نجحوا فى تعويض هذه الخسارة بتحقيق نصر كبير تمثل فى فتحهم جزيرة مالطة عام ٢٥٦ /٨٦٩ ورغم استماتة البيزنطيين فى مقاومة هذا الفتح وذلك لموقع مالطة البحرى الممتاز حيث تتوسط حوض المتوسط وتتحكم فى بواغيز عدة ، الا أن النجاح كان حليف الأغالبة الذين تلقوا المدد والمساعدات من صقلية أثناء فتحهم لمالطة ولقد دام تسيد المسلمين عليها قرنين من الزمان ٨٧٠ - ١٠٩١ (٢٩)

ثم إن هذه الفترة شهدت أيضا استمرار تجرؤ المسلمين على روما ، فلقد كان حلم فتح روما يراود القوى الإسلامية فى شمال أفريقيا دوما ، فلما كانت نجاحاتهم فى حوض البحر المتوسط وجزره فى العصر العباسى الثانى تشجع أمير صقلية التابع لأغالبة أفريقية ليقوم بمحاولة على روما عام ٢٥٦ /٨٦٩ نفس عام فتح المسلمين هناك لمالطة ، وبدلا من تمويل مجاهدة البحر للقيام بغزو روما كما حدث قبلا ، فإن أمير صقلية اختار أن يرأس هو بنفسه الحملة عليها فقاد حملة بحرية رست بالقرب من روما وأحكمت الحصار حولها ، ورغم عنف مقاومة الأساطيل الايطالية المدعومة من البابا لهذا الغزو ، إلا أن الحصار كان محكما جدا مما أضطر البابا إلى التفاوض مع الصقليين على الجلاء مقابل دفع الجزية (٣٠)

وهكذا بنجاح المسلمين فى المغرب الاسلامى فى فتح جزيرة كورسيكا وسردينيا وكريت ومالطة وصقلية جزر البليار تسيدوا على البحر المتوسط كله ، ولقد مهدت سيطرة المسلمين هذه على حوض البحر المتوسط لبداية دور من أدوار المد الاسلامى داخل الأراضى الأوروبية ذاتها وليس على السواحل فقط ، أما القوة الإسلامية التى قامت بالعبء الأساسى فى الجهاد والفتح فى الأراضى الأوروبية فى العصر العباسى الثانى فكانت مجاهدة البحر وذلك بتأييد ودعم معنوى من الأندلس الإسلامية التى كانت ترزح فى ذلك الوقت تحت وطأة حكم ملوك الطوائف فلم تستطع أن تقدم لهؤلاء المجاهدة شيئا أكثر من السماح لهم باستخدام موانيهم ومرافئهم ، وهكذا خرجت مجموعة من هؤلاء المجاهدة من سواحل الأندلس عام ٨٨٩ قاصدة جزر فرنسا أساسا ولكنهم نجحوا فى أقامة قاعدة لهم فى جبال الألب توافد عليها أعداد كبيرة من مسلمى الأندلس والمغرب فتحولت هذه المنطقة فى جبال الألب إلى قاعدة قوية سمحت بتجاوز الغارات الإسلامية سمة المرحلية إلى سمة الثبات والاستمرارية وذلك

٢٩ ـ رمضان ، الصراع بين العرب وأوروبا ، ص ١٩٢ .

٣٠ ـ المرجع السابق ، ص ١٩٥ .

– عنان ، مواقف حاسمة ، ص ص ١٠٢ ـ ١٠٣ .

بفضل استنادها إلى مركز مستقر يتم منه الانطلاق [٣١]، ولم تمض سنوات قليلة بعد اقامة قاعدة جبال الألب حتى كان المسلمون المنطلقون منها يتحكمون فى كل ممرات جبال الألب ويغيرون على أوروبا فى العمق حتى وصلوا فى غاراتهم إلى سويسرا [٣٢]

ومع انتهاء عهد ملوك الطوائف في الأندلس ومجيء عبدالرحمن الناصر إلى حكمها ، أصبحت القاعدة الإسلامية فى الألب تستمد دعمها شبه التام من الأندلس الأموية حتى أضحت وكأنها ولاية تابعة لها ، يستدل على ذلك من سفارات حكام أوروبا المتوالية إلى البلاط الأموى تطلب توسطه لوضع حد لغارات مسلمي جبال الألب وذلك على فرنسا وايطاليا خاصة [٣٣]، ولقد بلغ خطر هذه القاعدة فى الألب حدا دفع ملوك أوروبا إلى السعى لعقد تحالف مع الامبراطور البيزنطى رغم العداء المعروف بين الامبراطورية الرومانية المقدسة والامبراطورية البيزنطية، ولقد قبل الامبراطور البيزنطى عقد هذه التحالفات مثلما فعل مع ملك بروفانس الذى تحالف معه لاخراج المسلمين من المناطق التى فتحوها من مملكته ولكن كان قبول الامبراطور محالفة أعدائه المسيحيين ضد المسلمين هو جزء لايتجزأ من محاولات الأمبراطورية البيزنطية استعادة السيطرة على حوض المتوسط بعدأن أضحى بحيرة عربية وذلك بالعمل على استئصال شأفة المسلمين من جزره وأيضا من المدن الأوروبية المحيطة به، ومن المرجح أنه لو كان قد قدر لهذا التحالف البيزنطى /البروفانسى أن يسير إلى نهايته الطبيعية لكان المسلمون قد وجدوا أنفسهم فى موقف حرج ، ولكن الظروف السياسية الخاصة بالصراعات السياسية بين أمراء أوروبا قد خدمت المسلمين فى ذلك الوقت ، فأثناء أنشغال أمير بروفانس الزحف الفعلى لمواجهة المسلمين علم بأن أحد منافسيه انتهز فرصة انشغاله بالمسلمين وزحف بجيشه على ايطاليا محاولا استخلاصها لنفسه ، فعاد ملك بروفانس مسرعا إلى ايطاليا لمواجهة خصمه مرجئا مواجهته للمسلمين وعقد معهم حلفا يقطعون بمقتضاه الطريق عبر جبال الألب على جيوش ملك المانيا الزاحف على ايطاليا لضمها . ولقد قبل المسلمون هذا التحالف لأنه سيثبت أقدامهم أكثر فى المنطقة ، ولقد أفاد المسلمون فى جبال الألب كثيرا من الصراعات المحلية بين ملوك أوروبا حيث كانوا يستعينون بهم على بعضهم البعض ، وكان المسلمون هم المستفيدون الوحيدون من هذه الأوضاع حتى أنهم بدأوا يستقرون فى المنطقة يتزاوجون ويمارسون

٣١ـ رمضان ، الصراع بين العرب وأوروبا ، ص ص ١٩٨ ـ ١٩٩ .

٣٢ـ حسن ، تاريخ الإسلام ج٣ ، ص ص ٢٤١ ـ ٢٤٢ .

٣٣ـ المرجع السابق ، ص ص٢٤٢ ـ ٢٤٣ .

- شاكر ، التاريخ الاسلامى:الدولة الاسلامية ،ج٢،ص ص ١٦٩ ـ ١٧٠ .

- رمضان ، الصراع بين العرب وأوربا ، ص ٢٠١ .

الزراعة حتى بدوا وكأنهم باقون إلى الأبد [٣٤] وكان من الممكن أن يتحقق هذا لولا أن دخل بينهم عامل الخيانة فنظروا إلى مصالحهم الخاصة والدنيوية فكانت نهايتهم كما سنرى في المبحث القادم .

فاذا حولنا نظرنا الآن إلى الأندلس لوجدنا أن بدايات العصر العباسي الثاني زامنت بداية فترة من الاضطراب وعدم الاستقرار السياسي في الأندلس كبلها عن القيام بمثل الدور الفعال الذي قامت به في العصر العباسي الأول في مواجهة القوى غير الإسلامية في المغرب ، فلقد عاشت الأندلس منذ وفاة حاكمها عبدالرحمن الأوسط عام ٢٣٨ /٨٥٢م وحتى عام ٣٠٠ /٩١٢م عندما جاء إلى حكمها الأمير عبدالرحمن الناصر فترة مضطربة عرفت في التاريخ باسم عصر دويلات الطوائف الأول .

وكما أدى ضعف سلطة الخليفة العباسي إلى انفصال دويلات الدولة عنها واستقلال حكامها بها ، فإن ضعف الأمراء الأمويين الثلاثة الذين خلفوا الأمير عبدالرحمن الأوسط شجع ولاة كثيرون في الأندلس على الأستقلال بولاياتهم عن قرطبة ، ضاعف من سوء الحال في الأندلس أن المجتمع الأندلسي كان مجتمعا متنافرا غير متجانس تحكمه عصبيات محلية تسودة أطماع عنصرية ظلت قيد السيطرة طالما القائم على الحكم قويا ، ولكن عندما ضعفت سيطرة هذا القابض على زمام الأمور طفت الأطماع والعصبيات على السطح فكانت دويلات منفصلة ساعدت طبيعة الأندلس الجغرافية على التمكين لها [٣٥]، ولقد قامت دويلات للعرب ودويلات للبربر ودويلات المولدين أما سكان البلاد الأصليين الذين لم يعتنقوا الإسلام وبقوا على مسيحيتهم فأنهم لم يشكلوا دويلات خاصة بهم ولكنهم كانوا على اتصال دائم بالدويلات المسيحية في الشمال الأسباني[٣٦] .

ولقد عطل هذا التمزيق الذي أصاب الأندلس قدرتها على متابعة المد في الأراضي الأوروبية ، بل الأخطر من ذلك أنها بدأت تقف موقف الدفاع أمام حركة مد مسيحي أوربي عكسي ، فلقد تقدمت دويلات الشمال الاسباني المسيحية مستندة إلى العمق الاوربي ومدعمة بتحالف رسمي معهم لأحتلال بعض المدن الإسلامية التابعة للأندلس وذلك بعد الحاق خسائر فادحة بصفوف المسلمين [٣٧] . ولقد استمر هذا التجرؤ على

٣٤ـ رمضان ، الصراع بين العرب وأوروبا ، ص ص٢٠٠ ـ ٢٠١ .

٣٥ـ المرجع السابق ، ص ٢٠٤ .

ـ ابراهيم بيضون ، الدولة العربية في اسبانيا من الفتح حتى سقوط الخلافة (بيروت :دار النهضة العربية، ط٣، ١٩٨٦) ص ص ٢٥٧ ـ ٢٧١ .

٣٦ـ رمضان ، الصراع بين العرب وأوروبا ، ص ص٢٠٤ ـ ٢٠٥ .

٣٧ـ المرجع السابق ، ص ٢٠٦ .

ـ ابراهيم بيضون ، الدولة العربية في اسبانيا ، ص٢٨٤ ومابعدها

أراضى الدولة الأموية فى الأندلس من قبل الممالك المسيحية الشمالية حتى فى بداية عهد عبدالرحمن الناصر الذى كان مشغولا وقتها بتوحيد البلاد عن طريق محاربة ملوك الطوائف ، ولكن ما أن فرغ من هذه المهمة حتى جعل امارات الشمال الاسبانى المسيحية شغله الشاغل فكانت فترة حكمه أبتداء من عام ٣٠٤ /٩١٦ هي عبارة عن سلسلة طويلة متصلة الحلقات من الحملات التى لاتنقطع على هذه الممالك (٣٨)

ولكن استقراء وقائع هذه الحملات وما أفرزته من نتائج ليوضح أنها لم تكن حملات للفتح وانما كانت غارات للانتقام والتأديب وفرض الهيبة ، فعصر ملوك الطوائف الطويل وما ساده من اضطراب أعطى لامارات الشمال المسيحية فرصة ذهبية لكى تدعم وجودها وقوتها بحيث لم يعد من اليسير القضاء عليهم وفتح أراضيهم ، فكأن عصر ملوك الطوائف قد أدى إلى وجود نوع من توازن القوى بين الدولة الأموية فى الأندلس والممالك المسيحية فى الشمال المدعومة بالعمق الأوروبى لم يكن من اليسير الاخلال به ، ولكن اذا كان الناصر قد فشل فى الميل بميزان القوة إلى جانب الدولة الأموية إلا أن هذا لايعنى أن الأندلس لم تكن قوة دولية كبرى فى هذا الجزء من العالم لها مركزها فى الهيئة الدولية جعل الأطراف الأخرى غير الأسلامية تسعى لخطب ودها والاستعانة بها . فنجد مثلا صاحب عرش ليون ونافار يلجأ إلى الناصر عام ٣٤٤ طالبا مساعدته فى اقصاء من اغتصب عرشه فكانت مساعدة الناصر مشروطة بالحصول على عشرة حصون من مملكته ، فوافق ملك ليون على هذا الشرط القاسى وذلك لعلمه وتقديره للمساعدة الجادة والحاسمة التى سيحصل عليها من الناصر وبالفعل استطاع الجيش الذى أرسله معه أن يعيده إلى العرش (٣٩)

وتعد هذه الواقعة ذات دلالة خاصة تشير بالفعل إلى ادراك حكام الأندلس صعوبة ضم أراض من الأطراف الأخرى الشمالية بالفتح ومن ثم استخدموا هيبتهم وقوتهم للحصول على أراض ولكن بوسائل الدبلوماسية بدلا من الوسائل العسكرية ، ثم أن قوة الدولة الأموية فى الأندلس والهيبة التى فرضتها فى الساحة الدولية أدت إلى نتيجة أخرى هامة على صعيد العلاقات الدولية وهى قيام علاقات تحالف بين الدولة الأموية والدولة البيزنطية ساعد على ذلك اشتراك الأمويين والبيزنطيين فى عدائهم للامبراطورية الرومانية المقدسة ، ولقد بلغت العلاقات الودية تلك أوجها فى عصور الأزدهار الأموى وفى ظل الأمراء الأقوياء الذين استطاعوا أن يقفوا أندادا لأباطرة الروم(٤٠)

---

٣٨ ـ المرجع السابق ، ص ٢٧٧ ، ٢٨٢ .
– رمضان ، الصراع بين العرب وأوروبا ، ص ص ٢٠٦ ـ ٢٠٧ .
– رمضان ، الصراع بين العرب وأوروبا ، ص ١٩١
٣٩ ـ المرجع السابق ، ص ص ٢٠٧ ، ٢٠٨
– بيضون ، الدولة العربية فى اسبانيا ، ص ٢٩٠
٤٠ ـ المرجع السابق ، ص ص ٢٩٤ ، ٢٩٨
– رمضان ، الصراع بين العرب وأوروبا ، ص ٢٠٩ .

ولم تؤد وفاة الناصر إلى ضياع ما كسبه للأندلس من هيبة دولية وندية في علاقات التعامل مع الاسبان المسيحيين وكذا مسيحيي أوروبا ، ولكن استمرت الأندلس قوية لفترة أخرى قادمة كما سنرى بعد قليل .

المطلب الثالث : صعود الدولة الفاطمية وانشغالها التام بعلاقات الصراع مع الأطراف الإسلامية في الشرق والغرب وأثر ذلك على التعاملات الدولية للعالم الاسلامي :

في ذات الوقت الذي كان فيه المشرق الاسلامي يعاني من ضعف الخلافة العباسية وانحلالها مع بروز الدولة البيزنطية قوية مرة أخرى واستعادتها لأجزاء كثيرة من الشام وأسيا الصغرى وجزر شرق المتوسط ، وبينما كان المغرب الاسلامي يقوم بدور مجيد في قيادة الصراع مع القوى غير الإسلامية في هذا الجزء من العالم فحول البحر المتوسط إلى بحيرة عربية بادخال جزره في الوسط والغرب تحت السيطرة الإسلامية ثم وثب إلى جبال الألب ومنها إلى داخل أوروبا للتمركز لفترة في جنوب إيطاليا ، وفي ذات الوقت أفرز المغرب الاسلامي قوة اسلامية جديدة قدر لها أن تلعب دورا محوريا في التعامل الدولي مع القوى غير الإسلامية لفترة طويلة قادمة ، هذه هي الدولة الفاطمية ، والأهمية القصوى التي ستمثلها الدولة الفاطمية هي أنها ستقرب المشرق الاسلامي من المغرب الاسلامي مرة أخرى بجعل حاضرتها في مصر - قلب العالم الاسلامي - وستكون مؤهلة لأن تنقذ المشرق الاسلامي من الخطر البيزنطي (٤١)

والواقع أن الفترة محل الدراسة في هذا المبحث لم تشهد أي دور ايجابي للفاطميين لافيما يتعلق بجمعها شمل الأمة الإسلامية ولافيما يتعلق بالتصدي للخطر البيزنطي في المشرق ، ذلك أن هذه الفترة قد استوعبتها تماما جهود الفاطميين في تثبيت دعائم ملكهم في المغرب الاسلامي بعد نجاحهم في القضاء على الأغالبة ودخول القيروان عام ٢٩٧ /٩٠٩ فلقد نجحوا بعد ذلك في القضاء على الدولة الرستمية في الجزائر والدولة المدرارية في المغرب الاقصى ، ولم يتبق من الدويلات الأربع التي كانت قائمة في الشمال الأفريقي وقت بدء الدعوة الفاطمية هناك إلا دولة الأدارسة والتي سوف تسقط هي الأخرى عام ٣٦٣(٤٢)

ورغم نجاح الفاطميين الباهر على الدويلات المنافسة في المغرب إلا أن العنصر الأساس الذي كان يشكل استراتيجية الحكام الفاطميين ويحكم بالتالي تحركاتهم وقراراتهم كان هو القضاء على الخلافة العباسية ، ومن ثم فان قراراتهم المتعلقة

٤١ ـ المرجع السابق ، ص ٢٣٨ .

٤٢ ـ المرجع السابق ، ص ص ٢٣٨ ـ ٢٣٩ .

ـ السامرائي ، تاريخ المغرب ، ص ص ١٧٤ ـ ١٧٥ .

بالعلاقات الفاطمية / العباسية أثرت دائما وبالسلب على القدرة على التعامل بفعالية مع الأطراف الأخرى على الساحة الدولية ، فقرار الحاكم الفاطمى اتخاذ لقب خليفة أدى عملا إلى انقسام العالم الاسلامى إلى ثلاث قوى كبرى :العباسية والفاطمية والأموية بعد أن كان منقسما بين دولتين فقط فزاد هذا من تأكيد العواقب الوخيمة لعلاقات العداء والتوجس والشك . ثم إن القرار ضرب وحدة العالم الاسلامى الروحية أيضا فى مقتل ، فالحركات الأستقلالية والأنفصالية حتى ذلك الحين كانت لاتجرؤ على أن تشكك فى الشق الروحى للمنصب الخلافى حيث التمرد كان سياسيا دائما وليس عقيديا [٤٣]

ثم يأتى قرار ثان خطير نابع من رغبه الفاطميين فى القضاء على الدولة العباسية ، فهذه الرغبة جعلتهم يخططون لبسط نفوذهم على المغرب الاسلامى كله لتعزيز قوتهم فى مجابهة العباسيين فكان قرارهم المبكر جدا بضرورة اخضاع مصر والأندلس لنفوذهم، ولما كانت الأندلس بحكم وجودها على أرض أوروبية ومصر بحكم سيطرتها على الشام هما الدولتان اللتان تتصديان عملا للقوى غير الإسلامية الرئيسية متمثلة فى الامبراطورية البيزنطية فى المشرق والامبراطورية الرومانية المقدسة فى المغرب ، فإن هذا القرار والشروع فى تنفيذه وانشغال كل من الأندلس ومصر بالنتائج المترتبة عليه أثر بالضرورة على قدرتهما على التعامل الدولى الفعال لمدة قرنين ونصف من الزمان هما مرحلة عمر الدولة الفاطمية [٤٤]، فإذا نظرنا أولا إلى العلاقات الفاطمية الأندلسية لوجدنا أن الفاطميين رغبة منهم فى التسيد على الأندلس بوصفها المفتاح للسيطرة على المغرب كله، بدأوا ومنذ الشهور الأولى لوجودهم فى المغرب إرسال الدعاة إلى الأندلس وعلى رأسهم أبو على الداعى الكبير لهذا المذهب مستفيدين من الأوضاع الداخلية غير المستقرة بها فى ذلك الوقت- والتى أشرنا اليها - لجذب أنصار لهم ، ولقد نجحوا بالفعل فى تجنيد بعض الثوار فى الأندلس ليعترفوا بسلطة الحاكم الفاطمى دون الأمير الأموى[٤٥]. ولكن إذا كان الفاطميون لم يواجهوا نصبا فى الدعوة لهم فى الأندلس فى أول عامين لوجودهم فى المغرب فإن الأمور اختلفت تماما بعد مجيء الناصر الأموى إلى حكم الأندلس عام ٣٠٠، فلقد وجد فيه الفاطميون خصما عنيدا لايُجابه وكان الصراع بينهما مريرا ، ولقد سارت المواجهة

٤٣ـ بيضون ، الدولة العربية فى أسبانيا ص ص ٢٨٥ ـ ٢٨٦ .

٤٤ـ المرجع السابق ، ص ص ٢٩٠ ـ ٢٩٣ .

- رمضان ، الصراع بين العرب وأوروبا ، ص ٢٤٠ .

- عبدالمنعم ماجد، ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها فى مصر ـ التاريخ السياسى (الاسكندرية :دار المعارف ـ ط ٢ ـ ١٩٧٦) ، ص ص ٩١ - ٩٢

٤٥ـ رمضان ، الصراع بين العرب وأوروبا ص ٢٤٠ .

العنيفة بين الفاطميين وأمويّ الأندلس فى خطين متوازيين ، أما الخط الأول فكان خط المواجهة المعنوية حيث أعلن عبدالرحمن نفسه خليفة عام ٣١٦ [٤٦] ليقف على قدم المساواة مع الفاطميين الذين أعلنوا أنفسهم خلفاء المسلمين متحدّين بذلك شرعية الخلافة العباسية ، وعلينا أن نتذكر أن أمويّ الأندلس - رغم عدائهم العميق للعباسيين - ظلوا يحكمون الأندلس ثمانين عاما دون أن يدعوا لأنفسهم حق الخلافة ، بل وكان الصراع بينهم وبين العباسيين ذا طابع سياسى صرف ، ولم يزج بالمعانى الدينية والرموز المعنوية فيه، وهذا يوضح لنا عمق الخطر الذى شكله الفاطميون ، فلقد دفع قربهم الجغرافى من الأمارة الأموية بالأندلس وتحديهم للقوى الإسلامية على الساحة باستخدام أسلحة معنوية لها تأثير كبير فى صفوف العامة ، نقول دفع هذا بالأمويين إلى أتخاذ الخطوة التى احجموا عن أتخاذها قرابة قرنين من العداء مع العباسيين ولقد كان لهذا آثار وخيمة على الوحدة الروحية للأمة الإسلامية التى أضحت يتنازعها ثلاثة خلافات كل منها يدعى الشرعية بما يتبع ذلك من صراعات سياسية بين الأنظمة الثلاثة تصل حدا بعيدا من العنف والضراوة لاكتسابها معان معنوية تغلف بها الخلافات السياسية .

أما المستوى الثانى للصراع بين الأمويين والفاطميين فكان هو المستوى العسكرى فلقد حرص الناصر - مع قرب الخطر الفاطمى جغرافيا منه - على أن يعيد بناء قوته العسكرية بعد ما كان قد اصابها من وهن أثناء فترة حكم دويلات الطوائف ، ولقد اهتم الناصر بتقوية الأسطول خاصة حيث يصل مضيق جبل طارق الأندلس بشمال أفريقيا حيث استقر الفاطميون ، وهكذا بدلا من أن يوجه الناصر أنظاره للشمال إلى الأطراف الأوروبية غير المسلمة ، فإنه ركز جل انتباهه على حدوده البحرية الجنوبية من حيث يمكن أن يأتى الخطر الفاطمى ، فكان أنشغاله بتحصين الثغور الأندلسية الجنوبية المواجهة للمغرب عظيما ، وبدلا من أن يقوم بالفتح فى أراضى أوربا أو على الأقل مساعدة أطراف اسلامية أخرى على هذا ، قام باحتلال ثغور الساحل المغربى المواجهة للأندلس - وهى أرض اسلامية - فأحتل مدينة مليلة عام ٣١٤ /٩٢٧ ومدينتى سبته وطنجة عام ٣١٩ ، ثم أنه أيضا بدلا من استغلال الخلافات الداخلية فى الممالك المسيحية لتحقيق مكاسب للأندلس الإسلامية فإنه عمل على استثمار الأوضاع الداخلية فى المغرب الاسلامى بغرض أضعاف الخلافة الفاطمية أثار قبائل البربر ضدهم ، كما اصطنع الأمراء الأدارسة وألبهم على الفاطميين مستغلا نقمتهم عليهم لتقليص نفوذهم وقصره على المناطق الجبلية الشمالية [٤٧]

٤٦ - حسن أبراهيم حسن ، تاريخ الدولة الفاطمية فى المغرب ومصر وسوريا وبلاد العرب (القاهرة :مكتبة النهضة المصرية ، ط٣ ، ١٩٦٤)ص ٢٤٩

٤٧ - المرجع السابق ، ص ص ٢٤٨ - ٢٤٩ .

- رمضان ، الصراع بين العرب وأوروبا ، ص ص ٢٤٠ - ٢٤١ .

ولقد كرست سياسات الفاطميين العدائية تلك ومحاولات القضاء على القوى الإسلامية الأخرى للتفرد بزعامة العالم الاسلامى نمطا للعلاقات بين المسلمين وغير المسلمين كان له آثار سلبية وخيمة على مركز دولة الإسلام فى الساحة الدولية . هذا النمط هو سعى طرف اسلامى للتحالف مع طرف غير إسلامى ضد طرف إسلامى آخر . فالدولة الأموية فى الأندلس ـ مدفوعة بالخطر الفاطمى ـ سعت إلى التحالف مع الدولة البيزنطية بل وحتى مع القوى الأوروبية المعادية للفاطميين بل والمتوجسة من خطرهم ، فنجد الدولة الأموية تتفاهم مع البيزنطيين على أن لاتتدخل إلى جانب المسلمين فى أى قتال للبيزنطيين معهم بل تلتزم جانب الحياد ، وكان المفهوم أن المقصود بالجانب الإسلامى هنا هو الفاطميون حيث كان الأمبراطور البيزنطى يخطط لاستعادة صقلية التى آل حكمها للفاطميين بعد قضائهم على الأغالبة ثم أن الأمويين تحالفوا مع ملك ايطاليا الذى كان يخطط لقتال الفاطميين لتخريبهم إحدى مدنه الساحلية[٤٨] .

ثم تطور أمر المواجهة بين الفاطميين وأمويُ الأندلس إلى حد القتال المسلح المباشر حيث اشتبكت القوتان الاسلاميتان فى معارك حربية ابتداء من عام ٣٤٠ خاصة بلغت حدا من العنف جعله بعض المؤرخين السبب المباشر فى عقد الفاطميين العزم على ضرورة صرف النظر عن المغرب والتوجه إلى المشرق لفتح مصر وماورائها [٤٩]، ولكن استقراء أحداث التاريخ لايرجح هذا الرأى ذلك أن محاولات الفاطميين فتح مصر بدأت مبكرة جدا منذ الأيام الأولى لدولتهم هناك حيث خرجت أولى حملاتهم التى تتابعت بعد ذلك على مصر عام ٣٠١ أى بعد تأسيس دولتهم فى المغرب بأربع سنوات فقط ، والثابت أن الفاطميين منذ أن وضعوا أقدامهم فى أفريقية وهم يخططون للتوسع شرقا وغربا على حد سواء ، وإن التوسع فى الخطين سار متوازيا ، وكما استعدى توسعهم غربا أموى الأندلسى عليهم فإن توسعهم شرقا فجر مخاوف الدولة العباسية التى كانت قد نجحت فى إسقاط الدولة الطولونية فى مصر فى ذلك الوقت ٢٩٢ /٨٦٨ ولما لم تقم الدولة الإخشيدية فى مصر حتى عام ٣٢٣ ، فانه فى الفترة من ٣٠١ ـ تاريخ أول حملة فاطمية على مصر و ٣٢٣ تاريخ قيام الدولة الأخشيدية وقع عبء مواجهة ضغط الفاطميين على مصر على الخلافة العباسية مباشرة ودون وكالة ، ولقد نجحت بالفعل فى رد الحملات الفاطمية التى أرسلت على مصر أعوام ٣٠١ و ٣٠٧و ٣٢١ .

٤٨ ـ المرجع السابق ، ص ٢٤١ .

ـ رمضان ، الصراع بين العرب وأوروبا ، ص ص ٢٤٠ ـ ٢٤١ .

٤٩ ـ رمضان ، الصراع بين العرب وأوروبا ، ص ص ٢٤١ ـ ٢٤٢ .

أما القائد العسكرى الذى نجح فى صد الحملة الأخيرة - والتى كانت أخطرهم - فكان محمد بن طغج الأخشيدى الذى أرسله العباسيون واليا على مصر من قبلهم فنجح فى الاستقلال بها عام ٣٢٣، وفى اختبار للقوة أرسلت الدولة الفاطمية سريعا حملة إلى مصر عام ٣٢٤ لاختبار مدى قوة الدولة الوليدة ولقد نجح الأخشيدى فى صدها أيضا (٥٠)

ولقد خدمت الظروف الأخشيدى فى السنوات القليلة التى تلت هذا الاعتداء الفاطمى على دولته بان أنشغل الخليفة الفاطمى المنصور بن القائم بأمر الله بضبط الأمور الداخلية فى المغرب عن القيام بهجمات جديدة ضد مصر ، فأتفق الأخشيدى مع الحمدانيين - كما سبق بيانه - على أن يطلق الأخشيديون يد الحمدانيين فى شمال الشام لاينازعونها فيه فيأمنوا من ثم خطر الحمدانيين وكذا البيزنطيين على حدودهم الشمالية ويتفرغوا لمواجهة الخطر الفاطمى الآتى من الغرب .

والمثير فى أمر هذا الاتفاق أن الأخشيديين لم يسعوا إلى وقف نزاعهم مع الحمدانيين ومنازعتهم ملكهم فى الشام إلا عندما ظهر طرف يهدد ملكهم هم فى مصر ورغبتهم فى التفرغ لمواجهته . والجدير بالانتباه أن هذا الطرف الذى عدوه خطيرا يستوجب التفرغ لمجابهته كان طرفا إسلاميا (الدولة الفاطمية) ، فى حين أنهم لم يسعوا للتوصل إلى مثل هذا الاتفاق مع الحمدانيين والخطر البيزنطى كامن على البوابة الشمالية لدار الإسلام ، وهذا يوضح مرة أخرى سيادة الروح الانعزالية وتقديم المصالح الخاصة ، فخوف الأخشيديين على ملكهم الخاص فى مصر من الخطر الفاطمى القريب دفعهم إلى السعى لوقف الصراع مع الحمدانيين ، أما الخطر البيزنطى البعيد عنهم فى الشمال فلم يحسبوا حسابه وهم يشغلون الحمدانيين عنه بالكر والفر لأنه وإن كان يهدد جزءا من دار الإسلام ، فهذا الجزء لايسيطرون عليه هم فهو ملك حمدانى وليس ملكا اخشيديا ولم يقدروا أنه أرض اسلامية قبل أى شىء فالخطر الفاطمى على أخشيد مصر كان هو السبب أذن الذى أدى إلى تفاهم الأخشيديين مع الحمدانيين ، وكان من نتيجة هذا التفاهم أن وقع عبء حماية بوابة الأمة الشمالية الإسلامية من الخطر البيزنطى على الدولة الحمدانية فى الشام والموصل والجزيرة الفراتية . ولم يكن هذا بالعبء السهل فلقد استغل البيزنطيون سنوات الصراع بين الحمدانيين والأخشيديين فاغاروا عام٣٣١ /٩٤٢ على دارا ونصيبين وميافارقين وقاربوا حلب ذاتها ، وفى العام التالى دخلوا رأس العين من أكبر مدن بلاد الجزيرة ، ثم دخلوا الرها عام ٣٣٣ /٩٤٣ مدللين على أن يدهم هى العليا

---

٥٠ - حسن ، تاريخ الدولة الفاطمية ،ص ص ١٢٢ - ١٢٥ .

- ماجد ، ظهور الخلافة الفاطمية ، ص ص ٩٣ - ٩٩ .

بنقلهم بعض متعلقات السيد المسيح من كنيسة الرها إلى القسطنطينية فى موكب عظيم مر بالأراضى الإسلامية فى طريقه إلى حاضرة ملكهم[٥١]، وهكذا ما أن يستتب الأمر للحمدانيين فى الشام باتفاقهم مع الأخشيديين فسيبدأون فى المهمة الصعبة الموكلة بهم وسينجحون بالفعل بعد سنوات طويلة من فر المسلمين أمام كر البيزنطيين من أن يقفوا لهم على قدم المساواة فيدور الصراع بينهما على الأقل سجالا كما سنرى فى المبحث التالى .

المبحث الثانى

الدور الفاطمي والدور الأموى بديلاً عن الدور العباسى وعلاقات القوى الإسلامية - المسيحية

كانت السمة الأساسية للنصف الأول من العصر العباسى الثانى هو أنه كان مرحلة تكوين وتشكيل خريطة جديدة للقوى الإسلامية ، فظهرت قوى جديدة اختفت قوى كانت قائمة ، واستتبع ذلك بالضرورة إجراء توازنات جديدة عن طريق شبكة من التحالفات داخل العالم الإسلامى بين أطرافه ثم بين بعض الأطراف الإسلامية من جانب والقوى غير الإسلامية من جانب آخر. ولكن بعد مرحلة التكوين تأتى مرحلة التنفيذ . وهكذا سوف يشهد النصف الثانى من العصر العباسى الثانى نتائج التفاعلات التى تمت وفقا لخريطة القوى والتوازنات الجديدة تلك .

المطلب الأول : استمرار اختلال ميزان القوى فى المشرق الإسلامى لصالح الدولة البيزنطية فى ظل السيطرة البويهية والسلجوقية :

رأينا كيف أدى ترتيب توازنات القوى فى نهايات عصر سيطرة الأتراك بين الحمدانيين والأخشيديين إلى وقوع العبء الأساس فى صد المد البيزنطى على الحمدانيين ابتداء خاصة من عام ٣٣٢ وهو عام عقد الاتفاق بينهم وبين الأخشيديين على ترك الاخيرين شمال الشام للحمدانيين والاكتفاء بفرض سيطرتهم على الأجزاء الجنوبية من أقليم الشام المتاخمة لمركز دولتهم فى مصر .

ولقد كان خطر البيزنطيين الذى وصل وقت عقد هذا الأتفاق حدا لايمكن التغاضى عنه هو الدافع الأساسى من وجهة نظر العديد من المؤرخين وراء أدراك الحمدانيين والأخشيديين ضرورة الوصول إلى صيغة اتفاق تنهى الصراع بينهما وتمكن من مواجهة الخطر البيزنطى . فلقد كان البيزنطيون قد أغاروا فى هذه الفترة على ارزن

---

٥١ - رمضان ، الصراع بين العرب وأوروبا ، ص ٢٣٢ .

وميافارقين ونصيبين ورأس العين وخربوها ، بل واستطاعوا استرداد مناطق هامة وفرضوا هيبتهم وسطوتهم في المنطقة فاختل ميزان القوى بشدة لصالحهم (٥٢) .

وهكذا ما أن استقر الأمر في الشام لسيف الدولة الحمداني وجعل من حلب عاصمة لملكه هناك حتى بدأت سلسلة لاتنقطع من المواجهات المسلحة بين المسلمين والبيزنطيين ابتدأها البيزنطيون بتوجيه حملة كبرى على الشام وسيف الدولة ما كاد يستقر بعد هناك ، ولقد حرص سيف الدولة الحمداني على أن يبتعث تقاليد الجهاد الإسلامي السنوى في أراضي العدو فلم يكد يمر عام واحد طوال عشر سنوات تقريبا (حتى عام ٣٤٨م) دون وقوع مواجهة بين الجانبين (٥٣) .

ورغم أن الصراع كان يدور سجالا بين الحمدانيين والبيزنطيين إلا أن مجرد تبادل الجانب الإسلامي النصر والهزيمة مع الجانب البيزنطي كان يعد أنجازا كبيرا بمقاييس القوة ومعايير الظروف الداخلية السائدة في كلا الجانبين في ذلك العصر ، ويمكننا تقدير مدى الانجاز الذى حققه الحمدانيون في مواجهة البيزنطيين بالمقارنة بالفترة السابقة في العصر العباسي الثاني من أن البيزنطيين ـ مثلهم مثل الحمدانيين ـ ظنوا أنهم لن يظهروا على خصمهم بشكل حاسم أبداً فبدأوا في تحصين الثغور وتقوية الحدود ليقيموا داخلها كما عملوا على اقطاع الجند الأراضي في مناطق الحدود ليستقروا بها ويحموها (٥٤)

ولكن سرعان ما بدأ ميزان القوى يميل ميلا واضحا لصالح الدولة البيزنطية عندما نجحت في تكوين جيش ضخم من الروس والبلغار والخزر استخدموه في شن غارات مكثفة ومتوالية على الشام متوغلين بشدة إلى الداخل ، واذا كان سيف الدولة استطاع أن يصد هجمتهم الأولى ، إلا أن عجزه بدأ واضحا أبتداء من غزوة البيزنطيين على الشام عام ٣٤٨هـ /٩٥٩م التي خربوا فيها حصن الهارونية الذى كان بناه هارون الرشيد ووصلوا إلى ميافارقين (٥٥)ولقد كان من الآثار الوخيمة لعجز الحمدانيين عن التصدى بقوة لهذه الحملة أن تشجع البيزنطيون على غزو كريت عام ٣٥٠ ـ ٩٦٠ بغرض استرجاعها ونجحوا بالفعل في تحقيق ذلك بعد أن ظلت هذه الجزيرة مستعصية على حملاتهم المتوالية منذ العصر العباسي الثاني كما رأينا وبعد أن ظلت وحدها صامدة في شرق البحر المتوسط بعد أن سقطت لهم كل جزره وكانت بحق

---

٥٢ ـ شاكر ، التاريخ الاسلامي :الدولة العباسية، ج٢، ص ص٢٥٥ ـ ٢٥٦ .

- حسن ، تاريخ الإسلام ، ج٢ ، ص ١٢١ .

٥٣ ـ المرجع السابق ، ص ص ١٢١ ـ ١٢٢ ، ٢٣٦ .

- رمضان ، الصراع بين العرب وأوروبا ، ص ص ٢٣٢ ـ ٢٣٣ .

٥٤ ـ رمضان ، الصراع بين العرب واوروبا ، ص

٥٥ ـ شاكر ، التاريخ الاسلامي:الدولة الاسلامية، ج٢،ص ص١٥٩ ـ ١٦٢ .

قاعدة منيعة للمقاومة الاسلامية فى هذه المنطقة وبالاضافة إلى الأثر السيىء لسقوط هذه الجزيرة بعد الصمود الطويل ، فان الآثار المادية لسقوطها كانت وخيمة أيضا حيث هى مفتاح البحر المتوسط الشرقى ومن يسيطرعليها يتحكم فى الجزء الشرقى من حوض المتوسط ويتسيد عليه تماما [٥٦]. ويجدر هنا الاشارة إلى أن افتقاد المسلمين للإحساس بمعنى وضرورة التناصر فى أحداث هذه الفترة كان حاسما فى الحد من قدرتهم على التعامل مع القوى غير الاسلامية بصورة فعالة وبالتالى على قدرتهم فى الأحتفاظ بموقع مؤثر على خريطة التوازن الدولية ، فبداية يلحظ المؤرخون أن عدم قدرة الحمدانيين على الأستمرار فى الصمود للبيزنطيين إنما يرجع إلى تحملهم وحدهم ولسنوات طويلة متصلة عبء التصدى لضربات قوية متواصلة من قوة دولية عظمى كانت تخبر وقتها عصرا من أزهى عصور قوتها دون أن تتلقى أى مساعدة من المركز الذى وصل حدا أدنى من التدهور والانحلال بسيطرة بنى بويه عليه منذ ٣٣٤ ولامن الدويلات المستقلة التى انشغلت بمواجهة بعضها البعض (أخشيديين / فاطميين ، أموى الاندلس) عن أدراك حتمية التكتل فى مواجهة الخطرالمحدق بدار الإسلام أو حتى بضرورة تقديم العون للقوة التى يقع عليها عبء المواجهة المباشرة [٥٧] . ولم يتحرك الأخشيديون لارسال المدد إلا عندما سقطت حلب ذاتها ، فكان الوقت متأخرا جدا ، بل وربما كانوا قد تحركوا فى ذلك الوقت خوفا فقط من سقوط الدولة الحمدانية وهى الحصن المنيع الذى يكفيهم مؤونة مواجهة البيزنطيين .ولقد طلب الحمدانيون العون صراحة من القوى الإسلامية التى يمكن أن تساعدهم ، وكان أن استجاب السامانيون فى خراسان وأرسلوا نجدة عاجلة إلى الحمدانيين لتساعدهم فى صد الخطر البيزنطى ، ولكن بدلا من أن يستغل الحمدانيون تلك النجدة فى غرض الجهاد أرادوا استخدامها فى محاربة خصومهم أمراء بنى بويه ، وعندئذ خمدت حماسة الخراسانيين وعادوا أدراجهم دون أن يشتركوا فى القتال ، وهكذا ثبت أن الخلافات المذهبية والداخلية بين أمراء المسلمين كانت أعمق فى بعض الأحيان من أن تؤلف بين قلوبهم لمواجهة الخطر غير الاسلامى ، وفى ضوء هذه الانقسامات يمكن أن تنسى الانتصارات التى أحرزها البيزنطيون.

ويصدق نفس الشىء وربما بصورة أوضح على سقوط كريت حول ذات الوقت ، فان حاكم كريت أدرك عدم مقدرته على التصدى بقواته الخاصة منفردا للحملة البحرية من الأمبراطورية البيزنطية فأرسل يستنجد بالمسلمين شرقا وغربا ، ولكن لم يرد اليه الا

---

٥٦ ـ المرجع السابق ، ص ١٥٥.
– حسن ، تاريخ الإسلام ، ج٣ ،ص ٢٣٦.
– رمضان ، الصراع بين العرب وأوروبا ، ص ٢٢٣.
٥٧ ـ المرجع السابق ، ص ٢٢٣.

مددلايكاد يذكر من طرسوس شرقا ومن أفريقية غربا قضى عليه البيزنطيون فى البحر قبل أن يصل كريت ، وهكذا ضاعت كريت مفتاح حوض المتوسط الشرقى من المسلمين. (٥٨)

وعندما أراد سيف الدولة الحمدانى الانتقام لهزائمه ، هُزِّم مرة أخرى وظهر مدى وهنه ففتحت هزيمته الأخيرة تلك ، الباب أمام البيزنطيين لفتح قاليقلا عام ٣٥٢هـ / ٩٦٢م ثم عين زربى مفتاح الشام فى نفس العام بل وعلى خمسين بلدا وحصنا فى غضون أيام قليلة من نفس العام ، ثم كان حصار حلب ذاتها - الذى ذكرناه عاليا والذى روع الأخشيديين مع الحمدانيين - ثم أقتحامها واحتلالها فى نفس العام أيضا فكان بمثابة الضربة القاضية الموجهة لهيبة الدولة الحمدانية بضرب وأحتلال حاضرتها. واذا كان البيزنطيون قد اضطروا إلى الأنسحاب فى مواجهة مقاومة أهل حلب العنيفة ، فان أثر سقوطها هذا - ولو إلى حين - كان بالغا على مصير الدولة الحمدانية حيث ثارت حلب وانطاكية ولم يتم أخضاعها إلا بصعوبة ، وبدأت الفتن الداخلية - كما كانت دائما - معول هدم لأى محاولة خارجية جادة ، فأثناء انشغال سيف الدولة الحمدانى بالثورات الداخلية عليه نتيجة فقدانه مصداقيته أمام شعبه جانت فرصة ذهبية متمثلة فى اضطراب الأحوال الداخلية فى الدولة البيزنطية أثناء انتقال الحكم من رومانوس إلى نقفور فتقدم على عجل ودون تأمين لجبهته الداخلية لسيتعيد عين زربى والمصيصة ولكن لم يمر كثير حتى أستردها البيزنطيون ثانية ، فعجلة التاريخ كانت قد دارت على الدولة الحمدانية وما كان لها أن تتوقف ، وتقدم البيزنطيون أكثر وفتحوا مدنا وحصونا عدة حتى استعادوا قاليقلا كلها بعد أن بقيت ثلاثة قرون فى يد المسلمين وتمموا هذا بالاستيلاء على قبرص(٥٩)، وبعد وفاة سيف الدولة عام ٣٥٦ /٩٦٧ كثف البيزنطيون من ضغوطهم فانتزعوا أنطاكية عام ٣٥٨ /٩٦٩ بعد ثلاثمائة عام من السيادة الاسلامية ثم اسقطوا حلب بعد شهر واحد من سقوط أنطاكية (٦٠)

ويبدأ مع عملية سقوط حلب نمط آخر من أنماط التفاعلات الاسلامية / غير الاسلامية سيكتسب قدرا كبيرا من الثبات فى العهود التالية وسيظهركثيرا فى أوقات الضعف والتحلل والتفكك السياسى وهذا هو عامل الخيانة على الجانب الإسلامى ، صحيح أننا رأينا هذا قبلا فى أيام قوة الدولة الاسلامية وتماسكها ولكنه كان مقصوراً على تحالف الطرف غير الإسلامى مع ثائر أو متمرد داخل الدولة الاسلامية من مثل مساعدة الروم لصاحب الخرمية أيام المعتصم كما سبق بيانه .

---

٥٨ - شاكر ، التاريخ الاسلامى:الدولة العباسية، ج٢، ص ص١٥٩ - ١٦٢

٥٩ - رمضان ، الصراع بين العرب وأوروبا ص ٢٢٤ .

٦٠- حسن ، تاريخ الإسلام ، ج٣ ، ص ص ٢٣٦ - ٢٣٧.

ولكن فى سقوط حلب - وهو ما سنراه بعد ذلك كثيرا - تأتى الخيانة من قائد مسلم أراد أن يكون صاحب الأمر والنهى فيها يستأثر بأمرها دون سعد الدولة بن سيف الدولة ومن ثم اتفق مع البيزنطيين على تسليمها لهم مقابل وعدهم له بأن يبقوا عليه حاكما من قبلهم ، وكانت شروطهم التى أملوها عليه وقبلها صاغرا والتى ما وضعوها إلا ليثبتوا أن أيديهم هم هى العليا وليست يد المسلمين حتى لو كان عاملها مسلما، هى أن يدفع المسلمون فى حلب الجزية للروم وأن يعفى المسيحيون فيها من دفع أى مال للمسلمين ، أما الأمور المالية للإمارة مثل جباية الجمارك فتقوم عليها لجنة مختلطة تضم إلى جانب المسلمين من أهل حلب ممثلين من البيزنطيين ، ولقد بلغ من تردى حال المسلمين أن سعد الدولة ابن سيف الدولة المجاهد المسلم ضد الخطر البيزنطى والذى تمكن من دخول حلب والقضاء على الخائن الذى سلمها لم يجد بدأ من القبول بنفس شروط الاذلال التى وقعها الخائن قبلا (٦١)

ولقد استؤنف المد البيزنطى مع مجيء الامبراطور تزيمكس الشمشقيق الذى خلف نقفور والذى تحالف مع ملك أرمينيا وتقدم معضدا بهذا الحلف ليستكمل فتح الشام كله من سلسلة من الحملات المتصلة بدأت عام ٣٦٣ /٩٧٤ استولى خلالها على آمد ونصيبيين وطبرية وقيسارية والناصرة والقدس والرملة وعكا وصيدا وبيروت وجبيل وأدخل أمير الموصل الحمدانى فى طاعته ، وكذا دمشق التى قبلت بوجود حامية بيزنطية بها ودفعت الجزية للروم البيزنطيين (٦٢). ومن الهام أن نشير هنا إلى أن بعض المؤرخين يؤكدون أن فى متابعة خط سير حملات تزيمسكس ما يوضح أنها كانت ارهاصات مبكرة للحروب الصليبية التى ستأتى إلى الشرق بدعوة من الامبراطور البيزنطى بعد نصف قرن تقريبا فهدف تزيمسكس الواضح من حملاته تلك هو أسقاط الخلافة العباسية وأحتلال فلسطين والأستيلاء على بيت المقدس ولقد استخرجت حملات تزيمسكس الخطيرة من العامة نفس رد الفعل الذى اظهرته عند استشعارها بالخطر وفقدان الأمن عندما نجح الروم البيزنطيون فى القضاء على أميرى طرسوس وملطية فانفتحت ثغرة خطيرة فى خط الدفاع عن أراضى الدولة ، كما سبقت الإشارة فى بداية المطلب الأول من هذا المبحث ، وأيضا عندما سقطت حلب عام ٣٥٢ /٩٦٢(٦٣) .

ويهمنا هنا رد فعل الخليفة لثورة العامة فى بغداد يطالبونه بالقيام بواجبه فى الذود عن حمى الدولة وفى حمايتهم ، فالخليفة فى كل الحالات أظهر عجزا عن القيام بهذا الواجب ، واذا كان هذا العجز قد فهم ضمنا فى حالة قضاء البيزنطيين على

---

٦١ - رمضان ، الصراع بين العرب وأوربا ص ٢٣٥.

٦٢ - المرجع السابق ، ص ص ٢٣٥ - ٢٣٦ .

- حسن ، تاريخ الإسلام ، ج٣ ، ص ص ٢٣٧ - ٢٣٨ .

٦٣ - رمضان ، الصراع بين العرب وأوربا ، ص ٢٣٥ .

أميرى طرسوس وملطية حيث ذكرنا سابقا أن أهل اليسار، وليس الخليفة ، تبرعوا بالمال اللازم لتجهيز الجيوش التى يمكنها صد المد البيزنطى ، فإن عجز الخليفة لم يعد مفهوما ضمنيا وحسب بل صرح به خاصة فى الحالة الأخيرة ويجدر بنا هنا أن نورد نص مقالة الخليفة العباسى المطيع عند مطالبته الدفاع عن الدولة والتصدى للبيزنطيين حيث قال "إنما يلزمنى الغزو إذا كانت الدنيا فى يدى وإلىّ تدبير الأموال والرجال، وأما الآن وليس لى منها القوت القاصر عن كفائى وهى فى أيديكم (يقصد البويهيين) وأيدى أصحاب الأطراف، فما يلزمنى غزو ولاحج ولاشىء مما تنظر الأئمة فيه ، وإنما لكم منى هذا الأسم الذى يخطب به على منابركم ، تسكنون به رعاياكم ، فإن أحببتم أن اعتزل عن هذا المقدار أيضا وتركتكم والأمر كله " [٦٤].

وهذه الكلمات القصيرة لتلخص فى بلاغة منقطعة النظير الوضع الداخلى كله وأثره على قدرة الدولة العباسية على التعامل مع محاولات التجرؤ عليها من الأطراف الدولية فرأس الدولة لايملك شيئا فى الدولة فهو لايعدو كونه موظفا شرفيا لدى البويهيين يتقاضى أجرا منهم لتمثيل دور الرمز المعنوى الذى يحتاجونه لتبرير وجودهم فى السلطة ولاضفاء شرعية على تسييرهم شئون الحكم ، وبالتالى فان الجهاد بل وحتى الحج ، فى اشارة إلى أمور الدين والدنيا معا لايلزمه بل يلزما أصحاب السلطة الحقيقيين - أى البويهيين وأمراء الولايات المستقلة - فإذا كان هناك تقصير فليحاسبا هم عليه وليس الخليفة الرمز .

وإذا كان سقوط الدولة الحمدانية فى شمال الشمال محطة خطيرة فى مجال العلاقات الاسلامية البيزنطية حيث أنه ترك بوابة الدولة الاسلامية من الشمال مفتوحة أمام البيزنطيين ، فإن خطورة هذا الحدث تضاعفت إذا تذكرنا أن جنوب الشام أيضا كان قد خرج حول نفس الوقت من أيدى الأخشيديين إلى القرامطة ، فبعد موت كافور الأخشيدى عام ٣٥٧ / ٩٦٨دب الضعف فى أوصال الدولة الأخشيدية وتغلب عليها القرامطة فساد الاضطراب والفوضى فى جنوب الشام كما ساد شماله ، وهكذا حدث فراغ قوة مؤثر فى المشرق الإسلامى فى منتصف القرن الرابع الهجرى /العاشر الميلادى كان ينذر بخطر جسيم على دار الإسلام خاصة مع تمتع الدولة البيزنطية بالازدهار ، ولكن وفى هذا الوقت بالتحديد كانت الدولة الفاطمية التى تأسست فى أفريقيا على أنقاض دولة الأغالبة فى نهايات القرن الثالث الهجرى / التاسع الميلادى قد ثبتت أقدامها هناك وأخذت مصر لتنجح فى تحقيق حلمها القديم فى السيطرة عليها عام ٩٦٩/٣٥٨ ولتشغل بتمكن فراغ القوة الهائل فى المشرق ولتعيد أعتدال الميزان الذى كان قد أختل لصالح البيزنطيين [٦٥] .

---

٦٤ - واردة فى المرجع السابق ، ص ٢٣٦ .

٦٥ - حسن ، تاريخ الإسلام ، ج٣ ، ص ص ١٤١ - ١٤٢ .

-- حسن ، تاريخ الدولة الفاطمية،ص ص ١٢٨، ١٢٩، ١٣٥ - ١٣٨ .

المطلب الثانى : تقدم الدولة الفاطمية لشغل فراغ القوة فى المشرق الإسلامى فى مواجهة الدولة البيزنطية بعد قضائها على الدويلات الإسلامية المنافسة .

فى نفس العام الذى توفى فيه كافور الأخشيدى لتهتز دولته ويقع جنوب الشام للقرامطة ٣٥٧هـ /٩٦٨م ، كان الفاطميون يجهزون حملة بقيادة جوهر الصقلى للتوجه شرقا ، وهى فى نفس عام سقوط حلب بالخيانة للبيزنطيين وضياع شمال الشام (٣٥٨هـ /٩٦٩م) خرجت الحملة بالفعل من القيروان ودخلت الفسطاط مارة فى طريقها ببرقة والاسكندرية فأزالت الدولة الأخشيدية وأسست الدولة للفاطميين فى مصر . وفى العام التالى ٣٥٩ / ٩٧٠خرجت حملة فاطمية من مصر لفتح الشام وضمه ، فبالاضافة إلى العوامل التى كانت تدفع حكام مصر دائما إلى العمل على توحيد جبهة الشام ، فإن الشام كان يمثل بالنسبة للفاطميين الباب المؤدى إلى العراق، مقر الخلافة العباسية التى كانوا يهدفون إلى اسقاطها وليس مجرد الانفصال ببعض الأقاليم عنها .(٦٦)

ولقد واجه الفاطميون فى توجههم شرقا إلى الشام قوتين اسلاميتين كان على الفاطميين ضرورة التخلص منهما أولا قبل التفرغ للدولة العباسية ، هاتان القوتان هما الحمدانيون فى شمال العراق والقرامطة فى جنوبه . ولقد دارت المعارك سجالا ولفترة ليست بالقصيرة بين الفاطميين من جانب وكل من الحمدانيين والقرامطة من جانب أخر، ولقد نجح الفاطميون بالفعل فى الاستيلاء على دمشق عام ٣٥٩هـ /٩٧٠م وهم بهذا كانوا يعدون أنفسهم لتولى الدور الذى يقع على كاهل أى قوة تسيطر على الشام خاصة ومصر بالاضافة اليها وهو مواجهة البيزنطيين وحماية بوابة العالم الإسلامى الشمالية منهم ولكن أنشغال الفاطميين بمعاركهم مع أطراف اسلامية أخرى - نعنى القرامطة والحمدانيين - لفتهم عن التصدى للبيزنطيين ولم يتح لهم الوقت والجهد الكافيين لمحاولة أجلائهم واسترداد ما وقع فى أيديهم من أراضى الإسلام خاصة فى مدن الشام وقت فراغ القوى الذى سبق مقدم الفاطميين إلى المشرق مباشرة ، وبدلا من أن يتعاون الفاطميون مع الحمدانيين ويشدوا من أزرهم فى تصديهم للبيزنطيين فيحولون الصراع من السجال إلى التفوق لصالح قوى الإسلام ، فإنهم كرسوا جهودهم لدحر الحمدانيين(٦٧)

ولقد استطاع الفاطميون أن يقضوا على خطر القرامطة ويجلوهم عن جنوب الشام فى موقعة فاصلة عام ٣٦٧ /٩٧٧ هُزِم فيها أيضا القائد التركى أفتكين المرسل من قبل

٦٦ - المرجع السابق ، ص ص ١٤٠-١٤١ ، ١٥١ - ١٥٢ .

- رمضان ، الصراع بين العرب وأوربا ،ص٢٤٤.

٦٧ - المرجع السابق ، ص ٢٤٥ .

الخليفة العباسى لقتال الفاطميين والذى كان قد نجح قبل انهزامه فى هذه المعركة بسنوات ثلاث فى أن يدخل دمشق ويرفع الدعاء فيها مرة أخرى للخليفة العباسى (٦٨)

وبنجاح الفاطميين فى القضاء على القرامطة أزاحوا قوة هامة كانت تناوئهم الاستقرار فى الشام، وبهزيمتهم القائد التركى حيدوا تدخل الدولة العباسية فى صراع ضدهم ، وبدلا من أن يتوجهوا إلى البيزنطيين بعد أن استتب لهم الأمر فى الداخل فانهم وجهوا أهتمامهم إلى القضاء على الدولة الحمدانية التى كانت مازالت قائمة رغم تمكن عوامل الضعف منها كما ذكرنا قبلا ، فأرسل الخليفة الفاطمى العزيز حملة حاسمة عام ٣٨٤هـ / ٩٩٤م على الدولة الحمدانية بلغ من ضراوتها أنها ألجات الأمير الحمدانى إلى الأمبراطور البيزنطى يطلب معونته ضد الفاطميين المسلمين فى محاولة يائسة للابقاء على دولته فى مواجهة خصم اسلامى ولنواجه مرة أخرى بنفس النمط للتفاعلات الدولية الذى زخر به التاريخ الإسلامى فى عهود التفكك وهو تحالف طرف اسلامى مع طرف غير اسلامى ضد طرف اسلامى آخر. ولقد بلغ من اصرار الأمير الحمدانى على الحصول على مساندة البيزنطيين حدا دفعه إلى تخويف الأمبراطور البيزنطى من الخطر الفاطمى ملمحا له أن سقوط حلب هو الخطوة الأولى نحو سقوط انطاكية وأن سقوط الأخيرة ليس له إلا نتيجة واحدة وهو سقوط القسطنطينية .

فكان الأمير الحمدانى يحذر الامبراطور البيزنطى من الاحتمالات المستقبلية لتمكن قوة اسلامية من فتح أراض غير اسلامية وضمها إلى دار الإسلام، ولقد كان أقتناع الأمبراطور باسيلى الثانى بحجة الأمير الحمدانى عظيما حتى أنه قدم مساعدات ضخمة للدولة الحمدانية رغم انشغاله وقتها بحروب كبرى مع البلغار ورغم العداء العميق السابق مع الدولة الحمدانية ذاتها ، وكان الأمير البيزنطى قد قدر أنه من الأمن للدولة البيزنطية أن يتاخم حدودها مع العالم الإسلامى دولة ضعيفة مثل الدولة الحمدانية المتهالكة وليس قوة ناهضة مثل الدولة الفاطمية (٦٩)

ولقد كان هذا التحالف البيزنط / الحمدانى هو الشرارة التى اشعلت الصدام بين الدولة البيزنطية والدولة الفاطمية ، بعد أن كانت منشغلة حتى ذلك الحين بصداماتها مع القوى الاسلامية الأخرى فى المغرب والمشرق الاسلاميين. ولقد بدأ هذا الصراع سافرا خاصة بعد نجاح الدولة الفاطمية فى القضاء على الدولة الحمدانية عام ٤٠٤

---

٦٨ ـ المرجع السابق ، ص ٢٤٥ .

– محمد جمال الدين سرور :سياسة الفاطميين الخارجية (القاهرة :دار الفكر العربى ، ط٤ ، ١٩٧٧) ص ص ١٢٣ ـ ١٢٤ .

٦٩ ـ حسن ، تاريخ الدولة الفاطمية ، ص ص ٢٢٤ – ٢٢٧.

– رمضان ، الصراع بين العرب واوروبا ، ص ٢٤٦ .

رغم مساعدات الدولة البيزنطية لها ، واستمر هذا الصراع حتى قيام دولة السلاجقة ومجيئهم إلى بغداد عام ٤٤٧ /١٠٥٥[٧٠]، ولقد دارت الحرب بين الفاطميين والبيزنطيين سجالا ، فالخصمان كانا على درجة متكافئة من القوة ، ولقد أثبتت الدولة الفاطمية نفسها خصما عنيدا للدولة البيزنطية التى لم تختبر لفترة طويلة ، منذالعصر العباسي الثاني، الا مقاومات محدودة من بعض الدويلات الاسلامية المستقلة ، فكانت قد مضت فترة ليست بالقصيرة على مجابهتها لقوة اسلامية قوية مستكملة لأركان الدولة المادية والمعنوية .

وهكذا ورغم أن الصراع الممتد كانت تقطعه بالضرورة فترات هدنة إلا أنها كانت الهدنة المعقودة بين أنداد أكفاء وليست الهدنة المفروضة على الجانب الضعيف جزاء تخاذله وتهاونه . وليس أدل على أن الفاطميين عندما كانوا يبرمون الهدنة إنما كانوا يفعلون هذا من منطلق أنهم قوة عظمى حتى فى حال هزيمتهم الوقتية ، من أنهم كانوا لايترددون فى التصرف وفقا لما تمليه عليهم المصلحة الاسلامية حتى لو كان فى هذا التصرف نقضا لشروط الهدنة وتهديدا باستئناف القتال . فمثلا نجد الخليفة الحاكم بأمر الله يتشدد مع أهل الذمة استجابة لتذمر رعاياه المسلمين الذين أعلنوا تحفظهم على المعاملة المتميزة والأمتيازات التى حصل عليها أهل الذمة فى ظل عهود من التسامح فى عصر أسلاف الحاكم بأمر الله ، ولقد أدى هذا التشدد بالفعل إلى نقض هدنة كانت مبرمة واستئناف الصراع[٧١] . ثم أن الخليفة المستنصر نقض صلحا أبرمه مع الأمبراطور قسطنطين السابع عام ٤٤٦ / ١٠٤٥ يحصل بمقتضاه الفاطميون على الغلال لمواجهة المجاعة فلما طلبت الأمبراطورة تيودورا التى خلفته على العرش امداد الفاطميين لها بعسكر اذا ما ثار تمرد عليها مقابل الغلال ، رفض الخليفة الفاطمى وأرسل هؤلاء الجند ولكن لقتالها[٧٢] .

وجدير بالذكر أيضا أن الفاطميين فى حروبهم مع الدولة البيزنطية حرصوا على أن يحيوا العديد من المظاهر التى كانت موجودة أيام الجهاد الحقيقى فى عصور الأمويين والعباسيين الأوائل من مثل تقليد قيادة الخليفة بنفسه لقوات جيشه فى المعارك الهامة ، كما أنهم اهتموا بمظاهر القوة والعزم فى مواجهة العدو وكذا بمحورية دور الخليفة ومركزيته فنجد الخليفة العزيز يعزل قائد جيشه لأنه أنسحب من مهمة حربية هامة قدر ضرورة الأنسحاب منها، وذلك قبل أن تأتيه موافقة الخليفة ، ثم يأمر بإعادة بناء

---

٧٠ ـ سرور ، سياسة الفاطميين الخارجية ، ص ص٢٢٩ - ٢٤٨.

- حسن ، تاريخ الإسلام ،ج٣ ص ص ٢٣٩ - ٢٤٠.

- حسن ، تاريخ الدولة الفاطمية ،ص ص٢٥٧ - ١٦٢ .

٧١ ـ رمضان ، الصراع بين العرب وأوروبا ، ص ٢٤٧.

٧٢ ـ المرجع السابق ، ص ٢٤٨ .

أسطول كان قد أُحرِق عن آخره عشية الاستعداد للخروج فى حملة على أملاك البيزنطيين فى الشام[٧٣]. وتجدر الاشارة هنا إلى أن الحسم والعزم فى مواجهة البيزنطيين بعد نجاح الفاطميين فى القضاء على القوى الاسلامية المناوئة ليعد مبررا لدى كثير من المحللين لحروبهم ضد الأطراف الاسلامية حيث يجعلون رغبة الفاطميين فى توحيد دار الإسلام تحت رايتهم تمهيدا للحملة القوية على دار الحرب سببا كافيا ومقنعا لحروبهم مع الأطراف الاسلامية ولا يجدون وراء هذه المصادمات الاسلامية/ الاسلامية أطماعا شخصية أو تقديما لمصلحة خاصة على الجانب الفاطمى .

وبالاضافة إلى دور التصدى للدولة البيزنطية فى المشرق فلقد قامت الدولة الفاطمية بدور حاسم أيضا على ساحة التعامل الدولى فى المغرب الإسلامى وتمثل هذا أساساً فى ذودهم عن صقلية والحفاظ عليها مسلمة أمام محاولات الدولة البيزنطية لاستردادها فى فترة تعتبر من أزهى فترات ازدهار الدولة البيزنطية عسكريا . ففى الوقت الذى كان الفاطميون فيه منشغلين بتوطيد دعائم ملكهم فى المغرب ، كان البيزنطيون قد نجحوا فى تحييد قوة الدولة الحمدانية فى المشرق وبدأوا فى توجية اهتمامهم نحو أستعادة أملاكهم السابقة فى البحر المتوسط ، ورأينا أنهم نجحوا بالفعل فى الاستيلاء على كريت وقبرص ، ففرضوا حمايتهم على جميع المدن الساحلية فى جنوب ايطاليا ، وكان الدور قادما على صقلية فى سبيل تحويل البحر المتوسط إلى بحيرة رومانية مرة أخرى .

ولقد قرر الفاطميون الذود عن هذه الجزيرة ذات الموقع الفريد، خاصة وأنهم بعد قضائهم على دولة الأغالبة أضحت الجزيرة تابعة لهم رسميا حيث كانت تابعة قبلا لحكومة الأغالبة ، فلما أستنجد حاكم الجزيرة بالفاطميين لمواجهة حملة بحرية بيزنطية نمت أخبارها اليه عام ٣٥٣ / ٩٦٣ نصروه فى الحال دون تقاعس وأمدوه بأسطول ضخم، ولقد بلغ من سرعة أستجابة الخليفة الفاطمى لطلب النصرة هذا ، أن وصل الأسطول الإسلامى إلى صقلية قبل وصول الأسطول البيزنطى الذى كان قد ابحر قبلا فى طريقه اليها ، ووقعت المعركة بين الأسطولين وكان كر وفر حتى كتب النصرللمسلمين ، وبهذا أنقذ الفاطميون صقلية من المصير التى آلت اليه كريت[٧٤] .

المطلب الثالث : الأندلس ند لايُجابه فى المغرب الإسلامى وأستثارة ذلك لحركة استرداد مسيحية قوية

فى ذات الوقت الذى كان فيه الفاطميون يتصدون بجدارة للبيزنطيين فى المشرق الإسلامى ويقفون معهم على قدم المساواه كقوة دولية مناوئة ، كان أمويو الأندلس

---

٧٣ ـ المرجع السابق ، ص ٢٤٦.

٧٤ ـ المرجع السابق ، ص ص ٢٤٢ ـ ٢٤٣ – ٢٤٥.

يقومون بنفس الدور فى الجزء الغربى من العالم الإسلامى فيحافظون على علاقات توازن مع الممالك المسيحية فى أوروبا وذلك بعد أن مكنهم انصراف اهتمام الفاطميين نحو الشرق من التفرغ لدورهم هذا بصورة فعالة .

وكنا قد استعرضنا قبلا المركز الممتاز الذى حققه الخليفة الأموى الناصر للأندلس الاسلامية فى علاقاتها بالممالك المسيحية فى أوروبا وهو المركز الذى عضده ابنه وخليفته المستنصر الذى استهل حكمه بإجراء من أجراءات القوة عندما جهز حملة تأديب للأمير المسيحى الذى ساعده الناصر فى نهاية حكمه على استرداد عرشه فى نافار وليون مقابل حصول الأندلس على عشرة حصون من هذه المملكة فنكث الأمير المسيحى بعهده بعد وفاة الناصر فكان جزاؤه رادعا من الأندلس الاسلامية التى نجحت قواتها فى فتح أكثر من مدينة مسيحية فى غزواتها التأديبية تلك [٧٥]

ولقد استطاع المستنصر أن يجعل من الأندلس أكبر قوة سياسية وعسكرية فى شبه الجزيرة الأندلسية وساعده على ذلك تدهور الأوضاع الداخلية فى مملكة ليون أكبر الممالك المسيحية فى شمال أسبانيا نتيجة الانقسامات الداخلية التى مزقتها منذ عام٩٦٦ ، وهكذا كان لارتداد الخطر الفاطمى من على أبوابه الجنوبية من جانب وتمزق الممالك المسيحية على حدوده الشمالية من جانب آخر أثر واضح فى الاستقرار النسبى التى تمتعت به الأندلس فى عصره وكذا فى أتساع نفوذه وتسيده على شبه الجزيرة الأسبانية كلها بما فيها الممالك المسيحية فى جزئها الشمال الغربى حيث دان له أمراؤها بالولاء والأحترام وكانوا يخطبون وده ويستنصرون به على بعضهم البعض[٧٦].

وبوفاة المستنصر دخلت الأندلس عهدا جديدا ولكنه عهد قوى أيضا بل ربما كان أقوى عهودها فى هذه الفترة وهو عهد الحجابة . فالمستنصر ترك وليا للعهد صبيا فسيطر حاجب الخليفة على مقاليد الأمور السياسية من الناحية الفعلية وبذلك انفصلت السلطتان الدينية والزمنية لأول مرة فى الأندلس الإسلامى فقام إلى جانب الخلافة الأموية صاحبة السلطة الرسمية ما عرف بأسم الدولة العامرية نسبة إلى محمد بن أبى عامر حاجب الخليفة الطفل هشام المؤيد والذى أصبح فى يده السلطة الزمنية[٧٧] .

وتجدر الإشارة هنا إلى أن أنفصال السلطة فى مركز الخلافة العباسية فى بغداد وإن كان قد تسبب فى أنحلال الدولة وضعفهاعندما أصبح الخليفة مجرد رمز دينى

---

٧٥ ـ المرجع السابق ، ص ٢٠٨.

٧٦ ـ المرجع السابق ، ص ص ٢٠٨ - ٢٠٩ .

- بيضون ، الدولة العربية فى اسبانيا ، ص ص ٣٠٢ - ٣٠٦ .

٧٧ ـ رمضان ، الصراع بين العرب وأوروبا ، ص ٢١٠.

لاحول له ولا قوة فى حين تركز السلطان السياسى فى يد أمراء الجيش الأتراك ثم البويهيين ، إلا أن هذا الانفصال فى السلطة لم يؤد إلى نفس النتيجة فى الأندلس ، يرجع سبب ذلك إلى أن الذين تولوا السلطة الزمنية فى الأندلس كانوا رجالا من طراز السياسيين العظام المخلصين لدينهم ودولتهم والعسكريين الموهوبين المقدامين سواء كان الحاجب المنصور أو ابنه عبدالملك المظفر الذى جاء خلفا له عام ٣٩٢ / ١٠٠٢ فثبته الخليفة هشام خلفا لأبيه . وهكذا فإن القاعدة التى مؤداها أن انفصال السلطتين الدينية والزمنية فى الدولة الاسلامية يكون سببا من أسباب ضعفها والتى رأينا تطبيقا واضحا لها فى الدولة العباسية مازالت صحيحة والوضع الناجح الذى رأيناه فى الاندلس لايعدو كونه أستثناءً لأنه ضامن لأن يكون صاحب السلطة الزمنية دائما على قدر المسئولية التى تمتع بها الحاجب المنصور وأبنه .

ولقد بلغ من إخلاص الحاجب المنصور أنه لم يكتف بالحفاظ على قدرة قوة الدولة كما تركها الخليفة الحكم المستنصر بل إنه عمل جاهدا على التدعيم من عناصر قوتها ، وكان أول ما أتجه اليه هو أصلاح نظام الجيش حيث أدرك أن أول خطوة على طريق تدعيم هيبة الدولة وقدرتها على الوقوف فى الهيئة الدولية على قدم المساواه مع غيرها من الأطراف هو أن يكون لها سند من جيش قوى متجانس . فالجيش فى الأندلس قد عانى من مظاهر العنصرية قدر ماعانت المؤسسة العسكرية فى المشرق الإسلامى ، كما أن كلتا المؤسستين عرفت الأقطاع العسكرى بكل المثالب التى يجرها على مصداقية ومعنى الجندية ، وكما ظلت عوامل الضعف هذه كامنة فى جيش المشرق طالما كان هناك قائد قوى للجيش متمثلا فى خليفة هو عسكرى بالأساس ، فلقد ظلت كامنة أيضا فى الأندلس وقت الناصر وأبنه المستنصر ، ورغم هذا فقد أدرك الحاجب المنصور الخطر الكامن ولم ينتظر حتى ينفجر الوضع كما أنفجر فى المشرق ولكنه قرر أن يعالج الأمر قبل أن يستفحل ، والواقع أن ناقوس الخطر دق مبكرا فى عهد الناصر نفسه الذى قلد قيادة حملة من حملاته لقائد صقلبى فغضب الجند العرب فى فرقته إلى حد تركهم الصقالبة وحدهم فى أرض المعركة فكانت الهزيمة فلم يخرج الناصر بعدها حتى وفاته[٧٨] . فجيش الأندلس كان يتكون من عنصرين أساسيين هما العرب والبربر (مقابلين للعرب والفرس فى الجيش العباسى) وكنتيجة لتناحر هذين العنصرين اللذين كانا يتقاضيان الأجر على الخدمات العسكرية فى شكل أقطاعات زراعية أستجلب الخلفاء الأمويون عنصرا ثالثا مجيدا هم الصقالبة (مقابل للأتراك فى المشرق) وكانوا يتولون رواتب ثابتة [٧٩] . وقبل أستفحال الخطر على نفس الوتيرة التى صار اليها الحال فى الدولة العباسية تدارك الحاجب المنصور الأمر فأعاد تنظيم

٧٨ ـ المرجع السابق ، ص ٢١١.

٧٩ ـ المرجع السابق ص ص ٢١٠ - ٢١١ .

الجيش وألغى الأقطاع العسكرى فجعل الجيش كله نظاميا يتكون من فرق متعددة كل منها يتكون من أفراد ينتمون إلى العناصر الثلاثة كلها مع تخصيص راتب من الدولة لكل جندى (٨٠) .

وقد جعل هذا الإجراء من الجيش وحدة نظامية متماسكة وأستطاع أن يخوض به المنصور صراعا متواصلا مع أوروبا المسيحية حتى أضحى تاريخ حكمه هو تاريخ للغزو فى أراضيهم ، وربما كمحاولة لتاكيد شرعية وجوده على قمة السلطة الزمنية دون الخليفة أحيا الحاجب المنصور بشدة إحدى الوظائف الأساسية للسلطة فى الإسلام وهى الجهاد فأبتعث سنة الخلفاء الأمويين بالخروج فى غزوتين كل عام على الأقل. ولقد حمله هذا الاخلاص ليترأس بنفسه سبعا وخمسين غزوة موزعة على مدة حكمه الذى امتد خمسة وعشرين عاما لم ينهزم فى أى منها وكانت وجهتها الممالك الشمالية فى قشتالة وليون ونافار وكاتالونيا (٨١)

ولقد كان رد الفعل المسيحى لوجود هذا الرمز فى الأندلس عنيفا فلأول مرة منذ زمن طويل يقتنع ملوك الممالك المسيحية فى شمال أسبانيا بضرورة نبذ خلافاتهم وصراعاتهم مع بعضهم البعض وكانت صحوة الممالك المسيحية فى شمال أسبانيا مظهرا من مظاهر صحوة كبرى أخذت تدب فى العالم المسيحى الغربى ، وانطلقت هذه الصحوة من حركة الإصلاح الكونية ، وظلت هذه الحركة فى نمو حتى تمخضت عن الحروب الصليبية فى القرن الحادى عشر الميلادى. ولقد توحد ملوك وأمراء شمال أسبانيا وتكتلوا ضد الخطر الذى تمثله الدولة العامرية ، فالأمر مع هذه الدولة لم يعد مجرد إثبات الهيبة عن طريق أجراء حملات تأديبية كما كان يفعل الناصر والحكم ، وإنما الدولة العامرية تحيى قيمة الجهاد وتكاد بعدها أن تقطع الأمل فى بقاء المسيحيين فى أسبانيا ، وذلك لأول مرة منذ أن تكونت تلك الممالك فى غفلة من مسلمى الأندلس ونتيجة تهاون فاتحيها. وهكذا تحالف أمراء الشمال المسيحيون لمواجهة المنصور بل وحملوا مواجهتهم له بالمعانى الدينية اللازمة للتصدى لمعنى الجهاد الذى رمى اليه ، فكانوا يأتون بالأساقفة والقساوسة ويسيرونهم فى مقدمة الجيش التى كانوا يجرونها عليه .(٨٢)

وعلى نقيض هذه السياسة الهجومية التى أتبعها المنصور مع الممالك المسيحية فى الشمال ، فإنه كان يحتفظ بعلاقات ودية مع الأمبراطورية البيزنطية ، وهو تقليد حفظه عن أمراء وخلفاء الأندلس الأمويين ولم يغير منه رغم تغير الظروف فى عصره عن

---

٨٠ ـ المرجع السابق ، ص ٢١١.

٨١ ـ المرجع السابق ، ص .

– بيضون ، الدولة العربية فى اسبانيا ، ص ٣٢٢ ومابعدها

٨٢ ـ المرجع السابق ، ص ص ٣٢٦ – ٣٢٨.

– رمضان ، الصراع بين العرب وأوروبا ، ص ص ٢١٢ ـ ٢١٣ .

عصرهم . فأسلافه كانوا يهادنون الأمبراطور البيزنطى احتسابا للخطر الفاطمى ومن قبله الخطر العباسى ، ولكن فى عصر المنصور كان الخطران قد حيدا الأول نتيجة الوهن والثانى نتيجة البعد ، وربما يرجع حرصه على استمرار العلاقات الودية أنه قد تولى عرش الأمبراطورية البيزنطية فى ذلك الوقت امبراطور من أقوى أباطرة الروم وهو باسيلى الثانى (٩٧٦ - ١٠٢٥) والذى يعد عصره من أزهى عصور الأسرة المقدونية فلم يكن من الحكمة أستعداؤه دون داع ، كما أن الحاجب المنصور احتفظ بعلاقات سلمية أيضامع الأمبراطورية الرومانية المقدسة ، وكذلك مع ملوك الشمال الأسبانى المسيحيين الذين رضخوا لنفوذه وارتبطوا معه بمعاهدات وحافظوا على بنودها (٨٣)

ولقد حرص أمراء الشمال المسيحيين على خطب ود الدولة العامرية طالما كان المنصور حيا ، فلما توفى فى الميدان عام٣٩٢ /١٠٠٢ ظنوا أن الفرصة قد حانت للقضاء على الخصم الإسلامى القوى فى الجنوب فأحيوا تحالفهم الذى لم ينجح أيام المنصور عله أن ينجز الهدف فى ظل حكم ابنه عبد الملك المظفر ، ولكن المظفر أثبت أنه ماض على درب أبيه ، وإثباتا لهيبة الدولة وعلوها سارع هو بمبادءة ممالك الشمال بالقتال قبل أن يزحفوا عليه هم ، ولقد ظل هذا دأبه طوال فترة حكمه يبادر بالزحف للتأديب تارة وللفتح أيضا تارة أخرى ، فما كان من الممالك المسيحية فى الشمال إلا أن حملوا عليه حملة واحدة أملا فى القضاء عليه عام ٣٩٧ ولكنه هزمهم مجتمعين واستمر فى تقليد الغزو السنوى بعد ذلك فأنهكهم بالتصدى له وشغلهم بالذود عن أراضيهم عن غزو أراضيه . (٨٤)

ولكن مما يؤخذ على المظفر أنه اقترب من منطقة خطر شديدة ربما لم يحيد مثالبها إلا شخصيته القوية واخلاصه ، فلقد دخل فى محالفات مع بعض الممالك المسيحية فى الشمال وصلت إلى حد خروجهما معا فى حروب ضد ممالك مسيحية أخرى كما حدث فى حملة عام ٣٩٥ التى أقتحم فيها مملكة قليقية وخرج معه فيها ملك جارسيا "سانشو "رغم أنه كان قد نقض عهده مع المظفر فى العام السابق لهذه الحملة(٨٥). وليس أدل على زيف مثل هذه التحالفات من أن سانشو هذا قد ترأس بعد حملته المشتركة تلك مع المظفر بعامين فقط تحالف ممالك الشمال المسيحى الذى خرج لمحاربة المظفر والتى سبقت الإشارة اليه ، وكان من المتوقع من المظفر أن يكون أبعد نظرا

---

٨٣ ـ المرجع السابق ، ص ص ٢١٣ - ٢١٤ .

٨٤ ـ المرجع السابق ، ص ص ٢١٤ - ٢١٥ - ٢١٦ .

- بيضون ، الدولة العربية فى اسبانيا ، ص ص ٣٣٥ - ٣٣٨.

٨٥ ـ رمضان ، الصراع بين العرب وأوروبا ، ص٢١٥ .

وأكثر حرصا فى إجراء مثل هذا النوع من التحالفات مع أطراف غير اسلامية، ولكن على كل حال فان فترة حكم المظفر (٣٩٢ - ٣٩٩ / ١٠٠٢ - ١٠٠٩) كانت آخر حلقة فى سلسلة المد الإسلامي الأسبانى، فبعد وفاته سيبدأ المد العكسى الذى أتخذ شكل حركة استرداد مسيحى قوية أستهدفت أسبانيا بالأساس مستفيدة من الصراعات الطائفية التى ستتخبطها والتى ستمنعها حتى من تقديم يد العون للقوى الاسلامية فى أوروبا وهى تتساقط .

فبداية النهاية للوجود الإسلامى فى جنوب أوروبا ، فى فرنسا وأيطاليا وسويسرا كانت قد بدأت حول ذات الوقت تقريبا ، فحول منتصف القرن العاشر الميلادى تكونت جبهة قوية لمقاومة الوجود الإسلامى فى أوروبا من النبلاء الأوروبيين كان من وراء تشكيلها أحد الأساقفة الذى أغرى هؤلاء النبلاء بوعده تمليكهم الأراضى الخصبة التى كانت تحت يد المسلمين فى المناطق التى يسيطرون عليها ، وكانت المواجهة فى معركة عنيفة جرت عام ٣٤٣ /٩٥٦، وترجع أهمية هذه المواجهة إلى أنها انتهت ليس فقط بهزيمة المسلمين ولكن باجلائهم عن مناطق عدة فى جنوب فرنسا وتقسيم أملاكهم هناك بين النبلاء الذين شاركوا فى القتال تأكيدا لمعنى أن أسترداد هذه الممالك المسيحية لهذه المناطق هو استرداد نهائى لارجعة فيه [٨٦]، وبالفعل كانت هذه المعركة هى أولى خطوات الاسترداد المسيحى لمناطق النفوذ فى أوروبا ، فبعد أحداث هذه المعركة باثنى عشر عاما - أى فى ٣٥٨ /٩٦٨ - أعلن امبراطور الأمبراطورية الرومانية المقدسة عزمه على استئصال شأفة المسلمين من جنوب أوروبا كله ، وموته قبل أن يحقق ما اعتزمه لم يؤد إلى موت مشروعه حيث تلقفه أحد نبلاء أوروبا مستغلا مشاعر الحماس الدينى التى أثارها لدى المسيحيين عند أسر المسلمين لأحد الأساقفة فاستنفر قوة ضخمة وأقتحم أحد الحصون الاسلامية مستفيدا أيضا بعنصر خيانة من جانب أحد المسلمين والذى كان قائما على الحصن فكان الأنتصار الذى أشعل فورة حماس ضخمة فى مناطق عدة ثارت كلها على المسلمين الحاكمين وأجبروهم على الجلاء، وكان آخر هذه الثورات ثورة أقليم بروفانس عام ٩٧٥ ونجاح أهله فى اسقاط الحكم الإسلامى هناك بعد ثمانين عاما من السيادة . ولما كان هذا الأقليم هو القاعدة الرئيسية للمسلمين المنتشرين فى فرنسا وأيطاليا فإن طرد المسلمين منه يعتبره المؤرخون علامة على نهاية الوجود الإسلامى الفعلى فى هذه المنطقة رغم أستمرار وجود جيوب متفرقة لهم فى الجبال حتى عام ١٠٠٠م [٨٧]

وفى ذلك الحين كانت الأندلس تدخل طورا من أضعف أطوارها وأكثرها أضطرابا بتولى أمرها سلسلة من الخلفاء الأقزام بدأهم محمد بن هشام بن عبدالجبار بن

---

٨٦ - المرجع السابق ، ص ٢٠١.

٨٧ - المرجع السابق .

عبدالرحمن الناصر حول عام ٤٠٠ /١٠١٠ يعاونهم سلسلة من الحجاب الفاسدين بدأهم عبدالرحمن شنجول أبن الحاجب المنصور وأخو عبدالملك المظفر [٨٨] . ولقد أدى ضعف أصحاب السلطتين الدينية والزمنية إلى انفجار الصراع الطائفى فى الأندلس بين العرب والبربر والذى كان موجودا دائما يغلى تحت السطح ينتهز أى نقطة ضعف لينفجر بركانا يحرق ويدمر وهكذا بدأ صراع فى الأندلس على الخلافة كل فريق يولى خليفة يستعين بالمالك المسيحية فى شمال أسبانيا لتغليب كفته على الآخر ، وهكذا انقلبت موازين القوى فى علاقات القوى الاسلامية ـ المسيحية فى أسبانيا فبعد أن كان ملوك الممالك المسيحية فى الشمال الإسلامى يطلبون مساعدة الحكام الأمويين فى نزاعاتهم أضحى الأخيرون هم الذين يطلبون مساعدة الأسبان المسيحين فى قتالهم ضد بعضهم البعض فأتاحوا بذلك لهم فرصة التدخل فى الشئون الداخلية للأندلس الاسلامية . بل والأخطر من هذا أن تنافس هؤلاء الخلفاء الأقزام ورغبة كل منهم فى تغليب كفته جعلهم يتبارون ويتفننون فى كيفية أغراء الملوك المسيحيين لتقديم العون لهم ووصل بهم الأمر إلى حد عرضهم المدن الاسلامية على هؤلاء الملوك بل وتركهم يختارون منها ما يحبون[٨٩]. فتنازل الخليفة المخلوع المهدى مثلا عن مدينة سالم قاعدة قرطبة لعاهل برشلونة المسيحى مقابل مساعدته ضد الخليفة المستعين وتقدمت الجيوش الأسبانية مع حلفائها الأسبان المسيحيين فى الأراضى التابعة للخليفة المستعين فساموا أهلها المسلمين سوء العذاب[٩٠] ولقد أستمر هذا النمط وتكرر مع خلفاء يقومون وأخرين يسقطون وأسر تتولى وتزول وتظهر أسر جديدة تأخذ محلهم حتى انتهى الأمر بثورة العامة على هذه الفوضى وهذا التناحر ، فلم يعودوا يعرفون لهم خليفة من كثرة تغيرهم عليهم وتناحروا فيما بينهم فكان قرار شيوخ قرطبة ووزرائها برئاسة ابى حزم بن جهور بابطال الخلافة فانتهى ملك بنى أمية من الأندلس عام ٤٢٢[٩١] .

ولم يكد يعلن ابن جهور أنتهاء الخلافة حتى استقل كثير من الأمراء بمدنهم ومقاطعاتهم حتى أصبح بالأندلس نحو من عشرين اسرة حاكمة ، وأستمر هذه الوضع حتى عام ٤٨٤ وصلت الأندلس فيه إلى أقصى درجات التفرق والضعف فى الوقت الذى كانت فيه الممالك المسيحية فى الشمال تتوحد تحت حكم الفونسو السادس ، وبدلا من أن يدرك ملوك الطوائف مدى عمق الخطر الذى يتهددهم جميعا على البوابة الشمالية

٨٨ ـ المرجع السابق ، ص ص ٢٦٢ – ٢٦٤ .

– بيضون ، الدولة العربية فى اسبانيا ، ص ص ٣٣٩ – ٣٤٢ .

٨٩ ـ رمضان ، الصراع بين العرب وأوروبا ، ص ٢٦٦.

٩٠ ـ المرجع السابق ، ص ٢٦٧.

٩١ ـ المرجع السابق ، ص ص ٢٦٧ ، ٢٧١.

– بيضون ، الدولة العربية فى أسبانيا ، ص ٣٤٦ .

فيتوحدوا ضده كما فعل أمراء الشمال المسيحيون عندما نسوا خلافاتهم أمام الخطر الذى مثله الحاجب المنصور وابنه فتكتلوا ضدهما بل واصبغا على مواجهتهما معان دينية تضمن حماس الشعب للأنضمام فى الحملات ، نقول بدلا من هذا كان ملوك الطوائف هؤلاء كلهم يخطبون ود الفونسو ويتقربون له بالاتاوات يستجدون معونته ضد أخوانهم المسلمين، فكان يزيد فى مطالبة عاما بعد عام ويستولى على حصونهم وقلاعهم برضاهم حتى تمكن ، فوثب وثبته الكبرى على طليطلة وانتزعها عام ٤٧٨(٩٢) وهكذا بدأت الممالك المسيحية فى الشمال بقيادة الفونسو حركة مد ناجحة دفعت بالحدود بينهم وبين الأندلس الاسلامية إلى الجنوب لصالح المسيحين وعلى حساب المسلمين ، فكأنه قاد حركة استرداد مسيحى تعمل على استرجاع الأندلس بلغت من الخطورة حدا أنها استنفرت مساعدة البابا لها فاكسبها الصبغة الدينية، بل ومساعدة دول أوروبية أخرى فاكتسبت الصفة الدولية أيضا ولم يوقفها الا ظهور المرابطين فى المغرب وعبورهم إلى الأندلس كما سنرى .

خاتمة :

كانت السمة الأساسية للعصر العباسى الثانى إذن فى تميزه عن عصر الدولة الأموية وحتى عن العصر العباسى الأول هو اللامركزية السياسية الشديدة ثم التعددية الفعلية والتى تكرست أكثر بتزامن ثلاثة مراكز للخلافة الإسلامية بحيث اقتصرت السلطة الفعلية التى يمارسها الخليفة العباسى - أو من يمثلونه - عمليا على بغداد وما يحيطها ، وكان من الممكن لهذه السمة أن تكون مصدر قوة للعالم الإسلامى اذا ما أعتبرنا ماحدث فى العصر العباسى الأول عندما نهضت الدويلات القليلة التى أستقلت عن المركز بدور أيجابى مكمل لدوره على الساحة الدولية فى معظم الأحيان ، ولكن الذى حدث فى العصر العباسى الثانى ، هو زيادة حركات الأنفصال والاستقلال بالولايات دون تنسيق أو فلنقل رغما عن الخلافة العباسية الواهنة ومن هنا بدلا من أن يحدث تعاون وتكامل بين الأطراف الاسلامية الفرعية بعضها وبعض وبينها وبين المركز الخلافى حدث العكس تماما حيث سادت علاقات التنافس والصراع والعداء بل والقتال بين الأطراف الاسلامية بما فيها المركز (ويمكن استثناء الدولتين السامانية والغزنوية على الاقل فى بعض مراحلها) وبدأت المؤامرات - كل طرف اسلامى يريد أن يستولى على أملاك الطرف الإسلامى الآخر - وبدأت بالتالى التحالفات ليس بين الأطراف

---

٩٢ - انظر تفاصيل هذا الحدث في :

- عنان ، مواقف حاسمة ص ص ٢٦٥ - ٢٨٠.

- رمضان ، الصراع بين العرب وأوروبا ص ص ٢٧١ - ٢٧٢ .

الاسلامية ضد القوى غير الاسلامية ولكن بين الأطراف الاسلامية من جانب والأطراف غير الاسلامية من جانب آخر ضد أطراف إسلامية ساعد على ذلك ظهور الامبراطورية الرومانية المقدسة وعدائها للدولة البيزنطية .

وهكذا انتقل النظام الدولى بصورة حادة إلى كونه نظاماً متعدد الأقطاب فزادت التحالفات وتعقدت المصالح وتوازنات القوى وأضحت المصالح الدنيوية هى المحرك لكل الأطراف على السواء عند أختيار القوة التى يتحالفون معها وعند تحديد القوة التى يعادونها. ولكن اذا كان التناصر قد انكمش بين أطراف على الجانب غير الإسلامى فإن الجانب الإسلامى قد أفتقده تماما ولم يعد حتى الخطر المشترك الذى تواجهه أطراف إسلامية دافعا لتخطى مشاعر الشك وعدم الثقة ولو إلى حين والسعى إلى التحالف والتناصر للقضاء على هذا الخطر . فروح الانفصالية وفقدان الشعور بوحدة الأمة الاسلامية وبوحدة الأراضى الاسلامية وتغليب المصالح الاقليمية الضيقة غطى على كل احساس لدى الأطراف الاسلامية بالخطر المشترك القادم من الساحة الدولية ، وسوف يتأكد هذا بصورة أوضح فى العصر العباسى الثالث فى مواجهة الهجمة الصليبية على المشرق وحروب الاسترداد لمسيحى فى الغرب .

الفصل الثالث

العصر العباسى الثالث (٤٤٧- ٦٥٦هـ / ١٠٥٥ - ١٢٥٨م):

من الهجمة الصليبية إلى الهجمة المغولية : سقوط الدولة العباسية

الفصل الثالث

العصر العباسي الثالث (٤٤٧- ٦٥٦هـ / ١٠٥٥ - ١٢٥٨م): من الهجمة الصليبية إلى الهجمة المغولية : سقوط الدولة العباسية

مقدمة :

خبر العصر العباسى الثالث تغيرات جذرية فى خريطة القوى الدولية على الجانبين الإسلامى والمسيحى على حد سواء ، فعلى الجانب الإسلامى اختفت الدولة الأموية من على مسرح الأحداث فى المغرب وحلت محلها دولة المرابطين وتلاها دولة الموحدين ليحفظاالمغوب والأندلس اسلامهما فى مواجهة حركة استرداد مسيحية قوية .

أما فى المشرق الإسلامى فلقد بلغت الدولة العباسية أحط درجات الضعف والانحلال وأضحت أقرب إلى كونها اسما يتردد من كونها كيانا دوليا له وجود محسوس على الساحة ، أما الدولة الفاطمية فلقد بدأت تتفكك وتضعف بالتالى لتفقد أى دور مؤثر كقوة دولية وظهر على المسرح دولة السلاجقة بديلا عنهما معا. وكذا على الجانب المسيحى دخلت الدولة البيزنطية دور الاحتضار وبدأت تتأهب لتترك مسرح الأحداث الذى أصبح مهيئا فى هذه الفترة لظهور قوى أوروبا المسيحية التى كان دخولها على مسرح الأحداث الدولية دخولا قويا للغاية ممثلا فى الحركة الصليبية التى اجتاحت الشرق الإسلامى لمدة قرنين من الزمان . ففى الوقت الذى كان العالم الإسلامى بضفتيه الشرقية والغربية يعانى أقصى درجات الضعف والتحلل عندما كان الستار ينزل معلنا نهاية فصل قاتم من فصول التاريخ الإسلامى وهو ما أصطلح على تسميته العصر العباسى الثانى، وكان الستار يوشك أن يرتفع مرة أخرى مؤذنا بميلاد قوتين اسلاميتين جديدتين على مسرح الأحداث إحداهما فى المشرق وهى دولة السلاجقة والأخرى فى المغرب وهى دولة المرابطين ليتجدد بهما شباب الأمة الاسلامية وليبدأ فصلا جديدا مجيدا فى علاقات القوى الاسلامية مع القوى غير الاسلامية .

ولكن هذا الفصل على فعاليته كان قصيراخاصة فى المشرق الإسلامى ، حيث سرعان ما دب الضعف فى الدولة السلاجقة الفتية وعمرها لم يكمل الأربعين عاما فتوقف عطاؤها وتدفقها فى وقت من أخطر ما شهدته البيئة الدولية وهو وقت اندلاع الهجمة الصليبية التى أجتاحت فى المشرق الإسلامى وكونت دويلات مسيحية فى قلب العالم الإسلامى هناك، ورغم القوة الكبيرة والكامنة فى الدول الاسلامية الموجودة فى ذلك الوقت اذا ما نظرنا إلى امكاناتها الاقتصادية والبشرية والعسكرية بالمقارنة بالامكانات المتاحة للحملات الصليبية ، هذا فضلا عن أن الحروب كانت تدور على

أراضى اسلامية وهى ميزة لايمكن أنكارها إذا ما تذكرنا المسافات التى كان على الحملات الصليبية أن تقطعها لتصل إلى أرض المعارك ، إلا أن الحقيقة المؤلمة هى أن عوامل القوة الكامنة هذه حيد معظمها انقسام القوى الاسلامية وتنازعها وتناحرها مما أفقدها الثقة فى بعضها البعض وقضى على مشاعر الوحدة والنصرة ومكن لنوازع الانفصالية والذاتية والمصلحة الخاصة على حساب المصلحة العامة ، فسوف نرى الفاطميين بدلا من وضع يدهم فى يد السلاجقة لمواجهة هذا الخطر الماحق يحاولون على العكس الاستفادة منه وأستخدامه فى القضاء على خصومهم السلاجقة المسلمين، وسوف نجد الدويلات الناهضة فى الشام رغبة منها فى تحقيق استقلالها ابتعادا عن السلاجقة يهادنون الخطر الصليبى بل ويتحالفون مع قواده لأفشال الهجمات السلجوقية التى كاد بعضها أن يكون نقاط تحول تدمر الحملات الصليبية اذا ما قدر لها النجاح ، ولكن النجاح الممكن يتحول إلى فشل أكيد بسبب خيانة "المسلمين "، أما الخلافة العباسية فلقد ظهر عجزها عن تسيير الجيوش فى أكثر صوره فجاجة فى هذه الفترة الحرجة من تاريخ المواجهة بين القوى الاسلامية والقوى غير الاسلامية والتى كانت بحق معركة حياة أو موت ولم تكن مجرد مواجهات لكسب قطعة أرض أو للحصول على بعض الغنائم والأسرى والسبايا ، ولقد ظهر ضعف المركز الخلافى مركبا عندما أضاف إلى عجزه عن التحرك المادى تراخيا فى التحرك المعنوى ايضا، ففشل فى توحيد المسلمين وجمع كلمتهم وأثارة حماسهم ونخوتهم الدينية للذود عن أراضيهم فى حين نجح البابا فى القيام بهذا الدور بين الأوروبيين رغم أنه كان يدفعهم لركوب المجهول .

وهكذا رغم أن خطب البابا الدينية التى كانت سببا مباشرا فى أن تندفع الحملات وراء حماس دينى فوار كانت تتحدث عن قوة المسلمين وبغيهم الذى طال فى الأماكن المسيحية المقدسة فى المشرق وكذا فى مواجهة المسيحيين الحاجين اليها ، إلا أن الواقع يؤكد أن هذه الحملات الصليبية لم تأت إلى المشرق الإسلامى بسبب قوته وإنما جاءت متشجعة بضعفه، ولقد كان تقدير مخططى الحملات الصليبية المشتركين فيها صحيحا ، فلقد مكن الضعف على الجانب الإسلامى وكذا التخاذل والخيانة والتراخى للخطر الصليبى من أن يزرع اقدامه فى أرض الإسلام وأن يكون منها كيانات سياسية مسيحية .

وعندما تنبه المسلمون لأخطائهم كان الخطر قد أستفحل وكان عليهم أن يواجهوا دولاً قائمة بالفعل وليس مجرد غارات تتوافد متعبة منهكة فأستغرقت عمليات استرداد أرض الإسلام من القوى الأوروبية المسيحية قرابة قرنين من الزمان .

ولكن والمسلمون يصلون إلى هذه النتيجة بعد سلسلة طويلة من الهزائم والانتصارات والكر والفر والتضحيات والشهداء كانت قوة كاسحة أخرى تهبط عليهم كالسيل الجارف هذه المرة من الشرق من آسيا وليس من الغرب من أوروبا وهى قوة المغول التى وصلت إلى قلب العالم الإسلامى وجسده مازال مثخنا بجراح المعركة الطويلة مع الصليبيين فترنح بشدة تحت الضربات الهائلة لقوة المغول الحربية وسقطت بغداد حاضرة الخلافة العباسية لهم عام ١٢٥٨ فسقطت بذلك دولة الخلافة العباسية بعد خمسمائة وأربعة وعشرين عاما متواصلة بقدر ما شهدت من أنجازات حضارية وعطاءات ثقافية بقدر ما عانت من التمزق والضعف والانحلال السياسى الذى أكلها من الداخل فتركها خواء هيكلاً هشاً تعصف به النسمة تطوف فما بالك بالريح العاتية تزمجر .

المبحث الأول

بعث إسلامي جديد (٤٤٧ ـ ٤٩٧هـ /١٠٥٥ ـ ١٠٩٧م)

شهدت الفترة محل الدراسة فى هذا المبحث تطورات خطيرة فى مشرق العالم الإسلامى ومغربه ، فلقد خبر الجزء الغربى من العالم الإسلامى تدهورا خطيرا فى مسار علاقاته مع القوى الدولية غير الاسلامية فى الجانب الأعظم من فترة الدراسة نتيجة الضعف الذى حل بالدولة الفاطمية وأدى إلى أختفاء كل دور فعال لها فى الصراع مع القوى المسيحية الأوروبية خاصة مع انفصال المغرب الأوسط عنها وتعريه من ثم من حمايتها فى مواجهة القوى الدولية على الجانب الآخر من البحر المتوسط ، ثم سقوط صقلية وجزر عديدة مرة أخرى فى يد دول أوروبا المسيحية وضياع السيادة الاسلامية على البحر المتوسط بالتالى واهتزاز الأندلس بشدة تحت حكم ملوك الطوائف للمرة الثانية فى تاريخها وتعرضها لخطر السقوط التام فى يد الممالك المسيحية فى الشمال الأسبانى .

وإذا كان المغرب الإسلامى قد ابتعث ابتعاثا جديدا قرب نهاية فترة الدراسة بظهور قوة المرابطين وعبورهم إلى الأندلس عام ٤٧٩ هـ /١٠٨٦م فإن حركة بعث المشرق الإسلامى التى جددت شباب الدولة العباسية فى المشرق بعد أن بلغت الدرك الأسفل فى نهايات حكم بنى بويه جاءت مبكرة حوالى ثلاثين عاما عن قيام دولة المرابطين فى المغرب ، فالمشرق الإسلامى شهد ميلاد دولة السلاجقة ودخولها بغداد عام ٤٤٧ / ١٠٥٥التبدأ دورا جديدا وربما أخيرا من أدوار المد الإسلامى فى مواجهة القوى غير الاسلامية .

المطلب الأول : صعود دولة السلاجقة والمد الإسلامي في مواجهة الدولة البيزنطية المتهالكة . . . بداية فكرة الحروب الصليبية :

في الوقت الذي كان المشرق الإسلامي يعاني فيه من فراغ قوى هائل كانت منطقة وسط آسيا تستعد لتدفع بأبناء أحد قبائلها إلى مناطق القلب الإسلامي كما كان دأبها دائما ، أحيانا لصالح أمة الإسلام وأحيانا لسوء طالعها ، ولكن الدفعة هذه المرة دفعت بدم جديد في عروق المشرق الإسلامي فجددت شبابه . فالسلاجقة من قبائل الغز التركية في أواسط آسيا هاجروا إلى بخارى حول عام ٣٨٩هـ / ٩٩٨م واعتنقوا الإسلام على المذهب السني ثم دخلوا في خدمة الدولة الغزنوية في ايران وأفغانستان والهند ولكن ما لبثوا أن تمردوا عليها وبدأوا في الاستيلاء على أملاكها حتى أسقطوها ودخلواعاصمتها خراسان عام ١٠٣٧م فتأسست الدولة السلجوقية هناك بقيادة طغرل بك [١] ثم بدأ السلاجقة مرحلة مد وتوسع داخل الأراضي الاسلامية أوصلتهم عام ٤٤٧ / ١٠٥٥ إلى الموصل حيث أظهروا ولاءهم للخليفة العباسي القائم بأمر الله فثبتهم الأخير على ما ملكوه من بلاد ثم زوج ابنته لطغرل بك عندما نجح عام ٤٥١ /١٠٥٩م في القضاء على البساسيري الداعي الفاطمي الذي عزل الخليفة العباسي ودعا للخليفة الفاطمي المستنصر بالله على منابر بغداد. فقد كانت الخلافة العباسية في أشد الحاجة إلى قوة السلاجقة السنية للوقوف أمام الخطر الشيعي متمثلا في البويهية من جهة وفي ثورة البساسيري من جهة أخرى ، مما جعل المصاهرة بين السلاجقة والعباسيين حدثا هاما، بحدوث هذا التصاهر اعتبر السلاطين أنفسهم وارثين للخلافة العباسية فانعكس هذا على علاقاتهم مع القوى الاسلامية الأخرى ومع القوى غير الإسلامية حيث بدأوا مرحلة نشطة عملوا فيها على استعادة ما فقدته الدولة العباسية ، ودار هذا النشاط على محورين : الأول محور الدولة الفاطمية ، والثاني محور الدولة البيزنطية [٢] .

فإذا نظرنا إلى محور الدولة البيزنطية لكان علينا أن نتذكر أن هذه الدولة قد زامنت بأزهى عصورها أحط عصور الدولة العباسية في عصرها الثاني، فانتقلت على يد الأسرة المقدونية من وضع الدفاع إلى وضع الهجوم فكرت على دار الإسلام واستخلصت لنفسها على مدار هذا العصر ما كانت قد فقدته أثناء حركة الفتوحات الكبرى في أسيا الصغرى بل وعادت إلى الشام واستردت أنطاكية وأضحى أمراء

---

١ - راجع في تفاصيل ظهور قوة السلاجقة :
رمضان ، الصراع بين العرب وأوروبا ، م س ذ ، ص ص ٢٥٦ - ٢٥٧.
السامرائي ، تاريخ الدولة العربية ، م س ذ ، ص ص ٢٠٣ - ٢٠٥.
ماجد ، العلاقات بين الشرق والغرب ، ص ص ١١٨ - ١١٩.

٢ - رمضان ، الصراع بين العرب وأوروبا ، ص ٢٥٧.
السامرائي ، تاريخ الدولة العربية ، ص ص ٢٠٥ - ٢٠٧.

المسلمين فى شمال أقليم الجزيرة وكذا أقليم الشام يدفعون لها الجزية ، وإذا كنا قد رأينا أيضا أن الدولة الفاطمية أستطاعت أن تقف للبيزنطيين بالمرصاد وتوقف تقدمهم، إلا أنها بدأت بعد وفاة الحاكم بأمر الله عام ٤١١ / ١٠٢١ فى الدخول فى دور الضعف والشيخوخة والدولة البيزنطية مازالت قوية فكاد أن يختفى الأمل فى زحزحتها من شمال الشام (٣).

ولكن كان ظهور الدولة السلجوقية سبباً فى قلب موازين القوى مرة أخرى لصالح الإسلام حيث عاد الصراع بين الدولة البيزنطية ودولة الإسلام ممثلة فى السلاجقة على أشده من جديد . فما أن وطد طغرل بك ملكه فى فارس بحيث أتصلت حدوده بالأرض البيزنطية فى ارمينيا حتى دفع بفتوحاته غربا فأغار عام ٤٤٠ /١٠٤٩على أرمينية وديار بكر حيث كان حاكمها المسلم يدفع الجزية للروم البيزنطيين ثم زحف عام ١٠٥٠على مانزكرت فى حملة كانت تدريبا وتمهيدا للاستيلاء عليها والذى سيتم عام ١٠٧٥ وسيكون له صدى كبير - كما سنرى- ثم استولى على ملطية عام ١٠٥٧ واستكمل الب أرسلان ما بدأه عمه من حركة مد وفتح فى الأراضى البيزنطية ففتح عام ٤٥٦ / ١٠٤٦ أذربيجان وأرمينية وبلاد الكرج وأحتل مدينتى أنى وقارص وتمثلان الخط الدفاعى الأول عن الامبراطورية البيزنطية فى هذه الجهات ووسط هذا المد الجارف لحقت الهزيمة بالسلاجقة عام ١٠٧٠ فظن الروم البيزنطيون أنهم انكسروا، أدى سوء التقدير هذا لقوة السلاجقة بالبيزنطيين الى ارتكاب غلطة فادحة حيث قرروا الكر سريعا على الدولة السلجوقية أملين فى القضاء عليها وكانت موقعة مانزكرت (ملاذكرد) الشهيرة عام ١٠٧١ التى أنتصر فيها المسلمون السلاجقة أنتصارا باهرا. ويذكر ابن الأثير فى حوادث عام ٤٦٢هـ / ١٠٧١م أن الامبراطور البيزنطى بدأ بالهجوم على مانزكرت وعندما طلب منه ألب أرسلان عقد هدنة رد عليه الامبراطور قائلا "لاهدنة إلا بالرى " أى أنه يعتزم دخول الرى عاصمة السلاجقة . فكانت الهزيمة من نصيب البيزنطيين (٤) .

وأهمية موقعة مانزكرت الحقيقية ليست فى الجانب المادى والمعنوى الملموس لانتصار المسلمين من مثل أسر الامبراطور البيزنطى ذاته ، والأعداد العظيمة من القتلى والأسرى وسطوع براعة السلاجقة فى القتال لكن أهميتها الحقيقة تكمن فى

---

٣ - رمضان ، الصراع بين العرب واوروبا ، ص ص ٢٥٠ - ٢٥٧.
- ماجد ، العلاقات بين الشرق والغرب ، ص ١١٩.
٤ - رمضان ، الصراع بين العرب واوروبا ، ص ٢٥٧ - ١٦٠.
- السامرائى ، تاريخ الدولة العربية ، ص ص ٢٢٢ - ٢٢٣.
- عنان ، مواقف حاسمة ، ص ص ١٠٤ - ١١٠.

الآثار البعيدة التى تركتها على مسار العلاقات الدولية بين القوى الاسلامية والقوى غير الاسلامية . فمعركة مانزكرت تعتبر نقطة تحول ضخمة فى موزاين القوى ليس فقط بين الشرق الإسلامى والشرق المسيحى (الدولة البيزنطية) ولكن أيضا بين الشرق المسيحى والغرب المسيحى ، فاذا كانت هذه المعركة قد أعادت للشرق مناعته وقوته فى صراعه مع الدولة البيزنطية ومهدت لعودة مد الفتوحات الاسلامية مرة أخرى إلى داخل آسيا الصغرى حيث قامت الدولة السلجوقية باتخاذ نيقية - فى قلب آسيا الصغرى - عاصمة لها فجعلت منها نقطة أنطلاق وتوسع شمالا فى جهة البحر الاسود وجنوبا فى جهة البحر المتوسط، بل واستطاعت تحرير التخوم الشامية وإعادتها مرة أخرى أرضا إسلامية ، فإن هذه المعركة ونتيجة هذا الأنقلاب فى موازين القوى لصالح الشرق الإسلامى على حساب الدولة البيزنطية قد أدى إلى أنقلاب الموازين أيضا لصالح الغرب المسيحى على حساب الدولة البيزنطية .

فالدولة البيزنطية كانت تمثل للغرب المسيحى السد الذى يحميها من الخطر الإسلامى من أن ينثال عليها من جهة الشرق، ولكن هذه الكارثة الحربية التى منيت بها فى مانزكرت أقنعت الغرب المسيحى بأن الدولة البيزنطية لم تعد قادرة على لعب دور حارس هذا الباب الشرقى بكفاءة فكان على الغرب أما أن يدعم هذا الحارس أو أن يزيحه ليقوم بدوره .

وهكذا ولدت فكرة الحروب الصليبية التى ظهرت فى بدايتها وكأنها ما جاءت إلا لتمد يد العون لهذا الحارس ولكنها سرعان ما فضلت الحل الآخر وهو العمل على ازاحته والحلول محله ، وهكذا أضحت معركة مانزكرت فى نظر العديد من المحللين هى نقطة التحول التى أرخت لبداية سقوط الدولة البيزنطية وأنتهاء دورها كقوة دولية كبرى ، كما أنها أرخت لبداية فكرة الحروب الصليبية بكل ما ستحمله من أثار على مستقبل العالم الإسلامى كقوة دولية (٥) .

ومن الآثار المباشرة لهذه المعركة والتى ساعدت السلاجقة على الميل أكثر بميزان القوى ناحية دار الإسلام ، أنها فجرت داخل الدولة البيزنطية حروبا أهلية وثورات داخلية وصراعات على العرش أستغلها كلها السلاجقة بمهارة للتقدم وكسب مناطق جديدة فى أسيا الصغرى من أهمها نيقية التى جعلوها عاصمة لسلطنة سلاجقة الروم فى الأناضول ، وكذا مدينة أزمير على بحر أيجة ، وهكذا بحلول عام ١٠٨١ أضحى السلاجقة هم سادة أسيا الصغرى الحقيقيين من الفرات شرقا إلى بحر مرمرة غربا(٦)

٥ - رمضان ، الصراع بين العرب واوروبا ، ص ص ٢٦٠ - ٣١٦.
٦ - الصراع بين العرب واوروبا ، ص ص ٣١٦ - ٣١٧.

ولقد اتسمت حركة التوسع السلجوقى فى آسيا الصغرى بسمة هامة كان لها آثار خطيرة عند مجيء الحملات الصليبية ، فالسلاجقة كانوا يتوسعون فى خطوط أفقية من الشرق إلى الغرب ، ورغم أن حركة التوسع هذه أكسبتهم مدنا هامة جداً إلا أنها حرمتهم أيضا من أقاليم غاية فى الأهمية تقع فى الجزء الجنوبى من آسيا الصغرى مثل طوروس والرها وأنطاكية ، والهام فى هذا الأمر أن وجود السلاجقة فى وسط آسيا الصغرى على أمتدادها من الشرق إلى الغرب فصل هذه المناطق فى الجنوب عن الدولة البيزنطية فى الشمال ، فأدى هذا إلى حدوث حركة إحياء أرمينية كبرى فى هذه المناطق وتكونت دولة أرمينية فى طوروس دخل فى حمايتها المسيحيون فى أنطاكية والرها وغيرها من أقاليم الجنوب والشرق مكونين إمارات صغيرة مستقلة تحت حماية ارمن طوروس ، ويرجع بعض المؤرخين السهولة التى تمكن بها الصليبيون من الوصول إلى الجزيرة والشام وغزو الرها وأنطاكية واقامة إمارات هناك إلى وجود هذه الإمارات المسيحية الصغيرة هناك وابتعادها عن سيطرة الدولة البيزنطية لايغير من هذه الحقيقة أن السلاجقة قد نجحوا فى استرداد أنطاكية عام ١٠٨٧ فلقد ظلت كل المدن الأخرى فى يد الأرمن المسيحيين الذين مكنوا لحكم الصليبيين فى هذه المناطق[٧] .

والواقع أن هذا لم يكن السبب الوحيد المساعد على نجاح الصليبيين ولكن ساعد على ذلك أيضا أن عهد قوة السلاجقة انحسر سريعا حيث أخذت السلطنة فى التفكك بعد موت ملكشاه فانقسمت بحلول عام ١٠٦٩ إلى خمس ممالك مستقلة ومتنافسة أيضا مما أدى إلى انحسار السيادة السلجوقية عن الشام وظهور وحدات سياسية صغيرة بها عرفت باسم الاتابكيات لم يكن أى منهم من القوة بحيث يستطيع أن يقف منفردا للمد الصليبى الجارف خاصة أنهم كانوا متنافسين يشكون فى بعضهم البعض وغير مقدرين لمدى الخطر الصليبى فظن كل منهم أن الخطر الحقيقى يكمن فى جيرانه المسلمين[٨]. ولقد امتد تفكك السلاجقة إلى مملكتهم فى الأناضول أيضا، حيث استغل الأمراء المحليون ضعفهم بعد موت ملكشاه وبدأوا يستقلون عملياً فاستقل أمراء نيقية وأزمير وكبادوكيا، فتقدمت الدولة البيزنطية تحاول استرداد سيادتها فى الأناضول فنجحت فى استرداد بعض الجهات الساحلية ولكنها لم تتمكن من طرد السلاجقة نهائيا خاصة من منطقة القلب فى آسيا الصغرى [٩] .

وهكذا تفتت بلاد الشام بين القوى المحلية الاسلامية الصغيرة ، وتفتت بلاد الأناضول بين الأمراء الطامعين التابعين للسلاجقة، وضعفت الدولة السلجوقية نتيجة

---

٧ – المرجع السابق ، ص ٣١٧.

٨ – المرجع السابق ، ص ٣١٧.

السامرائى ، تاريخ الدولة العربية ، ص ٢٤٣ ومابعدها

٩ – رمضان ، الصراع بين العرب وأوروبا، ص ٢١٨ .

هذا، وفى ذات الوقت ورغم ضعف الدولة السلجوقية كانت الدولة البيزنطية قد انكسرت هى أيضا خاصة بعد هزيمة مانزكرت وماتبعها من أحداث داخلية مما أعجزها عن القضاء على السلاجقة أو حتى طردهم من آسيا الصغرى رغم ما وصلوا اليه من تفكك، وهكذا أرسل الامبراطور البيزنطى ميخائيل السابع إلى البابا يدعوه إلى اقناع أمراء أوروبا لتكوين فرق عسكرية بالأجر تشد أزر الامبراطورية البيزنطية لمقاومة السلاجقة، ولقد وصلت هذه الدعوة البيزنطية إلى البابوية واوروبا تعانى من ظروف اقتصادية واجتماعية وسياسية ودينية ولدتها عهود الأقطاع الطويلة هناك جعلت من مسألة تعبئة حشود غفيرة بالتلويح بالدين والدنيا معا أمرا يسيرا للغاية (١٠) .

وهكذا كان المسرح فى أوروبا مهيأ لخروجها فى هذه المغامرة ، وليس أدل على أن العامل الدينى لم يكن هو وحده الدافع للحروب الصليبية بل كانت العوامل الاجتماعية والاقتصادية والسياسية هى الدافع الأهم ، من أن أول حملة خرجت على المشرق كانت حملة العامة والرعاع الجوعى والمحرومين والهاربين من الأحكام ، أما حملة الأمراء التى تبعتها فلم تكن تضم أياً من الملوك الكبار ولكنها اقتصرت على الأمراء الصغار والفرسان الذين خرجوا سعيا وراء أطماع سياسية وأحلام بتكوين إمارات خاصة بهم فى المشرق، ولم يأت اشتراك الملوك العظام إلا مؤخرا اما تحت تهديد البابا لهم بالحرمان واما لقناعتهم الشخصية من متابعة أحداث الحملات - أن هناكاأسبابا دينية تدعوهم إلى الخروج (١١) .

وإذا كان المسرح الأوروبى قد تهيأ نتيجة لظروفه لتجهيز هذه الحملات فان المسرح فى المشرق الإسلامى زاد من اقتناع الغرب بضرورة أقتناص الفرصة ، فالساحة فى المشرق الإسلامى فى ذلك الوقت كانت خالية من أى قوة يمكن أن تناهضهم، ولو كان هناك قوة يمكن أن تردعهم لما خرجت هذه الحملات ، وليس أدل على ذلك من أن البابا كان قد وجه دعوة لمثل هذه الحملات بعد استغاثة امبراطور بيزنطة به فى أعقاب هزيمة مانزكرت ، لكن هذه الدعوة لم تجد أى صدى لها فى ذلك الوقت ، ولكن تكرار الدعوة

---

١٠ - المرجع السابق ، ص ٣٢٠.

انظر فى آراء متعددة فى تفسير ظروف ودوافع الحروب الصليبية .

قاسم عبده قاسم ، ماهية الحروب الصليبية : الايدلوجية - الدوافع - النتائج (الكويت : المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب - مايو ١٩٩٠ سلسلة عالم المعرفة عدد ١٤٩ ، ص ص ٥٧ - ١٠٩.

رمضان ، الصراع بين العرب واوروبا ص ص ٣١٨ - ٣١٩.

السامرائى ، تاريخ الدولة العربية ، ص ص ٢٥٤ - ٢٦١.

محمد العروسى المطوى ، الحروب الصليبية فى المشرق والمغرب (بيروت : دار الغرب الاسلامى - ١٩٨٣)، ص ص ٢٩ - ٣٥.

١١ - انظر تفاصيل حملتى الجياع والأمراء .

رمضان ، الصراع بين العرب واوروبا ، ص ص ٣٢٦ - ٣٣٤.

بعد هذه المعركة بربع قرن تقريبا وعندما كانت القوة الاسلامية الرئيسية فى المشرق قد تفتت لاقت استجابة سريعة (١٢) .

وهكذا بدأ فى صفحة الصراع الإسلامى - المسيحى مرحلة شديدة الخطورة ، وتمثلت خطورتها فى أن الطرف غير الإسلامى فيه لم يكن هو الخصم الذى أعتاد المسلمون منازلته على مدار القرون الخمسة الماضية، والذى أصابه الكبر والوهن كما أصابهم ، ولكنه الآن خصم جديد له مطامع وحدت أركانه وجمعت شتاته تحت علم الصليب فجاء ليواجه خصما منفصلة أعضاؤه ومنقسمة على بعضها البعض . ويكفى للدلالة على مدى الخطورة التى شكلها الزحف الصليبى أن نمعن التفكير فى معنى أعفاء البابا الأسبان المسيحيين من الأشتراك فى الحملة الصليبية ، لأنهم - كما قرر - يقومون بدورهم فى الحرب الصليبية ولكن من الجهة الغربية (١٣). فالمد الصليبى على المشرق سبقه وزامنه حركة استرداد مسيحى فى المغرب وهكذا توحدت أوروبا المسيحية على العالم الإسلامى المفكك وهو فى غفلة .

وإذا كان السلاجقة قد نجحوا فى هزيمة حملة الجياع وهى فئة فى أول حملة صليبية على الشرق عام ١٠٩٦تكونت من عشرات الآلاف من الجياع والفقراء والمغامرين واللصوص وكانت حملة شعبية غير منظمة فسهلت هزيمتها، فإن الأمر لم يكن بهذه السهولة مع الحملة الثانية، وهى حملة الأمراء أو الحملة النظامية التى شرعت فى الزحف نحو المشرق فى نفس الشهر التى هزمت فيه حملة الجياع (١٤) . وأهمية هذه الحملة أنها وضعت أسس التحالف والتعاون البيزنطى الصليبى ضد الطرف الإسلامى ، فحملة الجياع أثناء مرورها بأراضى الامبراطورية البيزنطية قامت بأعمال سلب ونهب جعلت الامبراطور البيزنطى يندم على الدعوة التى وجهها لأوروبا لطلب المساعدة ، ولم يكن جنود الحملة النظامية أفضل حالا من الجوعى فى الحملة الأولى، ولكن كان يمكن على الأقل بالنسبة للأمبراطور البيزنطى أن يتفاهم مع أمرائهم على صيغة للتعاون فكان أن تم الأتفاق بينهم على أن أى أراضى يستعيدها الصليبيون مما فقدتها الأمبراطورية البيزنطية لصالح الدولة السلجوقية قبل معركة مانزكرت فانها تعاد إلى الأمبراطورية البيزنطية أما فيما عدا ذلك فهو ملك لهم يقيمون عليه إمارتهم(١٥) .

---

١٢ - المرجع السابق ، ص ٣٢١.
١٣ - المرجع السابق ، ص ٣٢٣.
عنان ، مواقف حاسمة ، ص ص ١١٥ - ١١٦.
١٤ - رمضان ، الصراع بين العرب وأوروبا ، ص ص ٣٣٠ - ٣٣٢.
١٥ - المرجع السابق ، ص ص ٣٣٤ - ٣٣٦.

وكان إتمام هذا الاتفاق بين البيزنطيين والصليبيين بمثابة توحد لأوروبا الكاثوليكية مع أوروبا الأرثوذكسية للهجوم على العالم الإسلامي، ولقد أثمر هذا الأتفاق آثاره حيث ضمنت الدولة البيزنطية أستعادة الأراضي التى فقدتها لصالح السلاجقة، وضمن أمراء أوروبا أقامة دويلات خاصة بهم فأندفع الجانبان بحماس واتفقاعلى الهجوم على نيقية عاصمة السلاجقة ، وأساء قلج ارسلان تقدير الموقف - خاصة بعد نجاحه فى هزيمة حملة الجياع - فانهزم السلاجقة هزيمة نكراء وسقطت عاصمتهم وأعيدت إلى البيزنطيين بعد ستة عشر عاما من وقوعها لصالح السلاجقة [١٦]. ومن أهم الآثار غير المباشرة المترتبة على سقوط نيقية أنها ستساهم فى تحطيم أسطورة قوة السلاجقة التى لاتقهر لدى الأوروبيين وسيسهم هذا فى تدفق المتطوعين للحملات الصليبية خاصة من المدن الأيطالية الساحلية والتى سيكون لأساطيلها دور واضح فى الحملات الصليبية التالية [١٧] .

ولقد ساهمت هذه الهزيمة فى توجيه ضربة حاسمة للسلاجقة جعلتهم يقدرون حجم الخطر الصليبى - البيزنطى، فسعوا هم الأخرون لعقد تحالف مع قوى أخرى، ولكن الفاطميين كانوا خارج نطاق تفكيرهم - لأنهم كما سنرى - كانوا قد اختاروا التحالف مع الصليبيين ولم يجد السلاجقة غير قوة محلية اسلامية فى آسيا الصغرى تحالفوا معها وتقدموا بعد أن وحدوا القوى الاسلامية فى آسيا الصغرى لضرب الصليبيين، ولكن الأخيرين قدروا حجم الخطر فأرسلوا فى طلب المدد من القوى الصليبية الأخرى ودارت معركة ١٠٩٧ أنتهت بهزيمة السلاجقة مرة أخرى الذين قرروا بعدها الأنسحاب إلى الداخل فوقعت المدن واحدة تلو الأخرى للصليبيين دون مقاومة [١٨]. وبدأ الصليبيون ، بنجاحهم فى أكتساب مدن وأراضى ، فى تكوين إمارت لهم هناك كان أولها إمارة الرها فى شمال أقليم الجزيرة التى ساعدهم على دخولها سكانها وحاكمها من الأرمن - كما سبق بيانه - فقامت عام ١٠٩٨فى هذاالموقع الهام من شمال الجزيرة لتضحى سدايحمى ممتلكات الصليبيين التى ستتكون بعد ذلك فى الشام ضد أى هجوم اسلامى "سلجوقى "من الشرق [١٩] .

ولقد بدأ غزو الصليبيين للشام بوصولهم إلى أنطاكية عام ١٠٩٧ ولقد عبروا اليها على جسر من المدن فتحوها على طول الطريق بعضها بتسليم من حكامها المسلمين

---

١٦ - المرجع السابق ، ص ص ٣٤١ - ٣٤٢.

١٧ - المرجع السابق ، ص ص ٣٤٢ - ٣٨١.

السامرائى ، تاريخ الدولة العربية ، ص ٢٦٣.

١٨ - رمضان ، الصراع بين العرب وأوروبا ، ص ٢٤٣.

١٩ - المرجع السابق ، ص ص ٣٤٤ - ٣٤٥.

مقابل بعض المال وبعضها بترحيب من سكانها الأرمن بالأخوة في الدين (٢٠) ، ولقد أرخ وصول الصليبيين إلى أبواب الشام عام ١٠٩٧م بداية مرحلة خطيرة في تاريخ الصراع الإسلامي المسيحي استمر سنوات طويلة وتمثلت خطورته في أن الشام كان دائما بمنأى عن الصراع الإسلامي - غير الإسلامي منذ فتحه وذلك نتيجة سيطرة المسلمين على حوض البحر المتوسط . ولم يبدأ الشام في الدخول إلى ساحة الصراع إلا بمجيء الأسرة المقدونية إلى عرش الأمبراطورية البيزنطية ولكن سرعان ما أستعاد السلاجقة الشام للعالم الإسلامي ، ولكن بوصول الصليبيين إلى أبوابه سيصبح الشام المسرح الأساسي لأحداث الصراع بين المسيحيين والمسلمين ، وسيكون محل الأطماع بعيدة المدى لمسيحيي أوروبا ، ورغم هذا فإن الدولة الفاطمية لم تقدر حجم هذا الخطر ولا طبيعته وستظنه زائلا وستظل أطماعه محدودة وستسعى إلى التحالف معه ضد العدو "القائم " نعني السلاجقة .

المطلب الثاني : تراجع الدولة الفاطمية عن مركز القوة الدولية المناوئة في المشرق والمغرب على السواء :

رأينا كيف أن قيام الدولة الفاطمية ومجيئها إلى الشرق قد أوقف حركة الأسترداد البيزنطي حيث أوقفت تقدمهم في الشام عند أنطاكية ، صحيح أنها لم تستطع أن تسترد لدار الإسلام أيا من الأراضي التي كان البيزنطيون قد نجحوا في استردادها أثناء حكم الأسرة المقدونية واستغلالها تدهور أحوال الخلافة العباسية في الشرق إلا أنها وقفت مع البيزنطيين على قدم المساواة وكانت لهم بالمرصاد واستمر هذا الوضع حتى وفاة الحاكم بأمر الله عام ٤١١هـ / ١٠٢١م حين بدأ ميزان القوى يختل مرة أخرى لصالح البيزنطيين نتيجة بوادر الضعف التي بدأت تدب في أوصال الدولة الفاطمية(٢١).

فلقد أرخت وفاة الحاكم بأمر الله بداية ظهور الفرق والأنقسامات الدينية والسياسية بالتالي داخل الدولة الفاطمية والتي أدت إلى أنقسام الدولة الفاطمية بالفعل إلى أكثر من دولة تعبر كل منها عن عقيدة مذهبية معينة داخل إطار المذهب الشيعي وذلك بعد وفاة المستنصر عام ٤٨٧ . وهكذا بدأت الدولة الفاطمية تفقد مكانتها كقوة دولية مناوئة في المشرق والمغرب على السواء ، ففي المغرب بدأ نفوذها يضمحل على يد

---

٢٠ - انظر التفاصيل في :

عنان ، مواقف حاسمة ، ص ١١٨.

السامرائي ، تاريخ الدولة العربية ، ص ٢٦٥.

رمضان ، الصراع بين العرب واوروبا ، ص ص ٢٤٦ - ٢٤٧.

٢١ - رمضان ، الصراع بين العرب واوروبا ، ص ص ٢٤٩ ، ٢٥٧.

ماجد ، العلاقات بين الشرق والغرب ، ص ١١٦.

آل زيرى ولاتها على أفريقية، والذين أدى تمردهم عليها ورغبتهم فى الاستقلال عنها إلى بداية تطور من الصراع المحلى شاعت بسببه الفوضى فى المغرب واستنزف الصراع قوى الفريقين فلم ينتبها للخطر القادم من الشمال على يد قوى النورمانديين المناهضة وكذلك على يد الأيطاليين خاصة من مدينتى بيزا وجنوة (٢٢) .

وعلينا أن نتذكر هنا أن الامبراطوية البيزنطية خاضت صراعا فى العصر العباسى الثانى لاستعادة ممتلكاتها فى شرق البحر المتوسط ونجحت فى ذلك وبسطت سيطرتها أيضا أثناء ذلك الصراع على مدن أيطاليا الساحلية ، ولكن سرعان ما سعت هذه المدن لتأكيد سيطرتها واستقلالها وبدأت ثورة المدن الساحلية على حكامها البيزنطيين والذين استعانوا فيها بالمرتزقة النورمانديين الذين دخلوا كعنصر فى الصراع سرعان ما اكتسبت قوة هائلة استطاعت تحقيق انتصارات على القوات البيزنطية (٢٣)، وسرعان ما حملت أطماع النورمانديين إلى صقلية حيث كانت الأوضاع بها تمهد لسقوطها فمدوا أيديهم ليلتقطوها هم ، وصقلية كانت تابعة لسلطة الدولة الفاطمية فى مصر مع تمتعها باستقلال داخلى، ولقد قامت فتن داخلية فى الولاية دفعت حكامها إلى الاستعانة بحاكم أفريقية عام ٤٣٧ مؤكدين له أنه إذا لم يعمل على إنهاء النزاع فسوف يسلمون الجزيرة للبيزنطيين .

وفشل حاكم أفريقية فى تحقيق النظام فدخلت الجزيرة فى فترة أشبه بعهد ملوك الطوائف فى الأندلس فذهب الأمراء المتنازعون يستعينون بقوة النورمانديين عام ٤٤٤ / ١٠٥٤وتقدم النورمانديون يغتنمون الفرصة فدخلوا صقلية بمساعدة الخونة من المسلمين وبدأوا يستولون على مدنها الواحدة بعد الأخرى، وفشل المدد الذى أرسله والى افريقية فى تغيير الوضع هناك لصالح المسلمين ، واستمر فتح النورمانديين لصقلية مدة ثلاثين عاما وأنتهت بسقوطها كلها لهم عام ١٠٩١، وقبل سقوط صقلية للنورمانديين بأربع سنوات كان الأخيرون يشتركون مع الايطاليين فى الهجوم على المهدية عاصمة آل زيرى فى ولاية أفريقية عام ١٠٨٧ .

واستطاعوا أن يتغلبوا عليها نتيجة ضعف المدينة من جراء صراع حكامها مع الفاطميين ، ويعتبر كثيرٌ من المؤرخين هذه الحملة على المهدية بمثابة تمرين للأيطاليين

---

٢٢ - رمضان ، الصراع بين العرب واوروبا ، ص ص ٢٤٩ - ٢٥٠.
ماجد ، العلاقات بين الشرق والغرب ، ص ص ١١٧ - ١١٨.
حسن ، تاريخ الدولة الفاطمية ، ص ص ١٠٨ - ١٠٩ ، ص ٢٥٣ - ٢٥٥.
فايد حماد محمد عاشور ، جهاد المسلمين فى الحروب الصليبية (بيروت - مؤسسة الرسالة ، ١٩٨٥) ط٣ ، ص ص ٦٨ - ٦٩.

٢٣ - رمضان ، الصراع بين العرب واوروبا ، ص ٢٥٢.
ماجد ، العلاقات بين الشرق والغرب ص ص ١١٩ - ١٢١.

والنورمانديين على الحملات الصليبية التى سيقومون بها بعد ذلك على سواحل الشام[٢٤] . وعلى هذا النحو فقدت الدولة الفاطمية سيطرتها على المغرب الأوسط وكذا ضاعت صقلية تماماً من يدها لتتأسس بها دولة النورمانديين .

وكما كان الدور الفاطمى كقوة دولية مناوئة للأطراف غير الاسلامية ينتهى من المغرب فإنه كان ينتهى من المشرق أيضا حول نفس الفترة حيث بدأ الفاطميون يوجهون أهتمامهم مرة أخرى إلى صراعهم مع القوى الاسلامية متمثلة فى الدولة السلجوقية على حساب صراعهم مع الدول غير الاسلامية رغم الخطر الصليبى الزاحف الذى يقترب من المنطقة فى هذه الفترة ، فنجد الفاطميين ينتهزون فرصة أقتراب الخطر الصليبى ليتقدموا الى بيت المقدس يحاصرونها ويستولون عليها ثم على بقية فلسطين ثم يتقدمون مستغلين تفوقهم البحرى على السلاجقة ليسيطروا على مدن سواحل الشام كلها عدا طرابلس ، وهكذا بدلا من أن يوحدوا جهودهم مع السلاجقة فى الشام لمواجهة الخطر الصليبى القادم فإنهم يساهمون فى تفتيت بلاد الشام ويضاعفون من أثر سقوطها فى يد الأمراء المحليين على ضعف مقاومتها للغزو الصليبي[٢٥] .

ومن الواضح أن الدولة الفاطمية لم تقدر حجم أو طبيعة أو هدف الزحف الصليبى وقدرت أنها يمكنها الإفادة منه بالتحالف معه لتحقيق أنتصارات على السلاجقة المسلمين فى جنوب الشام ، وكان مشروع التحالف الذى فكروا فيه هو أن يسهلوا للصليبيين الحصول على أنطاكية على أن يكون بيت المقدس للفاطميين . ومن أستقراء الفاطميين للسوابق التاريخية أدركوا أن الدولة البيزنطية فى أزهى عصورها لم تستطع أن تتعدى بأملاكها حدود أنطاكية، ولم يقدروا أن الصليبيين ممكن أن يكونوا أشد خطورة من البيزنطيين ، ولم يتصوروا أن تتعدى أحلامهم أبعد من حدود أنطاكية ، وكان سوء التقدير هذا لحجم الخطر الصليبى هو الذى مهد لهم احتلال الشام [٢٦] .

فلقد رأينا كيف أن الصليبيين وصلوا إلى أبواب أنطاكية عام ١٠٩٧ ظانين أنهم سيواجهون مهمة سهلة ، ولكن أنطاكية كانت من أقوى المدن تحصينا من ناحية التضاريس الطبيعية ، كما أن أهلها أستبسلوا فى الدفاع عنها ، ومن المؤكد أن مصير الحروب الصليبية كان سينقلب رأسا على عقب لو لم تقع لهم هذه المدينة، ولكن تمزق

---

٢٤ – الصراع بين العرب واوروبا ، ص ص ٢٥٢ – ٢٥٤.
– ماجد ، العلاقات بين الشرق والغرب ، ص ص ١٢٢ – ١٢٥.
– حسن ، تاريخ الدولة الفاطمية ، ص ص ١١١ ، ٢٥٥ – ٢٥٧.
– عويس ، دراسة فى سقوط ثلاثين دولة اسلامية ، ص ص ١٥١ – ١٥٢.
٢٥ – رمضان ،الصراع بين العرب واوروبا ، ص ص ٢٥٣ – ٢٥٤.
– المطوى ، الحروب الصليبية ، ص ص ٣٥ – ٣٦.
٢٦ – رمضان ، الصراع بين العرب واوروبا ، ص ٢٥٠.

القوى الاسلامية - خاصة السلجوقية والفاطمية - وعدم قدرتهم على أدراك الخطر وتوحيد صفوفهم وعجزهم عن الأرتفاع فوق خلافاتهم وتقديم المعونة لأهلها المحاصرين كان سببا فى سقوطها بعد تسعة أشهر من المقاومة وبعد بعض الانتصارات غير الحاسمة التى حققها تحالف ولاة دمشق وحمص (٢٧) .

وفى تلك الظروف العصيبة التى كانت تمر بها أنطاكية لعبت الأنقسامات الفاطمية السلجوقية دورا خطيرا فى ترجيح كفةالصليبيين . ذلك أن الفاطميين أنتهزوا فرصة أنشغال السلاجقة بالصراع مع الصليبيين فحركوا جيشا تمكن من فتح بيت المقدس لصالحهم عام ١٠٩٨ - كما سبق بيانه - وكانت قد وفدت إلى معسكر الصليبيين أمام أنطاكية قبل ذلك بعثة فاطمية للتفاوض على عقد تحالف مع الصليبيين ضد خصومهم من "أهل السنة" (٢٨) .

ولقد أدى نجاح الصليبيين فى فتح أنطاكية والذى مهدت له الانقسامات الاسلامية والموقف الفاطمى غير الواعى إلى انفتاح الطريق أمامهم إلى الشام كله لأنها مفتاحه ، وكانت المحطة التالية التى أختاروها هى بيت المقدس، التى ما أراد الفاطميون أن يتحالفوا معهم إلا بغرض السيطرة الفاطمية عليه، وهنا تبدل الموقف الفاطمى تماما - كما سنرى - .

المطلب الثالث : صعود دولة المرابطين فى المغرب والأندلس وتصديها لحركة الاسترداد المسيحى :

رأينا كيف دخلت الأندلس فى دور أضطراب وفوضى مهد لظهور الفترة الثانية من حكم ملوك الطوائف بعد وفاة عبدالملك المظفر ، وسمعنا البابا يحث الأسبان المسيحيين على عدم الاشتراك فى الحملات الصليبية على المشرق ليستكملوا دور الاسترداد المسيحى للأندلس الاسلامية ، والواقع أن حركة الاسترداد المسيحية بقيادة فرناندو والد الفونسو السادس كانت قد أتخذت صفة دولية ودينية بدءاً من عام ١٠٦٣ عندما وافق البابا على شد أزره فى قتاله للمسلمين بأن نظم حملة اشترك فيها فرسان وأمراء فرنسيون وأيطاليون ونورمانديون ساعدت فرناندو فى حروبه ضد المسلمين فأصبح أمراء طليطلة واشبيلية وبطليموس وسرقسطة يدفعون له الجزية كسبا لوده

---

٢٧ - المرجع السابق ، ص ص ٣٥٠ - ٣٥٥.

- المطوى ، الحروب الصليبية ص ص ٤٩ - ٥١.

٢٨ - رمضان ، الصراع بين العرب واوروبا ، ص ٣٥٤.

- عنان ، مواقف حاسمة ص ١١٨.

- عاشور ، جهاد المسلمين ص ص ١٠٩ - ١١٠.

- حامد زيان غانم زيان ، الصراع السياسى والعسكرى بين القوى الاسلامية زمن الحروب الصليبية (القاهرة: دار الثقافة للنشر والتوزيع ، ١٩٨٣) ، ص ص ٤٥ - ٤٦ .

واتقاء لشره، ولم يستطع المسلمون لتفرقهم أن يستفيدوا من أضطراب أحوال الممالك المسيحية الذى أعقب وفاة فرناندو والصراع على السلطة حتى مجيء الفونسو السادس ، والذى بدأت على يديه حركة استرداد مسيحية سقطت فيها مدن عظام كان من أهمها طليطلة التى كان لوقوعها للمسيحيين عام ١٠٨٥دوى عظيم وأثر نفسى هائل حيث هى عاصمة القوط القديمة وكان فتحها ارهاصة لطرد المسلمين من الأندلس وعودة ملك القوط ، وهكذا سما مركز الفونسو وأكتسب ثقة قوية فى تعامله مع ملوك الطوائف وبدا أن حركة الاسترداد المسيحية ماضية فى طريقها إلى النهاية (٢٩) .

ولكن فى هذه الفترة الحرجة من تاريخ الأندلس كان المسرح يتهيأ فى المغرب لظهور قوةاسلامية ضارية ستقلب ميزان التعامل الدولى بين المسلمين وغير المسلمين فى المغرب لصالح القوى الاسلامية وهذه هى دولة المرابطين (الملثمين) والتى ظهرت أول ما ظهرت فى الصحراء الكبرى وتوسعت أولا جنوبا فى بعض المناطق الأفريقية مثل غانا ثم بدأت تتجه شمالا حتى ظهروا فى المغرب عام ٤٥٢ فى نفس الفترة تقريبا التى ظهر فيها السلاجقة فى المشرق، وتوسعوا وامتدوا على طول ساحلى البحر المتوسط والمحيط الأطلنطى ، وفى ذات الوقت الذى كان المرابطون يتوسعون فيه من قلب أفريقيا شمالا صوب الساحل ، كان الفونسو السادس يتوسع جنوبا صوب الساحل ايضا ولكن على ضفته الأخرى، وهكذا بدأ وكأن فى المغرب يستعد لتواجه الخصمين وجها لوجه. وفى الوقت الذى سقطت فيه طليطلة للفونسو عام ٤٧٨ كان يوسف بن تاشفين أمير المرابطين يستكمل توسعه فى الجزائر ويضمها عام ٤٧٤ ، وهكذا جذبت تلك القوة المسلمة الصاعدة فى المغرب أنظار ملوك الطوائف فى اسبانيا فأرسلوا يستنجدون بها ويستنصرونها على مسيحى الشمال، ولما كانت دولة المرابطين نشأت فى "رباط "دينى وكان توجهها دينياً كله، كان الجهاد سياسة أساسية لها ونصرة المسلمين ركنا من اركانها فكانت استجابتهم لطلب الذهاب إلى الأندلس "لأن "مجاهدة الأفرنج فريضة" ولأن "واجب المسلم أغاثة أخيه المسلم "فكان عبور المرابطين للأندلس رغم توجس بعض ملوك الطوائف هناك من قوتهم بل وتفضيلهم مداراة الفونسو ومصانعته على استقدام هؤلاء "المسلمين الأقوياء "(٣٠) .

---

٢٩ – رمضان ، الصراع بين العرب واوروبا ، ص ص ٢٧٤ – ٢٧٦.
– السامرائى ، تاريخ المغرب العربى ، ص ٢٦٢.
– عنان ، مواقف حاسمة ص ص ٢٦٥ – ٢٨١.
– عويس ، دراسة سقوط ثلاثين دولة اسلامية ص ص ٣٠ – ٣١
٣٠ – رمضان ، الصراع بين العرب واوروبا ، ص ص ٢٨٢ – ٢٨٣.
فى نشأة دولة المرابطين وطبيعتها انظر :
– رمضان ، الصراع بين العرب واوروبا ، ص ص ٢٨٧ – ٢٨٢.
– السامرائى ، تاريخ المغرب العربى ، ص ص ٢٤٤ – ٢٦١.
– ابراهيم على طرخان ، امبراطورية غانا الاسلامية (القاهرة : الهيئه المصرية العامة للتاليف والترجمة والنشر، ١٩٧٠) ص ٤٦ ومابعدها .

ويعتبر المؤرخون عبور المرابطين للأندلس حدثا من أحداث التاريخ الكبرى وعلامة بارزة فى تاريخ المواجهة الاسلامية / غير الاسلامية ، ذلك ان المرابطين لما عبروا الأندلس ووجدوا ما عليه حال المسلمين من تخاذل وتقاعس أستفتوا فقهاءهم فأفتوهم بضرورة البقاء والقضاء على ملوك الطوائف وتوحيد الأندلس بإعتبار هذا واجبا دينيا، وهكذا حدث التحول الكبير فى الأندلس من التمزق والضعف إلى الوحدة والقوة، وكان هذا نذيرا بأن تتبوأ الأندلس مرة أخرى مكانتها كقوة دولية كبرى تردع القوى الأخرى بقوتها وتقف لهم موقف الند. وهكذا فقد أنقذوا بوابة العالم الإسلامى الغربية من السقوط فى وقت كان فيه المشرق يواجه خطر الحملات الصليبية ، ويتعاظم الدور الذى لعبه المرابطون عندما ندرك طبيعة الخصم الذى كانوا يواجهونه، فإذا كان السلاجقة قد بثوا روحا جديدة فى المشرق الإسلامى فانهم قد قاموا بهذا فى مواجهة امبراطورية عجوز كانت تحيا وقتها فورة مؤقتة لاتخفى حقيقة هرمها، ثم أن هذا الانبعاث لم يتم للسلاجقة أكثر من أربعين عاما ، أما المرابطون فى الأندلس فكانوا يواجهون قوة بازغة ودولة فتية هى قشتالة، ثم تصدت من ورائهم لممالك مسيحية أخرى لاتقل شبابا وظلت مدافعة عن راية الإسلام فى المغرب الإسلامى قرابة قرن من الزمان(٣١) .

ولقد كانت أول خطوة للمرابطين على أرض الأندلس نصرا حاسما عندما استطاعوا أن يهزموا قوات المعسكر الصليبى فى معركة الزلاقة عام ٤٧٩ / ١٠٨٦. ولقد ساهم النصر فى استرداد الاندلس ثقته بنفسه حيث استعاد ذكريات الحاجب المنصور بن عامر كما أن النصر أورث هيبة المرابطين فى نفوس الممالك المسيحية ، ثم الأهم من ذلك أن يوسف بن تاشفين متجرأ بهذا النصر أرسل إلى الخليفة العباسى يطلب الشرعية لإمارته، فحصل عليها بفتوى من الأمام الغزالى وكان هذا أول أتصال بين الأندلس والخلافة العباسية منذ قيام الدولة الأموية فى الأندلس قبل أكثر من ثلاثة قرون عام ١٣٨/٧٥٦ (٣٢) .

ولقد حافظ يوسف بن تاشفين على طبيعة مهمته فى الأندلس كما فهمها، فبعد أن نصر ملوك الطوائف هناك قفل راجعا إلى المغرب، ولكن ما لبث الأمر فى الأندلس أن عاد إلى ما كان عليه من تناحر ملوك الطوائف الذى أتاح الفرصة لملوك الشمال المسيحى لأن يستفيقوا من صدمة الزلاقة، وإدراك مدى الخطر الذى يشكله المرابطون عليهم، بدأوا ينظمون قواهم تمهيدا لضرب المرابطين ، ولما أدرك يوسف بن تاشفين أن

٣١ – رمضان ، الصراع بين العرب واوربا ، ص ص ٢٨٦ – ٢٨٧.
٣٢ – المرجع السابق ، ص ص ٢٨٨ – ٢٩٠.
– السامرائى ، تاريخ المغرب العرب ، ص ٢٦٣.
– عنان ، مواقف حاسمة ، ص ص ٢٨١ – ٢٩٢
– عويس ، دراسة لسقوط ثلاثين دولة اسلامية ، ص ص ٣٢ ، ٣٥ – ٣٦.

وصيته لملوك الطوائف بأن يتحدوا لأن تجرؤ المسيحيين على المسلمين جاء نتيجة "تشتتنا واستعانة البعض بهم على البعض "قرر ضرورة الرجوع فعادوا مرة أخرى عام ١٨٤ولكن هذه المرة لقتال ملوك الطوائف الذين سارعوا بالاستعانة بملوك الممالك المسيحية ضد المرابطين مكررين نفس أخطاء الماضى وعلى رأسها تسليهم المدن الاسلامية مقابل معاونة المسيحيين لكل منهم على الاحتفاظ بما تحت يده أو بجزء منه(٣٣).

ولقد دار هذا الصراع بين المرابطين فى جانب وملوك الطوائف ومسيحىٌ الشمال الأسبانى فى جانب أخر فى نفس وقت تهيؤ المسرح لخروج الحملات الصليبية وهنا نستطيع أن نفهم دعوة البابا للأسبان المسيحيين بعدم الخروج مع الحملات الصليبية وحثهم على البقاء لجهاد المسلمين فى الأندلس ، ولقد تكالب الأعداء على المرابطين حتى سقطت بلنسية لملوك الأسبان عام ١٠٩٤ وكان لسقوطها شجن وذلك أن أهلها كانوا قد أعلنوا الطاعة للمرابطين ولكنهم اضطروا للتسليم للمسيحيين تحت وطأة المجاعة وبسبب انشغال المرابطين فى حروبهم ضد ملوك الطوائف ، وكان سقوط بلنسية على هذا النحو نقطة تحول فى الصراع الإسلامى / المسيحى فى الأندلس حيث أدى سقوطها إلى الصراع بين يوسف بن تاشفين والأمير المسيحى الذى سقطت له بوصفه صراع حياه أو موت حتى أستعادها المرابطون عام ١١٠٢لتبدأ مرحلة مد مرابطى فى الأندلس اضفى عليه اهمية أنه زامن أشتعال الحروب الصليبية فى المشرق وتقدمها مستفيدة من تناحر القوى الاسلامية هناك .(٣٤)

المبحث الثاني
المد الصليبى فى المشرق يوازنه المد المرابطى في المغرب
من ٤٩١ ـ ٥٢٢ هـ /١٠٩٧ ـ ١١٢٨م

المطلب الأول : من وصول الصليبيين إلى أبواب الشام وحتى ظهور عماد الدين زنكي وتمهيده لعهد صلاح الدين :

بلغت العلاقات الفاطمية / السلجوقية والفاطمية / الصليبية والسلجوقية /الصليبية حداً من التشابك والتداخل فى هذه الفترة بحيث يفضل عدم الفصل فى دراستها بل تناولها متشابكة ومتداخلة كما حدثت على مسرح الأحداث بالفعل .

٣٣ – رمضان ، الصراع بين العرب وأوربا ، ص ص ٢٩١ – ٢٩٤.
– السامرائى ، تاريخ المغرب العربى ، ص ص ٢٦٤ – ٢٦٦.
٣٤ – رمضان ، الصراع بين العرب وأوربا ، ص ص ٢٩٦ – ٣٠٤.

وكنا قد رأينا فى المبحث السابق كيف أن الفاطميين نظروا إلى مقدم الصليبيين على أنه فرصة لتخليصهم من منافسة السلاجقة القوة الاسلامية المناوئة لهم، ولم ينتبهوا إلى أن الشعار الذى خرج وراءه الصليبيون كان يستدعى توحد القوى الاسلامية كلها تحت شعار واحد أيضا .

ولما استفاقوا لهذه الحقيقة كان الصليبيون يدهمون بيت المقدس، وكان أول رد فعل فاطمى لهذا الحدث هو محاولتهم التفاهم مع الصليبيين فأرسلوا سفارة لهم تعرض تعهد الفاطميين بتسهيل مهمة الحج لهم فى شكل جماعات من مائتى إلى ثلاثمائة حاج بشرط ألا يكونوا مسلحين وذلك مقابل أحتفاظ الفاطميين ببيت المقدس ويظهر من هذا العرض أن الفاطميين كانوا مازالوا يعتقدون أن الدافع الدينى هوالكامن وراء الحملات الصليبية فرأوا أن يوفروه لهم درءا للقتال وتحقيقا لما يريدون من تسيد .

ولكن رفض الصليبيون العرض الفاطمى فأضحى لامفر من وقوع الصدام بينهما، ولقد استعد الفاطميون للزحف الصليبى مستفيدين من سيطرتهم فى ذلك الوقت على فلسطين وساحل الشام ، وهنا ظهرت فكرة فى مجلس الحرب الصليبى وهى الهجوم على مصر على أساس أن مفاتيح بيت المقدس الحقيقية هى فى القاهرة، وذلك فى إشارة واضحة إلى أدراكهم مدى الأرتباط الأمنى بين جبهتى مصر والشام وهو ما يعد صدى للتفكير الأستراتيجى اذ رأيناه ونراه دائما لدى كبار القادة المسلمين، رغم أن هذه الفكرة لم توضع موضع التنفيذ فى حينها إلا أنها ستظل مسيطرة على التوجه الاستراتيجى للحملات الصليبية وسيحاولون وضعها موضع التنفيذ أكثر من مرة فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر، أما فى حينه فقد ركز الصليبيون على بيت المقدس ذاته وبالفعل تقدموا لحصاره فلم تصمد المدينة أكثر من أربعين يوما لعدم تلقى الفاطميين بها أى مساعدة من جهات أخرى فسقطت بيت المقدس عام ١٠٩٩ .(٣٥)

وبعد أن أسس الصليبيون أمارة لهم فى القدس واستقروا على حكمها واصلوا تقدمهم بسهولة فى أملاك الفاطميين فى فلسطين فوقعت مدنها تحت قبضتها الواحدة تلو الأخرى، وكثيرا ما كان أهل المدينة يسلمونها لهم لأيمانهم بعدم جدوى المقاومة لأنعدام وسائل الدفاع فيها (٣٦)، وعند هذا الحد كان الفاطميون قد بدأوايستفيقون من صدمة الهجمة الصليبية على أملاكهم فبدأوا يعدون العدة لمواجهتهم فعسكروا فى عسقلان أستعدادا لملاقاة الصليبيين للذود على أملاكهم فى الشام ولكن بلغ تجرؤ

٣٥ – المرجع السابق ، ص ص ٣٥٧ – ٣٥٩.
– عنان ، مواقف حاسمة ، ص ١١٩.
– المطوى ، الحروب الصليبية ص ص ٥٢ – ٥٥.
– السامرائى ، تاريخ الدولة العربية ، ص ص ٢٦٥ – ٢٦٦.
٣٦ – رمضان ، الصراع بين العرب واوروبا ، ص ٣٦٢.

الصليبيين أن بدأوا هم بالهجوم فأوقعوا بهم هزيمة نكراء عام ١٠٩٩ ردتهم إلى مصر، ولم يفتأ الفاطميون يرسلون الحملات من مصر على الصليبيين أبتداء من ١١٠٢حتى عام ١١١٥ كل عام تقريبا لكن دون جدوى تذكر لأن أوضاع الصليبيين فى بيت المقدس كانت على خير حال، وفى الفترة القصيرة التى سادت فيها الفوضى هناك بعد أنتصارهم فى عسقلان بسبب تنازع أمرائهم على الغنيمة لم تتقدم أى قوة اسلامية للاستفادة من الوضع، ولما جهز الفاطميون أول حملة لهم على بيت المقدس عام ١١٠٢ كانت أوضاع الصليبيين هناك قد أستقرت (٣٧)، وسرعان ما استغل الصليبيون مواقعهم التى احتلوها كقواعد ينطلقون منها لاحتلال مدن الشام كلها ، وفى الوقت الذى كان فيه الصليبيون يتلقون المساعدات من الأساطيل الأيطالية من بيزا وجنوة والبندقية، وأنعدمت المساعدات الفاطمية لتلك المدن التابعة لها، وعندما كانت ترسل المدد كان ضئيلا بالمقارنة بالمتوفر للصليبيين ، وهكذا سقطت المدن الساحلية فى الشام المدينة تلو الأخرى أما بعد نضال ضعيف مثل أرسوف أو بالتسليم بالتبعية للصليبيين مثل عسقلان وقيسارية وعكا (٣٨) .

ولقد شجعت إقامة الصليبيين أمارة لهم فى بيت المقدس البابا على الدعوة لحملة صليبية ثانية ، وشجع نجاح الصليبيين هناك وأنكسار السلاجقة على انضمام الكثيرين لهذه الحملة طمعا فى المكاسب، فخرجت هذه الحملة عام ١١٠٠ ولكن لتواجه موقفا اسلاميا غير الذى واجهته الحملة الأولى فالتشرذم والصراع بين القوى الاسلامية والذى أدى إلى الهزيمة فى المرة الأولى، حل محله فى المرة الثانية تحالف بين السلاجقة الروم وملك حلب فخر الدين رضوان بن تتشى والملك غازى كمشتكين فكان أنتصار الجانب الإسلامى حازما مما أعاد للسلاجقة ثقتهم بأنفسهم .

وكان من آثار هذا الأنتصار الهام أنه سد طريق أسيا الصغرى فى وجه الصليبيين لعشرات قادمة من السنين حتى أواخر القرن الثانى عشر تقريبا مما أدى إلى تزايد أعتماد الصليبيين على أساطيل مدن أيطاليا لجلب المزيد من الصليبيين إلى مملكة بيت المقدس عن طريق البحر مما ضاعف من مكاسب البندقية وجنوة وبيزا وزاد من أزدهارها (٣٩) .

وبدلا من أن يستخلص المسلمون العبرة مما جنوا بفضل توحد قواهم فيستمرون فى هذا لأقامة تحالف بين السلاجقة والفاطميين لتستعيد دار الإسلام فلسطين وبيت المقدس، فإنهم أداروا ظهورهم عنها مما أضطر الفاطميين أن يخوضوا معركتهم

٣٧ – المرجع السابق ، ص ص ٣٦٤ – ٣٦٧.

٣٨ – المرجع السباق ، ص ٣٦٨.

٣٩ – المرجع السابق ، ص ص ٣٧٠ ، ٣٧٤ – ٣٧٥.

– السامرائى ، تاريخ الدولة العربية ، ص ٣٦٧.

وحدهم فكان نصيبهم الهزيمة فى كل الحملات التى أرسلوها برية أو بحرية فأدى فشل المسلمين فى تجاوز خلافاتهم إلى بقاء القدس فى يد الصليبيين (٤٠) .

والواقع أن الفاطميين لم يتوانوا عن محاربة الصليبيين منذ أن تكشفت لهم نواياهم، ولكن تأخر ادراكهم لهذا الخطر فاستفحل بالإضافة إلى أن عملهم وحدهم ضد الصليبيين المتحدين أفشل كل حملاتهم وذهب جهدهم أدراج الرياح وسقطت ممتلكاتهم الواحدة وراء الأخرى، وكان أهمها المدن الساحلية فى الشام مثل عكا التى سقطت بفضل مساعدة الأساطيل الأيطالية للصليبيين كما ذكرنا دون تلقيها مساعدات من الدولة الفاطمية فى حينه، فالتحرك الفاطمي كان يأتي دائما متأخرا، ففى عقب سقوط كل إمارة كانوا يجهزون حملة تذهب للنجدة بعد أن يكون الأمر قد استتب للصليبيين، ومن المؤكد أيضا أن أحد أسباب فشل الجهود الفاطمية هو التدفق المستمر للحملات الصليبية محمولة فى الأساطيل الأيطالية لتكون قوة بشرية معاونة على الزحف المستمر للتوسع فى ساحة المشرق الإسلامى (٤١) .

مع التأكيد على ما ذكرناه من ضعف المساعدات الفاطمية لأقاليم الشام وانعدام التناصر الإسلامى لمنع سقوطها مما دفع العديد من هذه المدن إلى التسليم للصليبيين لما ظهر من قصور المسلمين فى حمايتها، فنحن نؤكد هنا أن بعض هذه المدن سقطت للصليبيين بسبب الخيانة المباشرة للأمراء المسلمين المحليين ، كما كان الحال فى سقوط طرابلس لهم عام ١١٠٢ نتيجة لمهادنة بنى عمار أمراء انطرسوس لهم مقابل تركهم طرسوس لهم ، ولكن لما ظهر غدر الصليبيين وأحتلوا المدينتين أرتمى بنو عمار فى أحضان القوى الاسلامية واستنقذوا المدينة بصعوبة ولكن لتعود محاولات الصليبيين لاحتلالها مرة أخرى ، ولما استنصر أهل طرابلس الخليفة العباسي والسلطان السلجوقي لنجدتهم لم يجدوا إلا الكلمات المعسولة فتوجهوابطلبهم هذا إلى الفاطميين الذين تقدموا بالفعل ودخلوها برضاء أهلها مقابل الدفاع عنها ولكنها سقطت للصليبيين بعد ذلك بست سنوات فى فورة من فورات توحدهم ، وأعقب سقوطها سقوط بانياس عام ١١٠٩ ثم حصن الأكراد عام ١١١٠ورفينه ١١١٥ وهكذا انكشف مدى أنحلال وضعف الخلافة العباسية ، كما ظهر أثر التنافس بين القوى الاسلامية واضحا ، كل منها يسرع لدخول المدينة الاسلامية منتهزاظروف ضعفها وهوانها .(٤٢)

والواقع أن التهاون والتخاذل لم يكن فى الجانب الإسلامي وحسب، ولكن كان أيضا للصليبيين نقاط ضعفهم الكثيرة وتخاذلهم ، ولأن الصليبيين لم يأتوا استجابة لدعوة

---

٤٠ – رمضان ، الصراع بين العرب واوروبا ، ص ٣٧٦.

٤١ – المرجع السابق ، ص ص ٣٧٦ – ٣٨٢.

٤٢ – المرجع السابق ، ص ص ٣٨٩ – ٣٩١.

– السامرائى ، تاريخ الدولة العربية ص ص ٢٦٦ – ٢٦٧.

الجهاد الدينى فحسب فإنهم كانوا يتصارعون فى المشرق مع بعضهم البعض ، وكذا مع البيزنطيين ، صراعات مطامع ومصالح شخصية وكانت تؤدى هذه الصراعات إلى ضعفهم ، ولكن المشكلة أن المسلمين كانوا هم الآخرون متشرذمين فلم يستطيعوا الإفادة من هذا الوضع الصليبى المتخاذل ، وعلى الرغم من ذلك أضحى من الملاحظ أن المسلمين بعد امتصاصهم للصدمة الأولى للحملات الصليبية، أصبحوا قادرين على نسيان خلافاتهم وتحقيق نوع من التحالف فى فترات قوة الصليبيين وذلك مثلما حدث عام ١١٠٣ عندما حاول الصليبيون فى الرها التوسع بالاستيلاء على حران لقطع الصلة بين المسلمين فى العراق وفارس فى جانب وبين أخوانهم فى الشام فى الجانب الآخر ثم الاستيلاء على الموصل نفسها وتأمين مركز الصليبيين فى الجزيرة والشام . ولكن هذه الخطة الطموحة استنفرت القوى الاسلامية فى شمال أقليم الجزيرة لتتحد، فتناسى أمراء هذه المنطقة المسلمون خلافاتهم ووحدوا جهودهم فانتصروا على الصليبيين وأوقفوا من ثم توسعهم من جهة الشرق على حساب المسلمين بل وأتاح لهم ذلك فرصة الانقضاض فى الشام لاسترداد ما ضاع لولا ضعف وتخاذل أمير حلب وانفراط عقد التحالف الإسلامى من جديد الأمر الذى مكن أمير أنطاكية من التقدم للاستيلاء على مناطق جديدة [٤٣] .

وهكذا دارت العلاقات بين المسلمين والصليبيين يتحالفون معهم أحيانا ضد بعضهم البعض ويتحالفون مع بعضهم البعض أحيانا أخرى ضد الصليبيين عندما يظهرلهم خطرهم مستشريا ، وأحيانا ينصرون بعضهم البعض وأحيانا أخرى يغلقون فى وجوه بعضهم البعض أبواب التعاون . وبدأت المعارك تدور سجالا أحيانا ينتصر المسلمون وأحيانا ينهزمون ، وكانوا عادة ما ينتصرون بتوحدهم فى حلف جزئى وأما هزيمتهم فكانت فى معظم الأحيان لتفرقهم ، ورغم بعض النجاحات الاسلامية التى كان بعضها محدود الآثار وبعضها الآخر ذا آثار عميقة ولكن لم يقدر لها أن تثمر لأن كل نشاط المسلمين اتخذ شكل الغارات والحملات المحدودة ولم يقدر له أن يتوحد ليشكل حركة تحرير كبرى للغزو الصليبى [٤٤]، ولذلك ظلت موازين القوى بين المسلمين والصليبيين دون تغير كبير ، فالصليبيون يحتلون أجزاءً متفرقة من الأقاليم تفصل بينها إمارات ومدن اسلامية ، والمسلمون يشنون على الصليبيين الغارات من آن لآخر يهزمون أحيانا وينتصرون أحيانا أخرى ويحررون بعض المدن ليستردها الصليبيون مرة أخرى عندما تتغير علاقات التحالف بين المسلمين إلى التنازع والتناحر، ولن تتغير هذه الأوضاع إلا عندما تظهر قوة اسلامية تؤمن بأن الخطوة الأولى نحو طرد الصليبيين هى فى توحيد المسلمين، وستكون هذه القوى هى الأتابكية الزنكية .

---

٤٣ -رمضان ، الصراع بين العرب واوروبا ، ص ص ٣٩٩ - ٤٠٠.

٤٤ - المرجع السابق ، ص ص ٣٠٢ - ٣١١ .

المطلب الثانى : دولة المرابطين في المغرب الإسلامى تعيد توازن القوى الذى أختل لصالح الصليبيين فى المشرق الإسلامى :

رأينا كيف أن المرابطين عبروا من المغرب إلى الأندلس لنصرة ملوك الطوائف هناك كأخوة فى الدين، ورأينا أنهم أدركوا مدى تخاذل ملوك الطوائف وأن هذا يشكل خطرا حقيقيا على سلامة أملاك المرابطين فى المغرب لأن هذا يمثل ضعف خط دفاعهم الشمالى فى الأندلس أمام مسيحيّ الشمال وأن هذا جعلهم يتخذون قرار العبور إلى الأندلس مرة أخرى ولكن هذه المرة لا كأصدقاء ولكن كفاتحين لأراضى الأندلس الاسلامية ، ولقد أستطاعت جيوش المرابطين بالفعل فى فترة لاتتجاوز عشرين عاما فيما بين ٤٨٣ - ٥٠٢ / ١٠٩٠ - ١١٠٩ أن تستولى تباعا على دول ملوك الطوائف .

ولكن جهاد المرابطين فى الأندلس لم يكن مقصوراً على مجابهتهم لملوك الطوائف وإنما هم خاضوا أيضا صراعا قويا مريرا مع الممالك الاسبانية المسيحية حيث لجأ كثير من ملوك الطوائف إلى الأستعانة بالأسبان المسحيين .

وكان من أشهر هذه الشخصيات الأسبانية المسيحية التى تردد اسمها فى ملاحم الصراع بين المسلمين والمسيحيين فى أسبانيا فى هذه الفترة هو السيد القمبيطور الذى استعان به بنو هود فى سرقسطة والذى أستطاع أن يوقع بالمرابطين هزيمة عسكرية تعتبر سقطة فى تاريخهم وهى دخوله بلنسية واحتلالها عام ١٠٩٤، ولكن اضطرام المرابطين بروح جهاد خالصة مخلصة كان الدافع الذى مكنهم من الصمود ومن استرجاع بلنسية عام ١١٠٢، وبانتهاء المرابطين من أمر السيد القمبيطور، كان عليهم أن يتفرغوا لملك قشتالة الفونسو السادس بطل حركة الاسترداد المسيحى والذى ظل رغم هزيمتهم المنكرة له فى الزلاقة عام ٤٧٩هـ / ١٠٨٦م قائما متحديا . ولقد أوقع المرابطون الهزيمة بالفونسو أكثر من مرة أثناء أنشغالهم بأمر السيد القمبيطور فى الشرق ، وكذا بعد القضاء عليه . ولقد هزم المرابطون قوات الفونسو السادس عام ٤٨٥هـ /١٠٩٢م ومرة أخرى عام ٤٩١هـ / ١٠٩٨م .(٤٥)

وبعد وفاة يوسف بن تاشفين مؤسس دولة المرابطين فى المغرب عام ٥٠٠ هـ/ ١١٠٧م كانت الأندلس قد خضعت كلها لحكم المرابطين المباشر، باستثناء سرقسطة التى احتفظ بالسلطة فيها بنو هود بالاتفاق مع ابن تاشفين .

وهكذا ثبت يوسف بن تاشفين لواء الإسلام فى الأندلس وأعاد لها وحدتها الاسلامية بعد طول تمزق ثم أجج حرب جهاد ضد الممالك الاسبانية المسيحية بعد أن

---

٤٥ - المرجع السابق ، ص ص ٣٠٢ - ٣٠٣.
- السامرائى ، تاريخ المغرب العربى ، ص ٣٧ ومابعدها.

كانت قد خبت جذوتها اثناء عصر ملوك الطوائف لتخاذلهم وأستعانتهم بالمسيحيين ضد بعضهم البعض، واستطاع من ثم أن يكسر المد الاستردادى الذى قادته قشتالة تحت حكم ملكها الفونسو السادس فأعاد الأندلس إلى وضع القوة مرة أخرى فى تعاملها مع أوروبا السيحية (٤٦)

ولقد ظن الفونسو السادس أن الفرصة قد واتته بموت يوسف بن تاشفين للإيغال مرة أخرى فى أرض الأندلس الاسلامية فأخذ يتجرأ على الحدود ولكنه أصطدم بعلى بن يوسف بن تاشفين الذى تولى بعد أبيه ولم يقل عنه درجة فى الحماسة للجهاد وسرعان ماانتقل على بن يوسف بن تاشفين من المغرب إلى أرض المواجهة فى الأندلس ليشعر العدو أنه قائم فى الميدان بجوار أخيه الذى ولاه أمرالأندلس وكلفه بالغزو فيها، وسرعان ما كان الانتصار الباهر الذى لايقل عن انتصار الزلاقة وذلك فى أقليس عام ٥٠١هـ/ ١١٠٨م والتى أدت إلى انقسام القوات المسيحية وفقدان حركة الاسترداد المسيحى دفعتها لفترة بعد ذلك خاصة لوفاة الفونسو السادس غما وكمدا بعد هزيمة بعام واحد . ١١٣١أقليش (٤٧)

وتمثلت الأهمية الكبرى لأنتصارات المرابطين فى الأندلس فى أنها زامنت مناخ الحروب الصليبية فى المشرق فى وقت كانت فيه الدولة السلجوقية فى الشرق قد تفككت بصورة لم تمكنها من المواجهة الحاسمة لهذا الخطر المسيحى الزاحف من أوروبا، وهكذا أعاد المرابطون فى الغرب التوازن إلى ميزان القوى الإسلامى / المسيحى الذى أختل فى الشرق ولو إلى حين (٤٨).

فالعد التنازلى للمرابطين سرعان ما بدأ وذلك تحت وطأة الخطر الأسبانى المسيحى مع انفجار مشكلات داخلية فى المغرب والأندلس الاسلامية فى ذات الوقت ثقلت على عاتق المرابطين وأضعفت قدراتهم على ضرب الخطر الاسبانى أو تحجيمه، فبعد موت الفونسو السادس واهتزاز صفوف الأسبان المسيحية لفترة ما لبثوا أن وحدوا موقفهم مرة أخرى فاستأنفوا غزواتهم ضدالمدن الاسلامية ، وكان هدفهم المحورى هو سرقسطة التى تركها يوسف بن تاشفين لحكم بنى هود وما لبثت أن وقعت سرقسطة فى يد الأسبان المسيحيين عام٥١٢ دون أن تجدى حملات المرابطين المتوالية لاستعادة

---

٤٦ - رمضان ، الصراع بين العرب واوروبا ، ص ٣٠٣.
- بيضون ، الدولة العربية فى اسبانيا ، ص ٣٨٠.
٤٧ - رمضان ، الصراع بين العرب واوروبا ، ص ص ٣٠٣ - ٣٠٤.
- السامرائى ، تاريخ المغرب العربى ، ص ٢٧١.
٤٨ - رمضان ، الصراع بين العرب واوروبا ، ص ٣٠٤.

المدينة وكان سقوط سرقسطة هو الفاتح لسلسلة أخرى من عمليات الاسترداد المسيحى التى نجحت فى استعادة عدة مواقع ومدن هامة فى شرق البلاد وجنوبها (٤٩)

ولم يتمكن المرابطون هذه المرة من ضرب الخطر الأسبانى المسيحى واستعادة زمام الأمور فى أيديهم كما حدث فى معركة الزلاقة، ذلك أن المرابطين شغلوا بالثورات عليهم فى الأندلس والتى اضطرمت أولها وأخطرها فى قرطبة عام ٥١٥ هـ / ١١٢١م وكانت فاتحة لثورات مماثلة اضطرمت بها الأندلس كلها فى أواخر عهد المرابطين كنتيجة لشدتهم وخشونتهم وأخذهم بأساليب عنيفة فى الحكم ، زامن هذا بدء ظهور حركة معارضة قوية للمرابطين فى المغرب ذاتها بقيادة المهدى بن تومرت والذى سينجح بعد أعوام قليلة فى تأسيس دولة الموحدين على أنقاض دولة المرابطين (٥٠)

وهكذا بدأ ميزان القوى يختل مرة أخرى فى المغرب ، كما كان مختلا فى المشرق، وبدات أوروبا المسيحية حركة مد قوية على العالم الإسلامى بضفتيه، الشرقية فى شكل زحف صليبى ، والغربية فى شكل حركة استرداد مسيحى بدأت تنشط مرة أخرى مستغلة أحوال الأضطراب والصراع الداخلى فى صفوف المرابطين ، والسد المنيع الذى أستطاع أن ينقذ الأندلس الاسلامية فى وقت كان سقوطها للشمال المسيحى أضحى أمرا مسلما به، وليظهر مرة أخرى - درس التاريخ واضحا - وهو أن ما كان يكسبه المسلمون بتوحدهم كانوا يفقدونه بتشرذمهم وأنهم كانوا يهزمون من الداخل قبل أن يهزموا من الخارج .

المبحث الثالث

من افتتاح عهد صلاح الدين إلى موته
٥٢٢ - ٥٨٩هـ /١١٢٨ - ١١٩٣م

المطلب الأول : توحيد جبهتى مصر والشام وبداية التراجع الصليبى :

عجلة التاريخ تدور دائما ولا تتوقف أبدا والملوك العظام لابد راحلون بعد أن يؤدوا مهامهم التاريخية ، وهكذا بداية من عام ١١٣١ شهد المشرق الإسلامى موت معظم ملوك الإمارات الصليبية الكبار وخلفهم على عروشهم ولاة لعهودهم لم يكونوا على نفس قدر حنكتهم وشجاعتهم ، وفى ذات الوقت كان يبزغ فى الشام عصر عماد الدين زنكى

٤٩ - بيفسون ، الدولة العربية فى اسبانيا ، ص ٢٨٦.
- محمد عبدالله عنان ، عصر المرابطين والموحدين فى المغرب والاندلس : القسم الاول (القاهرة : ولجنة التاليف والنشر : ط١ ، ١٩٦٤) ص٢٧.
٥٠ - عنان ، عصر المرابطين والموحدين ، ص ص ٢٧ - ٢٨.
- السامرائى ، تاريخ المغرب العربى ، ص ٢٧٣.

الذى جمع حكم الموصل والشام وتأهب لتوحيدهما مع مصر فأخذ المسرح فى المنطقة يتهيأ لعصر صلاح الدين الذى سينجح فى تحقيق ما خاف منه الصليبيون دائما وحاولوا منعه وهو توحيد جبهتى مصر والشام والعراق ضدهم (٥١)، ولقد هيأت الفوضى فى إمارة حلب وتصارع أمراء الصليبيين كل يريد ضمها اليه إلى استنجاد أهلها بعماد الدين زنكى أتابك الموصل الذى أستجاب للدعوة لأنه آمن أن الطريق الوحيد لطرد الصليبيين لايكون إلا بتوحيد القوى الاسلامية، وأمن أيضا وهو الأهم من ذلك أن استقراء خبرة التاريخ الإسلامى توضح أن هذه الوحدة لن تتحقق إلا إذا فرضت فرضا وبالقوة ، وكانت هذه هى المهمة التى نذر نفسه لتحقيقها فنشط لتوحيد القوى الاسلامية فى العراق والشام بالسيف فاستولى فى طريقه إلى حلب ، استجابة لدعوة الأهالى ، على حران ونصيبين ودخل حلب وبعدها أتجه إلى الاستيلاء على كل الشام ، ولم يصرفه جهده لتحقيق خطته تلك عن جهده فى مقاومة الصليبيين ومحاربتهم بل سار نشاطه فى الخطين متوازيا لم يوقفه لفترة إلاحروب الوراثة السلجوقية بعد وفاة السلطان محمود السلجوقى عام ١١٣١ وأنقسام الدولة بين أولاده وأشقائه وهى الحروب التى زج زنكى بنفسه فيها فانشغل عن الصرح الذى كان قد بدأ فى بنائه فكاد يسقط تحت هجمات الصليبيين فى حلب لولا أن انتهت حروب الوراثة وعاد يتفرغ لميدان الشام مرة أخرى خاصة أنه أصلح علاقته مع الخليفة العباسى فعاود الاستيلاء على القلاع الصليبية ونجحت حركة مده بصورة أثارت قلق القوى الصليبية مما دفع الصليبيين والبيزنطيين إلى التحالف رغم العداء الذى كان مستعرا بينهما فى ذلك الحين (٥٢). ولكن ادراكا من زنكى للتفوق العددى لقوى المسيحية المتحالفة لجأ إلى شن حرب نفسية عليهم يخوفهم من بعضهم البعض ويثير الشكوك فى نواياهم من وراء هذا الحلف ، ولقد وصلت مهارته حدا كبيرا فى انجاح الخطة فأنفرط عقد التحالف بل وانقلب إلى عداء وخصومة فأنسحبت القوات البيزنطية واستأنف زنكى الجهاد ضد الصليبيين والاستيلاء على مواقع جديدة .(٥٣)

ثم إنه سرعان ما عاود أيضا محاولات تحقيق مشروعه لتوحيد قوى المسلمين ، وأدرك أن دمشق هى العقبة الكؤود التى تقف فى سبيل هذه الوحدة لتمسك حاكمها باستقلاله الذاتى ضاربا عرض الحائط بكل اعتبارات المصلحة الاسلامية العامة . ولقد حاول زنكى ضمها بكل الأساليب الدبلوماسية والعسكرية ففشل بل أحدثت محاولاته

---

٥١ - رمضان ، الصراع بين العرب واوروبا ، ص ص ٤٣٢ - ٤٣٣.
- السامرائى ، تاريخ الدولة العربية ، ص ٢٦٨.
٥٢ - رمضان ، الصراع بين العرب واوروبا ، ص ص ٤٣٢ - ٤٣٥.
- السامرائى ، تاريخ الدولة العربية ، ص ص ٢١٣ - ٢١٥.
٥٣ - رمضان ، الصراع بين العرب واوروبا ، ص ص ٤٣٥ - ٤٣٦.

نتيجة عكسية عندما تحالف واليها المسلم مع أمير بيت المقدس المسيحى لدرء خطر زنكى المشترك فتعطلت إلى حين مشروعاته الوحدوية(٥٤)، ولكنه أستمر قدما فى مشروعاته الجهادية ضد الصليبيين حتى كان أول نجاح باهر على الطريق باستعادة إمارة الرها عام ١١٤٤وهى أول إمارة صليبية أنشئت فى المشرق مستغلا الخلافات بين أميرها والأمراء الصليبيين الأخرين حتى أنهم لم يستطيعوا التوحد وتكوين حلف ضده عندما حاصر الإمارة فسقطت وكان لسقوطها آثار عميقة، فمن جانب رفعت من معنويات المسلمين إلى درجة أن صوروا ذلك النصر فى قصائدهم على أنه فتح الفتوحات، وهى التى ألقت هيبة زنكى فى قلوب الصليبيين حتى أنهم باتوا يعتقدون عدم قدرتهم على مجابهته ، والأهم من هذا أنها أستنفرت المسيحيين فى أوروبا لأرسال حملة صليبية عام ١١٤٧ايمانا منهم بأن الصليبيين فى المشرق فى حاجة إلى دعم عاجل (٥٥)

وترجع أهمية هذه الحملة إلى دلالتها على أن المد الصليبى لم يكن قد أنتهى من أوروبا وأنها كانت مازالت بزعامتها المسيحية وشعبها بل وملوكها وراء هذا المشروع ومصرين على أنجاحه، ذلك أن هذه الحملة تعتبر أول حملة تتألف من بعض أكبر ملوك أوربا وهما ملك فرنسا وأمبراطور المانيا(٥٦) . ثم إن هذه الحملة خرجت على المشرق فى وقت من أصعب الأوقات ، فكان عماد الدين قد قتل فجأة على يد أحد غلمانه فى العام السابق على خروجهم فانقسم العراق والشام مرة أخرى وهب الصليبيون فى الشرق لأستغلال الفرصة لاستعادة ما كانوا قد فقدوه لزنكى(٥٧). ولكن هذه الحملة فشلت فشلا ذريعا فلقد لاقى السلاجقة الجيش الألمانى وهزموه لتوغله فى أرضهم بعد أن تركهم الدليل البيزنطى لخلاف معهم ثم لاقى نور الدين زنكى الجيش الفرنسى وهزمه .

ويعتبر العديد من المؤرخين فشل الحملة الصليبية الثانية تلك نقطة تحول فى تاريخ الصراع الإسلامى ـ المسيحى، فبالاضافة إلى أنها أدت إلى إنحطاط هيبة الصليبيين فى الشام مما شجع القوى الاسلامية على الغارة بجرأة على الإمارت الصليبية، ثم إنها كانت المناسبة التى ظهر فيها نجم أخر من نجوم الجهاد الصليبى هو نور الدين محمود زنكى بن عماد الدين زنكى الذى أحيا مشروع أبيه لتوحيد الجبهة الاسلامية

٥٤ – المرجع السابق ، ص ص ٤٢٧ – ٤٤٠.

–حسين احمد امين ، الحروب الصليبية فى كتابات المؤرخين العرب المعاصرين لها (القاهرة : مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٨٣) ص ص ٧٥ - ٨٠ .٥٥ – انظر التفاصيل فى عنان ، مواقف حاسمة ص ص ١١٩ – ١٢٠.

– رمضان ، الصراع بين العرب واوروبا ، ص ص ٤٤٠ – ٤٤١ ، ٤٤٤ ، ٤٤٦.

– السامرائى ، تاريخ الدولة العربية ، ص ص ٣١٦ – ٣١٧.

٥٦ – رمضان ، الصراع بين العرب واوروبا ، ص ص ٤٤٦ – ٤٤٧.

٥٧ – المرجع السابق ، ص ٤٤٣.

ضد الصليبيين وهو المشروع الذى سيستكمله صلاح الدين فينجح فى التمهيد لإنهاء الحروب الصليبية (٥٨). ولقد نجح نورالدين فى استغلال الظروف التى أعقبت فشل الحملة الصليبية الثانية فى توحيد الشام تحت قيادته هذه المرة على حساب حاكم دمشق ، ثم استأنف جهاده للصليبيين بنجاح مما شجع القوى الاسلامية الأخرى مثل سلاجقة الروم والأرتقة والتركمان على التقدم لمواجهة الصليبيين خاصة فى الرها وأنطاكية بل وتحالفوا أيضا فى جهودهم حتى أستطاع نور الدين زنكى أن يوحد بلاد الشام كلها تحت قيادته من الرها شمالاحتى حوران جنوبا فقامت دولة اسلامية واحدة مركزها دمشق، وكانت هذه هى الخطوة الأولى نحو تكوين الجبهة التى ستمتد من الفرات إلى النيل للتصدى بحق لهذا الخطر الصليبى .(٥٩)

فسرعان ما بدا الصراع بين الزنكيين والصليبيين على مصر بعد أن بدأت قوة الفاطميين تتدهور سريعا، فإدراك كلا القوتين أن القوة الفاطمية تحتضر وان فراغ قوة هائل سيحدث فى الجنوب جعلهما يتسابقان لشغله، الزنكيون لأنهم يريدون توحيد الجبهة الاسلامية للوثوب على الصليبيين وطردهم ، والصليبيون لأنهم يريدون توسيع دولتهم بما يثبت أقدامهم فى المنطقة. ولقد أدرك الصليبيون أن الصراع على مصر هو صراع حياة أو موت ولما كانوا عالمين بقوة زنكى فأنهم لجأوا إلى التحالف مع البيزنطيين ليضيفوا إلى قوتهم مايستطيعون به اسقاط نور الدين فتناسوا خلافاتهم الأبدية وحدث التحالف الخطير وتكونت حملة بيزنطية صليبية كبرى توجهت إلى حلب عم ١١٥٩ لانتزاعها من نور الدين محمود فوضعت الدولة الموحدة فى الشام على حافة الخطر وهددت كل مشروعات نور الدين محمود لتوحيد مصر والشام لطرد الصليبيين من الشرق (٦٠)

ولقد أدى تهديد هذا التحالف البيزنطى الصليبى لمشروعات نور الدين زنكى إلى اتخاذ خطوة يصعب تقييمها إلا بوصفها من قبيل القرارت الصعبة المصيرية ، فلعلم نور الدين محمود بعداء البيزنطيين والروم السلاجقة ولتقديره أن معركته الأساسية هى ضد الصليبيين وليست ضد البيزنطيين فإنه وازن بين الإطاحة بمشروعاته على يدالحملة

---

٥٨ – المرجع السابق ، ص ص ٤٤٧ – ٤٤٩ ، ٥٩,٤٥٠ – المرجع السابق ، ص ص ٤٥٢ – ٤٥٤.
– السامرائى ، تاريخ الدولة العربية ، ص ص ٣٢١ – ٣٢٣.
– عادل عبدالحافظ عثمان حمزه شحاتة ، العلاقات السياسية بين الامبراطورية الرومانية المقدسة والشرق الاسلامى ٥٤٧ – ٦٤٨هـ / ١١٥٢ – ١٢٥٠م (القاهرة مكتبة مدبولى ، ١٩٨٩) ص ص ٦٢ –٦٨.
٦٠ – رمضان ، الصراع بين العرب واوروبا ، ص ص ٤٥٤ – ٤٥٥.
– حسن ، تاريخ الدولة الفاطمية ، ص ص ١٨٢ – ١٨٧.
– المطوى ، الحروب الصليبية ص ص ٧٢ – ٧٦ .
– شحاتة ، العلاقات السياسية بين الامبراطورية الرومانية والشرق الاسلامى ، ص ٦٨ ومابعدها

الصليبية البيزنطية وبين أعتبارات الأخوة الإسلامية ، فأختار الخيار الأول وتفاهم مع الأمبراطور البيزنطي على الهدنة وأطلاق سراح الأسرى على أن يتحالف مع الأمبراطور البيزنطي ضد السلاجقة فقبل الأمبراطور وأنسحب من الحلف الصليبي فأوقفت الحملة وزال الخطر. ولكن من أعظم النتائج التى ترتبت على هذه الخطوة أن تم استبعاد السلاجقة الروم من الصراع الدائر فى المشرق ذلك أن الأمبراطور البيزنطي سرعان ما قام بحملة عام ١١٦٠ بمعاونة نور الدين زنكى ضد السلاجقة فانهزم قلج أرسلان الذى اضطر إلى الذهاب بنفسه إلى القسطنطينية ليعلن ولاءه وتبعيته للأمبراطور البيزنطي وذلك قبل أن ينقضي نصف قرن على أنتصار السلاجقة الساحق على البيزنطيين فى موقعة مانزكرت . (٦١)

أما النتائج الأخرى الأيجابية لهذا الحلف الزنكى البيزنطي فهي:ـ (٦٢)

١ ـ أنها أنهت التحالف البيزنطي الصليبي وكان على الصليبيين أن يعتمدوا على أنفسهم أو مساعدات أوروبا فى صراعهم مع الزنكيين .

٢ ـ أنها حفظت وحدة الشام والتى تعد الأساس الهام لأى وحدة بينها وبين مصر .

٣ ـ أنها أعادت التوزان بين الصليبيين والزنكيين بخروج البيزنطيين من الساحة ومن ثم عاد النزاع بينهما على مصر متوازنا مرة أخرى .

وفى هذه الموجة الثانية من الصراع الزنكى الصليبي على مصر ظهر اسم صلاح الدين لأول مرة عندما أصطحبه عمه أسد الدين شيركوه نائب نور الدين زنكى على دمشق عام ١١٦٤، ولقد بدت قوة الزنكيين أثناء هذه الحملة أكبر من قوة الصليبيين فى عين الفاطميين فخافوا من ذلك الخطر على وجودهم وفضلوا بالطبع الجانب الذى يمثل خطرا اقل حتى يمكنهم مجابهته فى ظل ظروف تدهورهم فما كان منهم إلا أن أستدعوا الصليبيين للوقوف ضد الزنكيين ولكن الأخيرين هزموهم وهزموا الفاطميين كذلك وإن لم يمكنوا لأنفسهم هذه المرة من البقاء فى مصر ولكنهم قد خبروا مواقعها ومهدوا بذلك لحملة ثانية عليها عام ١١٦٧(٦٣) .

وهكذا بدأ طور من تبادل الحملات النورية والصليبية على مصر والتى كان دائما ما يطلب الفاطميون فيها من الصليبيين المعونة ضد النوريين وهو ما وصل إلى حد عرض المال عليهم لأنجاز مهامهم فى درء خطر العدو "المسلم "، حتى كان أن ظهرت شراسة وضراوة العدو الصليبي فى حملاته على مصر عام ١١٦٨م فأرسل الخليفة الفاطمى يستنجد بنور الدين زنكى الذى سرعان ما لبى فتوحد الجيش الشامى والمصرى فى

٦١ – رمضان ، الصراع بين العرب وأوروبا ، ص ٤٥٨.

٦٢ – المرجع السابق ، ص ص ٤٥٨ – ٤٥٩.

٦٣ – المرجع السابق ، ص ص ٤٥٩ – ٤٦٠.

مواجهة الصليبيين ودحروهم عام ١١٦٩ فقلد الخليفة الفاطمي شيركوه الوزارة ولكنه سرعان ما مات فتولى الوزارة الفاطمية بعده صلاح الدين الأيوبي فوضعت بذلك اللبنة الأولى فى صرح الوحدة بين مصر والشام وبعد أن كانت مصر تكاد أن تدخل فى درك النسيان مع الفاطميين المتهالكين بدأت تستعد لتكون مركز الجهاد الإسلامى فى الشرق ضد الصليبيين . (٦٤)

وموت نور الدين محمود كان إيذانا بإنتقال مركز الجهاد ضد الصليبيين من الدولة الزنكية فى الشام إلى الدولة الأيوبية فى مصر ذلك أن أولاد زنكى تنافسوا على الخلافة فانقسمت دولتهم فى حين بقيت مصر موحدة تحت حكم صلاح الدين ، ولما طالب صلاح الدين بحقه فى الولاية على السلطان القاصر شن عليه الزنكيون حملة عام ١١٧٥انتصر فيها وقرر بعدها اعلان عدم تبعيته للإمارة الزنكية وتوجه بطلب الشرعية من الخليفة العباسى فمنحها له، وهنا ظهر مرة أخرى النمط الإسلامى المعتاد من التحالف مع قوى غير اسلامية لتحقيق مصالح خاصة، ولكن الوضع هنا كان فى غاية الأيلام فالطرف الإسلامى الذى طلب محالفة الصليبيين كانوا أحفاد نور الدين وعماد الدين زنكى المناضلين ضد الصليبيين أماالطرف الإسلامى المستهدف فهوصلاح الدين الأيوبى البطل الناهض لمجاهدة الصليبيين، ولكن صلاح الدين استطاع هزيمتهم وعاد إلى الشام ونجح فى توحيدها وضمها من ثم إلى مصر فأمد سلطته على جبهة واحدة ممتدة من النيل إلى الفرات وبذلك بدأ مرحلة مد كبرى وجهاد أعظم ضد الصليبيين(٦٥)تخللتها فترات هدنة كان يحتاجها لتنظيم بيته من الداخل (٦٦)، ولكن أثناء فترة من فترات الهدنة تلك هاجم الصليبيون قافلة حجاج للمسلمين عام ١١٨٦فما كان من صلاح الدين إلا أن أستنفر المسلمين للجهاد من جميع بلاد الإسلام وحمل على الصليبيين فى موقعة حطين ١١٨٧ التى أنتصر فيها انتصارا باهرا أعقبه سقوط عكا له واجتياحه للمدن والمعاقل الصليبية ثم توج هذا بدخوله بيت المقدس عام ١١٨٧ بعد تسعين عاما من بدء أول حملة صليبية على المشرق . (٦٧)

---

٦٤ - المرجع السابق ، ص ص ٤٦٦ - ٤٧٢.
- حسن ، تاريخ الدولة الفاطمية ، ص ص ١٨٩ - ١٩٦.
- السامرائى ، تاريخ الدولة العربية ، ص ص ٢٤١ - ٢٤٢.
٦٥ - زيان ، الصراع السياسى والعسكرى زمن الحروب الصليبية ، ص ص ٧٨ - ٨٢.
- رمضان ، الصراع بين العرب واوروبا ، ص ص ٤٨٢ - ٤٨٤.
- حسن ، تاريخ الدولة الفاطمية ، ص ص ١٩٦ - ٦٦.١٩٨ - رمضان ، الصراع بين العرب واوروبا ، ص ص ٤٨٦ - ٤٨٨.
- السامرائى ، تاريخ الدولة العربية ، ص ص ٢٤٣ - ٢٤٤.
٦٧ - رمضان ، الصراع بين العرب واوروبا ، ص ص ٤٩٠ - ٤٩٥.
- السامرائى ، تاريخ الدولة العربية ، ص ص ٢٤٤ - ٢٤٥.

وإذا كان إسترجاع المسلمين لبيت المقدس علامة هامة على طريق النضال الإسلامى لاخراج الصليبيين إلا أنه لم يكن نهاية المطاف، بل على العكس من ذلك فلقد أدى هذا النجاح الإسلامى إلى بداية مد صليبى جديد عندما استنفر سقوط بيت المقدس تكوين حملة صليبية ثالثة عام ١١٨٩، ولقد أوقف الملوك فى اوروبا صراعاتهم وتجهزت حملة من أهم الحملات الصليبية على المشرق الإسلامى سواء من حيث عدد المشاركين فيها أو من حيث نوعيتهم حيث ضمت ملوك أنجلترا والمانيا وفرنسا، ولقد نجحت هذه الحملة بالفعل فى استرجاع عكا عام ١١٩١ولكنهم أخفقوا فى جميع محاولاتهم لاسترداد القدس ، وأنتهت هذه الحملة بعقد صلح الرملة عام ١١٩٢ الذى يقضى بترك المدن الساحلية للصليبيين من صور إلى يافا على أن تبقى القدس مع المسلمين مع السماح للحجاج المسيحيين بدخولها بشرط عدم قدومهم من عكا على أن تبقى عسقلان منزوعة السلاح بين الطرفين (٦٨)

وهكذا على الرغم من قوة الحملة الصليبية الثالثة فإنها فشلت فى استرداد بيت المقدس للعالم المسيحى ، ورحل الملوك عن المشرق وفى ذهنهم فكرة واحدة وهى أن الطريق إلى استرداد القدس هو بالاستيلاء على مصر، ولكن قوة صلاح الدين منعتهم من تنفيذ هذا المشروع أثناء الحملة الثالثة على الشرق ولكن سرعان ما مات صلاح الدين بعد ابحارهم عام١١٩٣، وأدى موته إلى ابتعاث هذا المشروع من جديد فحاول الصليبيون تنفيذ احتلال مصر (٦٩)

المطلب الثاني : صعود الموحدين وتصديهم للمد المسيحي في الأندلس :

رأينا كيف بدأت الأندلس تنتفض على المرابطين حوالى عام ٥١٥ / ١١٢١ فى أوائل عهد على بن يوسف عندما ثارت قرطبة على خشونتهم وعنفهم ، ويرى بعض المؤرخين أن ثورة أهل قرطبة لم تكن من الخطورة بمكان إذا ما قورنت بما أعقبتها من ثورات ذلك أنها لم تعد كونها محاولة للتنفيس ضد حكم المرابطين المتزمت المرهق، ولكن سرعان ما تطورت هذه الثورات لتعبر عن روح انفصالية أندلسية ضد حكم "الفاتحين" المرابطين فانفجرت الثورات فى غرب الأندلس عام ٥٣٩هـ / ١١٤٤م فى أكثر من مدينة فى وقت واحد، ثم ثارت قرطبة مرة أخرى فى نفس العام ، وفى نفس الوقت أنتفض شرق الأندلس بثورات متوالية أخرجته تماما من يد المرابطين ولم يبق لهم إلا بعض قواعد فى وسط الأندلس وغربه . (٧٠)

---

٦٨ - رمضان ، الصراع بين العرب واوروبا ، ص ص ٤٩٨ - ٥٠٤.

- السامرائى ، تاريخ الدولة العربية ، ص ص ٣٤٥ - ٣٤٦.

٦٩ - رمضان ، الصراع بين العرب واوروبا ، ص ص ٥٠٤ - ٥٠٦.

٧٠ - السامرائى ، تاريخ المغرب العربى ، ص ص ٢٧٣ - ٢٨١.

- عنان ، عصر المرابطين والموحدين ، ص ٣٠.

والأمر الخطير فى هذه الثورات أن قوادها المحليين لم يتورعوا -كما كان يحدث وقت ملوك الطوائف- عن الاستعانة بمسيحيُ الشمال لتحقيق مآربهم الأنفصالية كما كان ملوك ممالك الشمال المسيحى يلبون طلبات ملوك الطوائف فإنهم لبوا نداء الانفصاليين هذه المرة أيضا وربما بحماس أكبر، ليس فقط لأنهم وجدوا فى هذافرصة ذهبية لضرب وتفريق مسلمى الأسبان واستنزاف قواهم وانتزاع ما يقدرون عليه من أراضيهم ، ولكن أيضا - وهو الأهم - لأنهم وجدوا فى هذا فرصة للقضاء على المرابطين الذين قوضوا مشاريعهم فى ضم الأندلس الأسبانية إلى المالك المسيحية بعد أن كانوا قاب قوسين أو أدنى من تحقيق هذا الهدف (٧١)

ويؤكد بعض المحللين أن الأندلس إنما كانت هى الأتون الذى أحترق فيه المرابطون ذلك أن انشغالهم بأمر ملوك الطوائف أولا ثم حركة الاسترداد المسيحى ثانيا ثم الثورات على حكمهم هناك، ثالثا شغلهم عن قاعدتهم الأساسية فى المغرب . وجاء ذلك على حساب استقرار حكمهم هناك فلم ينتبهوا إلى خطورة حركة المعارضة القوية التى ظهرت بها وحاولت الأستيلاء على مراكش بقيادةالمهدى بن تومرت وما لبثت أن دخلت مراكش بالفعل بعد وفاة على بن يوسف بسنوات قليلة وأسست دولة الموحدين عام ٥٤١ /١١٤٧ فورثوا بذلك الدور المرابطى فى المغرب والأندلس . (٧٢)

وبعد عملية أنتشار سياسى وعسكرى للموحدين فى المغرب الأوسط والأدنى ، كان من الطبيعى أن يتوجه الموحدون بأنظارهم إلى الأندلس، خاصة وأن ثورات المتمردين بها والتى تداخلت وتشابكت وتزامنت مع تحركات الأسبان المسيحيين، وكانت قد أفقدت المرابطين هيبتهم هناك خاصة بعد ثورة قرطبة عام ٥٣٩ وما تلاها من ثورات ثم تمكن المسيحيون القشتاليون من دخول قرطبة ذاتها . (٧٣)

ولقد أعد الموحدون عدتهم ولم يترددوا فى الدخول إلى الأندلس حيث أشرف حاكمهم عبدالمؤمن على بعض العمليات العسكرية بنفسه خاصة فى الجهات الغربية التى كانت مهددة بقيام مملكة مسيحية مستقلة فيها ، ولكن موت عبدالمؤمن عام ٥٨٨ عطل هذه الجهود لفترة استفحل فيها خطر المسيحيين هناك حيث أستفاد الفونسو السابع من حالة الاضطراب وأستولى على عدة ثغور هامة كما هدد بطليموس، وفى ذات الوقت كانت هناك حركة تمرد محلية فى شرق الأندلس بقيادة ابن مرديش بدأت

---

٧١ - عنان ، عصر المرابطين والموحدين ، ص ٣١.

٧٢ - بيضون ، الدولة العربية فى أسبانيا ، ص ٢٨١.

- السامرائى ، تاريخ المغرب العربى ، ص ٢٨٤.

٧٣ - بيضون ، الدولة العربية فى أسبانيا ص ٢٨٤.

منذ عام ٥٤٢ /١١٤٧ مع تأسيس الموحدين لملكهم فى المغرب واستطاعت أن تبسط سلطانها على سائر المدن الشرقية فى الأندلس من بلنسية إلى قرطاجة . (٧٤)

وأمام هذا الخطر المزدوج قرر الخليفة أبو يعقوب يوسف أن يعبر إلى الأندلس مستخدما القوة التى أعدها سلفه ومعلنا بدء جهاد حقيقى فى هذه البلاد عام ٥٦٦، وكانت خطوته الطبيعية الأولى هى أن يقضى على التمرد المحلى الخطير لابن مرديش ونجح فى ذلك عام ٥٦٧ / ١١٧٢واستولى الموحدون على مملكة مرسيية ثم تفرغوا للجهاد ضد الملوك الأسبان فاستولوا على قرطبة واشبيلية واتخذوا من الأخيرة عاصمة لهم وقاعدة للانطلاق فى الأراضى الأسبانية لاسترداد ما سقط للملوك المسيحيين فى أواخر عهد المرابطين ودار الصراع بين الجانبين سجالا وأثبت كل منهم للآخر أنه خصم قوى ، ويرز فى هذا الصراع مملكة لشبونة (البرتغال) خاصة والتى كانت تضغط بخطورة فى هذه المرحلة، ويكفى أن نعلم أن الخليفة ذاته سقط صريعا فى معركة معهم عام ٥٨٠ ليتولى بعدهابنه يعقوب المنصور والذى كان معاصرا لصلاح الدين الأيوبى فى وقت كانت فيه المعارك مع الصليبيين على أشدها فى المشرق .

ولقد افتتح يعقوب المنصور عهده فى الأندلس بحرب انتقامية ضد المالك المسيحية هناك فاستعاد شنترين وشلب عام ٥٨٦ وأغار على لشبونة ذاتها وضرب وغنم مما دفعهم إلى طلب الصلح معه لمدة خمس سنوات (٧٥)

هذا وفى الوقت الذى كان فيه صلاح الدين الأيوبى يوحدالجبهة فى المشرق ضد الصليبيين كان الموحدون يقومون بنفس الشيء فى المغرب فيقضون على الثورات المحلية ليوحدواالأندلس فى حركة جهاد كبرى ضد الممالك المسيحية .

المبحث الرابع
مراكز جديدة للصمود الإسلامي علي الساحة الدولية
من ٥٨٩ هـ - ٦٥٦ هـ / ١١٩٣ م - ١٢٥٨ م

المطلب الأول : انتقال مركز الجهاد الإسلامى ضد الصليبيين إلى مصر وتحول اهتمامهم إليها :

يعتبر موت صلاح الدين نقطة تحول رئيسية فى تاريخ الصراع الإسلامى الصليبى ، ذلك أن موته - كما رأينا - سيشجع الصليبيين على تنفيذ مشروعهم لغزو

٧٤- - عنان ، عصر المرابطين والموحدين ، ص ص ٣١ - ٣٢.

- السامرائى ، تاريخ المغرب العربى ، ص ص ٢٩٥ - ٢٩٦.

٧٥ - بيضون ، الدولة العربية فى أسبانيا ، ص ص ٣٨٤ - ٣٨٥.

مصر والاستيلاء عليها حتى يحرموا جبهة الشام من مددها وبذلك يمكنوا لأنفسهم فى المنطقة ، ولقد شجعهم تفكك دولة صلاح الدين بعد موته نتيجة وصيته بتقسيم ملكه بين أولاده وأخوته وبنى عمومته على التقدم لتنفيذ هذا المشروع، فلقد امتلأت السنوات التى تلت وفاة صلاح الدين بالحروب الداخلية ولكن الصليبيين لم يتحركوا سريعا أثناء فترة الأضطرابات تلك، فهم على العكس لم يبدأوا فى التحرك إلا عندما نجح أخوه العادل فى توحيد الدولة مرة أخرى عام ١٢٠٠، فكان ذلك إيذانا ببدء فترة قوة وازدهار للدولة الأيوبية الخطيرة على الوجود لصليبى، فكان الأثر المباشرلتوحيد الدولة الأيوبية هو تجهيز حملة صليبية جديدة حيث وضح لأوروبا أن مصر سوف تتحول من جديد إلى مركز خطر يهدد إمارات عكا وأنطاكية وطرابلس فبات الأستيلاء عليها ضرورة حربية[٧٦] .

وتكونت الحملة الصليبية الرابعة وخرجت إلى المشرق ولكن لظروف لاداعى للتفصيل فيها فإنها أتجهت إلى القسطنطينية ونجحت فى احتلالها واستمر الصليبيون هناك خمسين عاما ابتداء من عام ١٢٠٤، ويتضح مرة أخرى من مسار هذا الحملة أن الأحداث الدينية لم تكن هى دائما المحرك لكل من يخرجون فى هذه الحملات الصليبية وإنما المكاسب الدنيوية، فعندما نجحوا فى تحقيق مكسب لهم فإنهم نسوا الغرض الذى خرجوا من أجله وهو القضاء على قوة الدولة الأيوبية فى مصر لحماية انجازات الصليبيين وإمارتهم فى الشام[٧٧].

ولكن الحملة الصليبية الخامسة التى وصلت إلى عكا ١٢١٨ توجهت إلى مصر بالفعل رغم الهدنة المنعقدة فى ذلك الوقت بين السلطان الأيوبى وأمير عكا ، ولقد بوغت السلطان العادل بهذا الهجوم فسارت الأمور فى صف الصليبيين وحققوا انتصارات ودخلوا دمياط وحاصروها، وهنا كان تقدير العادل للموقف مرة أخرى بعقلية السياسى فقدر أن ضياع مصر يترتب عليه ضياع فلسطين بالتأكيد فعرض على الصليبيين التنازل لهم عن فلسطين بما فيها القدس ذاتها مقابل جلائهم عن مصر وفى ذهنه أن الأحتفاظ بمركز القوة الاسلامية الرئيسى فى الشرق ـ نعنى مصر ـ سوف يتيح الفرصة حتما فى المستقبل لأستعادة فلسطين ، ولكن يبدو أن الصليبيين أدركوا ما وراء هذا التنازل فرفضوه، ودار القتال مرة أخرى وبدأ يظهر المسلمون فتم التفاوض على الهدنة ثمان سنوات فجلا الصليبيون عن مصر عام ١٢٢١م .[٧٨]

---

٧٦ – رمضان ، الصراع بين العرب وأوروبا ، ص ص ٥٠٦ – ٥٠٧.

٧٧ – المرجع السابق ، ص ص ٥٠٧ – ٥٠٨.

٧٨ – المرجع السابق ، ص ص ٥٠٨ – ٥١٢.

– السامرائى ، تاريخ الدولة العربية ، ص ٢٤٧.

ولكن حدث بعد ذلك مالم يكن فى الحسبان حيث خرجت حملة صليبية سادسة عام ١٢٢٨قاصدة مصر كان على رأسها الامبراطور فردريك الثانى امبراطور ألمانيا -الدولة الرومانية المقدسة-ولكن قائدها فاوض السلطان العادل على نفس الشروط التى كان قد عرضها قبلا فتم التوصل إلى عقد اتفاق دون وقوع قتال مؤداه أن يسلم المسلمون القدس وبيت لحم للصليبيين على أن تبقى قرى بيت المقدس والمسجد الأقصى وقبة الصخرة للمسلمين مقابل هدنة مدتها عشر سنوات يتم فيها التعهد بمنع أى حملة صليبية على السواحل المصرية والشامية . ولقد أثارت هذه المعاهدة سخط المسلمين وأستثارت عليه لعنات الفقهاء (٧٩)، ولم يجن السلطان العادل شيئا من جراء هذه الهدنة اذا كان قد قصد بها أن يقوى مصر خلال فترة العشر سنوات فما أن مات عام ١٢٣٩حتى انفرط عقد الدولة الأيوبية مرة أخرى فى فترة من أخطر الفترات حيث كانت الهدنة تقارب من الأنتهاء وكانت البابوية تترقب انتهائها لأرسال حملة جدية إلى المشرق وهى الحملة السابعة التى تكونت بالفعل عام ١٢٣٩ ونزلت عكا فى وقت بلغ فيه الصراع بين ملوك البيت الأيوبى أشده، ورغم هذا فقد فشلت الحملة فشلا ذريعا حيث أختلف قوادها فى كل شيء بدءاً من الوجهة التى يتجهون اليها إلى الخطوات التكتيكية فى المعارك.(٨٠)

وفى ظل الصراع داخل البيت الايوبى - أرقى البيوتات الحاكمة فى ذلك الوقت - بدأت تظهر الأنماط العجيبة للتحالفات التى يجريها المسلمون والتى رأيناها على طول تاريخهم تهزمهم باكثر مما يهزمهم أعداؤهم، فتكون حلف اسلامى صليبى عام ١٢٤٣ كان على جانبه الإسلامى أصحاب دمشق والكرك وحمص ضد الصالح أيوب على الجانب الأخر، وفى مقابل موافقة الصليبيين على معاونة هؤلاء المسلمين ضد الصالح أيوب تنازل صاحب دمشق لهم عن قبة الصخرة والمسجد الأقصى حتى تخلص لهم تماما، فما كان من الصالح ايوب ردا على هذا الحلف إلا أن بعث بجيش نجح فى استرداد القدس عام ١٢٤٤ .(٨١)

وكان استرداد القدس مرة أخرى للمسلمين نقطة البداية فى مرحلة مد أيوبى جديد استطاع بفضله الصالح أيوب أن يسترد العديد من الأمارات الصليبية الهامة للمسلمين، ولقد كان بسبب هذه النجاحات، وأهمها أسترداد بيت المقدس ، أن قررت أوروبا أرسال حملة صليبية جديدة وجهتها إلى مصر فى محاولة لتنفيذ المشروع الذى آمنوا به بشدة ولم ينجحوا فى تحقيقة حتى ذلك الوقت رغم محاولاتهم المتعددة منذ

٧٩ – رمضان ، الصراع بين العرب واوروبا ، ص ص ٥١٤ – ٥١٥.

– شحاتة ، العلاقات السياسية بين الامبراطورية الرومانية والشرق الاسلامى ، ص ص ٢٨١ – ٢٩٥.

٨٠ – رمضان ، الصراع بين العرب واوروبا ، ص ص ٥١٥ – ٥١٦.

٨١ – المرجع السابق ، ص ٥١٦.

وفاة صلاح الدين وهو الأستيلاء على مصر للتمكين للوجود الصليبي فى الشام فخرجت هذه الحملة من أوروبا عام ١٢٤٩ووصلت مصر بالفعل وحققت بعض النجاحات بقيادة ملك فرنسا لويس التاسع الذى قاد الحملة بنفسه ولكن الهزيمة لحقت به في النهاية عام ١٢٥٠فخرج من مصر بعد أحد عشر شهرا من دخولها ، ومن أهم نتائج هذه الحملة أنها أظهرت على الجانب الإسلامى قوة فرقة المماليك البحرية التى قادت جانبا هاما من الصراع مع الصليبيين فى مصر .

ومع نهاية هذه الحملة كان المماليك البحرية يثبتون أقدامهم فى مصر لتبدأ صفحة جديدة فى الصراع مع أوروبا يضحى الطرف الإسلامى الأساسى فيها هو المماليك[٨٢].

ولقد ظهرت قوة المماليك البحرية أثناء الحملة الصليبية الأخيرة على مصر عندما مات الملك الصالح أيوب أثناء الحملةفحملوا هم عبء إنقاذ المنصورة ومصر من خطر الصليبيين، ولما شعروا أن ابن الصالح أيوب - توران شاه - سيقلب لهم ظهر المجن بسبب خوفه من قوتهم الصاعدة قتلوه وكان هذا هو البداية العملية لدولة المماليك التى كانت تثبت أقدامها فى مصر كقوة كبرى فى الوقت الذى كانت تظهر فيه قوة أخرى عاتية من الشرق لتهدد العالم الإسلامى كله بصورة لم تعصف به من قبل حتى على مدار الحروب الصليبية كلها وهذه هى قوة قبائل المغول . [٨٣]

ولقد بدأ ظهور هذه القوة الحربية الهائلة حين استولى جنكيز خان على الصين بين الأعوام ١٢١٠و١٢١٦ ثم أخضع التركستان الشرقية ثم أتراك خوارزم عام ١٢٢٠، وبانتصاف القرن الثالث عشر كانوا قد استولوا على فارس ومعظم جنوب روسيا وأطراف شرق أوروبا، ولقد قدر لهذه القوة أن تهدد بلاد العراق والشام ومصر صبيحة مغادرة حملة لويس التاسع لمصر عام١٢٥٠حيث أنقسمت مصر والشام فى ذلك الوقت بين قوتين متنازعتين هما قوة المماليك فى مصر وقوة الأيوبيين فى الشام . وفى الوقت الذى أستقر فيه الأمر للماليك كان خطر المغول يقترب من مصر بعد أن استولوا على العراق وزحفوا على بغداد وأسقطوا الخلافة العباسية بها عام ١٢٥٨ وكانت الشام ومصر هى المحطة التالية فى طريقهم لاجتياح الشرق كله ووقع عبء مواجهتهم على المماليك الذين كان عليهم أيضا مواجهة خطر الصليبيين الذى استمر فى الشرق حتى عام ١٢٩١خاصة مع ظهور مشاريع لإجراء تحالف بين الصليبيين والمغول .[٨٤]

---

٨٢ - المرجع السابق ، ص ص ٥١٧ - ٥٢٢ ، ٥٢٤.
- السامرائى ، تاريخ الدولة العربية ، ص ٣٤٩.
٨٣ - رمضان ، الصراع بين العرب وأوروبا ، ص ص ٥٢١ - ٥٢٢.
٨٤ - المرجع السابق ، ص ص ٥٢٤ - ٥٢٦.
- السامرائى ، تاريخ الدولة العربية ، ص ص ٢٥٢ - ٣٦٣.
- شاكر ، التاريخ الاسلامي : الدولة العباسية ، ج ٢، ص ص ٣٤٥ - ٣٤٦.
- مصطفى طه بدر ، محنة الاسلام الكبرى أو زوال الخلافة الاسلامية من بغداد على أيدى المغول (الجيزة: مطبعة المكتب الثقافي الدولى) ، ص ص ٨٧ - ٨٨.
- محمود ابراهيم شلبية ، علاقات المغول بسلطة المماليك: فى مصر والشام رسالة ماجستير - كلية الاداب - جامعه القاهرة - قسم التاريخ - ١٩٧٩ ، ص ص ٤٧ - ٤٨.

وبدأ بهذا طور جديد من أطوار الصراع الدولى بين القوى الاسلامية والقوى غير الاسلامية، حيث ستتشكل خريطة جديدة للقوى الدولية باختفاء أطراف وظهور أطراف جدد فظهر المماليك على الجانب الإسلامى واختفى الأيوبيون والعباسيون - وإن كانت قد قامت لهم خلافة صورية فى مصر - ظهر المغول إلى جوار الصليبيين على الجانب غير الإسلامى وثورات الدولة البيزنطية ، ومع تشكل خريطة جديدة للقوى كان لابد أن تتشكل خريطة جديدة لموازين القوى تقوم على شبكة تحالفات جديدة ايضا، وهذا موضع البحث فى الباب الثالث .

المطلب الثانى : سقوط الأندلس أمام حركة الاسترداد المسيحى وصمود مملكة غرناطة :

لم يستقم الأمر للموحدين فى الأندلس أكثر من نصف قرن من الزمان، حيث سرعان ما بدأوا ينشغلون بنفس الخطرين اللذين حاقا بالمرابطين من قبلهم ، والثورات المحلية ثم خطر الاسترداد المسيحى الذى كان ينشط خاصة باستغلال فترات الاضطراب الداخلى تلك، وكان من أخطر حركات العصيان المحلية التى واجهها الموحدون حركة بنى غانية ، ورغم أن هذه الحركة ظهرت فى افريقية - وليس فى الأندلس - إلا أنها كانت من الخطورة بمكان بحيث اقتضت منهم أفدح الجهود لمواجهتها حيث كادت تقوض ملكهم أكثر من مرة مما شغلهم عن كثير من أخطار مسيحى الشمال وتعدياتهم(٨٥) .

ورغم هذا فإن خطر هذه الحركة على شدته لايمكن مقارنته بالخطر الذى أضحت تمثله حركة الاسترداد المسيحى فى هذه الفترة حيث دخلت المواجهة بين الموحدين ومسيحىُ ممالك أسبانيا الشمالية فى هذه الفترة مرحلة خطيرة بإلباس البابا حركة الاسترداد المسيحى فى اسبانيا ثوبا دينيا واضحا جعلها أقرب إلى كونها حركة صليبية أخرى، بل فلنقل أنها أضحت تمثل الجناح الغربى للحركة الصليبية فى الشرق ولقد أدرك هذه الحقيقة المؤرخ المعاصر لها ابن الأثير والذى قال إن أول ماظهرت هذه الحركة ظهرت فى الاندلس ثم امتدت إلى صقلية ثم إلى بلاد الشام . إنها حركة واحدة جاءت نتاجا لصحوة أوروبا .

كنا قد راينا فى المبحث السابق كيف أن يعقوب المنصور الخليفة الموحدى (٥٨٠ - ٥٩٥هـ)قد استهل عهده بحركة تصدى قوية للممالك المسيحية أجبرتهم على توقيع صلح معه عام ٥٨٦ مدته خمس سنوات، ولكن سرعان ما نقض المسيحيون هذا الصلح عام

---

٨٥ - عنان ، عصر الموحدين والمرابطين ص ٣٢.

- السامرائى ، تاريخ المغرب العربى ص ص ٢٠٢ - ٢٠٨.

٥٩١ مما دفع الموحدين إلى دخول الأندلس مرة أخرى ليبدأوا مرحلة صراع كبرى توجت بانتصار باهر للموحدين على الفونسو التاسع ملك قشتالة فى معركة الأرك عام ١٩٥، ويعتبر المؤرخون معركة الأرك هذه زلافة أخرى خاصة أنها جاءت بعد فترة طويلة من التخاذل والإنهزامية ، ولكن هذه المعركة كما كان وقعها على المسلمين فإن وقعها كان أقوى على ملوك الأسبان المسيحيين والأهم من ذلك على البابوية التى كانت قد نجحت فى تلك الفترة فى دفع الحملات الصليبية إلى المشرق وكانت ـ كما ذكرنا ـ قد أمرت ملوك الأسبان بعدم المشاركة فى هذه الحملات على الشرق لاستكمال حركة الاسترداد المسيحى للبوابة الغربية للعالم المسيحى. (٨٦)

وهكذا بدأت البابوية حملة تعبئة واسعة للقوى المسيحية فى أوروبا ضد مسلمى الأندلس ، واستطاع ملوك اسبانيا المسيحية أن يتجاوزوا خلافاتهم التى نشبت بشدة فى أعقاب معركة الأرك تحت ضغط البابوية ، وهكذا استنهض الخصوم المسيحيين المتنافرين تحت ضغط الخطر الإسمى للقيام بغزوة حاسمة على الأندلس الاسلامية ، وكان الخليفة المنصور قد توفى عام ٥٩٥ ليترك لابنه محمد الناصر (٥٩٥ - ٦١٠هـ) مواجهة أمر هذا الخطر الاستردادى الشديد .

وهكذا وقعت المواجهة بين جيوش الأسبان المسيحيين الذين وحدهم خطر المد الإسلامى المشترك والذى دعم من قوتهم الآف من المتطوعين الأوروبيين جندتهم البابوية لمساندة الجيش الأسبانى وبين جيش الموحدين الذى مزقه الصراع بين الجنود المغاربة والأندلسيين والذى كبل قدراته الملل من طول المواجهة وبرد الشتاء، وكانت معركة حصن العقاب عام ٦٠٩هـ / ١٢١٢م التى انتهت بهزيمة قاسية للناصر وقواته . (٨٧)

وتعتبر هزيمة حصن العقاب نقطة تحول خطيرة فى موازين القوى العسكرية والسياسية فى الأندلس لصالح الممالك المسيحية لم يمكن ابدا للمسلمين هناك تجاوزها وتعديل الموازين لصالحهم مرة ثانية، فهذه الهزيمة كانت بداية النهاية ليس لدولة الموحدين فى ذاتها ولكن للوجود الإسلامى فى الأندلس ، فلقد أدت هذه الهزيمة إلى بروز الخطرين المحلى الإسلامى والأسبانى المسيحى مرة أخرى متزامنين وبأقصى درجة من القوة والمد، فبوادر الثورة داخل الأندلس تحركت متجرأة بحكم وهنت دعائمه، وكان موطن هذه الثورة الجديدة هو شرق الأندلس وقادتها زعيمان ينتميان إلى بيتين

---

٨٦ - بيضون ، الدولة العربية فى أسبانيا ص ٣٨٥.
- السامرائى ، تاريخ المغرب العربى ، ص ص ٣١٤ - ٣١٦.
٨٧ - بيضون ، الدولة العربية فى أسبانيا ، ص ص ٣٨٥ - ٣٨٦.
- عنان ، عصر المرابطين والموحدين ، ص ٣٢.
- السامرائى ، تاريخ المغرب العربى ص ٣١٦.

معروفين بتاريخهما التمردى فى الأندلس هما مردنيش وهود فثار زيان بن مردنيش فى بلنسية .

أما دعوة أبى عبدالله محمد بن يوسف بن هود فاجتاحت مرسية والمرية وغرناطة ومالقة (٨٨) .

وخلال تلك الأحداث المضطربة استطالت الممالك المسيحية أيضا وبدأت تضغط على مختلف نواحى الأندلس يحفزها نصرها فى حصن العقاب لأفتتاح المدن الاسلامية . وفى غضون أقل من ربع قرن على هزيمة حصن العقاب كانت المدن الأندلسية المسلمة تتساقط الواحدة تلو الأخرى تحت وطأة موجه ضارية من الاسترداد المسيحى قادها بصورة خاصة ملكا ليون وقشتالة اللذين توحدا فى جبهة قوية متماسكة، فسقطت ماردة وبطليموس وغيرها عام ٦٢٧ ثم قرطبة عاصمة الخلافة الأموية عام ٦٣٣هـ / ١٢٣٦م ثم اشبيلية عاصمة الموحدين عام ١٢٤٤م بعد أن رفض ابن هود نجدتها وأنشغل عنها بتوطيد سلطانه هو الانفصالى فى جنوب الأندلس (٨٩) ولتظهر مرة خرى وبصورة محزنة روح الانفصالية وفقدان الشعور بالمصلحة العامة للمسلمين وافتقاد مشاعر النصرة بينهم ، وهى الأسباب التى علمنا التاريخ أنها طالما أدت فى النهاية إلى ضياع الجميع لانعدام ادراكهم أنهم جميعا فى مركب واحدة وهو الدرس الذى كان يدركه الجانب المسيحى فى معظم الأحيان عند مواجهة الخطر ولذلك كانت تكتب له النجاة ، فلقد توفى ابن هود عام ٦٣٥هـ وانهارت بوفاته مملكته الانفصالية حيث تقدم ملك أراجون يستولى على المدن الشرقية والوسطى استكمالا لما قد بدأه عام ٦٢٨هـ وسقطت له كذلك بلنسية عام ٦٣٦هـ، ولم يبق صامدا الا بنو الأحمر فى المدن الجنوبية للأندلس . (٩٠)

وهكذا فقدت الأندلس فى محنة معارك الاسترداد الطاحنة تلك كل قواعدها الكبرى شرقا وغربا: قرطبة وبلنسية ومرسية وشاطبة ودانية وجيان واشبيلية وبطليموس وماردة وشلب وغيرها، وباتت أشلاء متناثرة لاتحتاج إلا إلى ضربة أخيرة لينهار مابقى منها ، ولكن فى وسط هذه الانقاض نهضت مقاطعة اسلاميةفى الجنوب الشرقى ظلت شامخة متحدية الحصار المسيحى الذى استرد الأندلس الأسبانية كلها وكان يمكن أن تنتصر عليه تلك القوة الفتية التى قاومت السقوط لهم حوالى القرنين من الزمان . . . هذه هى مملكة غرناطة .

---

٨٨ – عنان ، عصر المرابطين والموحدين ص ٣٢.
– السامرائى ، تاريخ المغرب العربى ، ص ٢٢٧.
٨٩ – عنان ، عصر المرابطين والموحدين ، ص ص ٣٢ – ٣٣.
– بيضون ، الدولة العربى فى الاندلس ، ص ٢٨٦.
٩٠ – عنان ، عصر المرابطين والموحدين ص ص ٣٢ – ٣٣ .

خاتمة :

رغم أن العصر العباسى الثانى شهد عند افتتاحه مولد قوتين اسلاميتين بعثتا العالم الاسلامى فى المشرق والمغرب بعثا جديدا، إلا أنهما لم تستطيعا ان تحيدا عوامل الضعف التى كانت تنخر فى هذا الجسد منذ أربعة قرون خاصة وأن العدو الذى كان عليهما صده فى هذا العصر لم يكن هو - الدولة البيزنطية - العدو المألوف الذى دار عليه التاريخ وطحنته أحداثه كما دار على العالم الاسلامى - ولكن كان عدوا فتيا لم يخبروا عاداته ولا فنون قتاله وهو أوروبا المسيحية صاحبة الحروب الصليبية، ومعها حركة الاسترداد المسيحى فى مغرب العالم الاسلامى والتى وصلت إلى مرحلة خطيرة جدا من المد فى العصر العباسى الثالث رغم أنه كان لها ارهاصات وسوابق فى العصور الأخرى، لايمكن فهمها إلا فى ظل ظروف ميزان القوى بين القوى الاسلامية والقوى المسيحية والتى حكمت تاريخ الصراع بينهما منذ ظهور الاسلام، فلقد انطلق المد الاسلامى كاسحا لكل ما يملكه المسيحيون خارج قارة أوروبا ثم غزاهم فى أوروبا ذاتها .واستمر ميزان القوى مائلا لصالح العالم الاسلامى قرابة ثلاثة قرون من الزمان حتى حدث التوازن فى القرن الرابع الهجرى . فرغم التفكك الشديد فى الدولة العباسية والذى زامنه ازدهار وقوة فى الدولة البيزنطية نتيجة ظهورالأسرة المقدونية على عرشها، ظهرت قوى اسلامية حملت لواء التصدى للقوى المسيحية فى المغرب بالأساس وفى المشرق أيضا استمر هذا التوازن بصورة أو بأخرى على مدار القرن الخامس الهجرى لظهور السلاجقة والمرابطين بالأساس .

ولكن مع أوائل القرن السادس الهجرى - الثانى عشرالميلادى كان ميزان القوى قد أخذ يميل بوضوح . فلقد أصاب الوهن التام دولة الاسلام خاصة بعد الانقسام السريع لدولة السلاجقة والذى تلاه مباشرة الاضطرابات الداخلية العنيفة فى الاندلس التى أدت إلى القضاء على دولة المرابطين ولم تدع أوروبا الفرصة تضيع من يدها، فكان رد الفعل للفتوحات الاسلامية والمد الاسلامى الذى امتد قرونا عديدة، فبدأ المد الأوروبى فى مواجهة التوقف والتراجع للمد الاسلامى منتهزين فرصة الضعف والوهن والانحلال، فالحروب الصليبية اشتعلت متشجعة بضعف العالم الاسلامى ولم تأت نتيجة قوته .

المراجع

أولاً : الكتب العربية

(١) إبراهيم بيضون ، الدولة العربية فى أسبانيا من الفتح حتى سقوط الخلافة (بيروت : دار النهضة العربية ، ط٣ ، ١٩٨٦) .

(٢) إبراهيم على طرفان ، امبراطورية غانا الاسلامية (القاهرة : الهيئة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر ، ١٩٧٠) .

(٣) ابن الاثير ، الكامل فى التاريخ ، (بيروت : دار الكتاب العربى ، ١٩٦٧)، ج٨ .

(٤) ابن القلانى ، ذيل تاريخ دمشق ، بيروت ، دار الفكر ، د.ت .

(٥) حسن إبراهيم حسن ، تاريخ الدولة الفاطمية فى المغرب ومصر وسوريا وبلاد العرب (القاهرة : مكتبة النهضة المصرية ، ط٣ ، ١٩٦٤) .

(٦) ———— ، تاريخ الاسلام ، العصر العباسى الاول (القاهرة ، مكتبة النهضة العربية ، ١٩٦٤ – ط٧) ج٢ .

(٧) ———— ، تاريخ الاسلام السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى (الجزء الأول : الدولة العربية) (القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، ط٧ ، ١٩٦٤).

(٨) حسن أحمد محمود ، أحمد إبراهيم الشريف ، العالم الاسلامى فى العصر العباسى (القاهرة ، دار الفكر العربى ، ط٥ – ١٩٨٠) .

(٩) حسين أحمد أمين ، الحروب الصليبية فى كتابات المؤرخين العرب المعاصرين (القاهرة : مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٨٣) .

(١٠) حسين محمد سليمان ، الدولة الإسلامية فى العصر العباسى والعلاقات السياسية مع الأمويين والفاطميين (الرياض : دار عالم الكتب للنشر والتوزيع، ١٩٨٤) .

(١١) خليل إبراهيم السامرائى وآخرون ، تاريخ المغرب العربى (الموصل : دار الكتب للطباعة والنشر ١٩٨٨) .

(١٢) ———— ، تاريخ الدولة العربية الاسلامية فى العصر العباسى (الموصل : دار الكتب للطباعة والنشر – بجامعة الموصل ، ١٩٨٨) .

(١٣) د. سعيد عاشور ، تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب (بيروت ، دار الفكر ، ١٩٧٢) .

(١٤) عادل عبدالحافظ عثمان حمزة شحاته ، العلاقات السياسية بين الامبراطورية الرومانية المقدسة والشرق الاسلامى ٥٤٧ – ٦٤٨هـ / ١١٥٢ – ١٢٥٠م (القاهرة : مكتبة مدبولى ، ١٩٨٩) .

(١٥) د. عبدالحليم عويس ، دراسة لسقوط ثلاثين دولة إسلامية (جدة ، دار الشروق ، ط٢ ، ١٩٨٢) .

(١٦) عبدالعظيم رمضان ، الصراع بين العرب وأوروبا من ظهور الاسلام إلى انتهاء الحروب الصليبية (القاهرة : دار المعارف ، ١٩٨٣) .

(١٧) عبدالمنعم ماجد ، ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها فى مصر – التاريخ السياسى (الاسكندرية : دار المعارف – ط٢ – ١٩٧٦) .

(١٨) غازيليث فازيليف ، العرب والروم – ترجمة محمد عبدالهادى شعيرة (القاهرة ، دار الفكر العربى ، د.ت) .

(١٩) فاروق عمر ، العباسيون الأوائل (بغداد : دار الارشاد ، ١٩٧٠) ج٢ .

(٢٠) فتحى عثمان ، الحدود الاسلامية البيزنطية بين الاحتكاك الحربى والاتصال الحضارى (القاهرة ، الدار القومية للطباعة والنشر ، د.ت) .

(٢١) قاسم عبده قاسم ، ماهية الحروب الصليبية ، الايديولوجية – الدوافع – النتائج (الكويت : المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب – سلسلة عالم المعرفة ، عدد ١٤٩ ، مايو ١٩٩٠) .

(٢٢) محمد أحمد زيور ، العلاقات بين الشام ومصر فى العهد الطولونى والاخشيدى من ٢٥٢ – إلى ٣٥٨ / ٨٦٨ – ٩٦٨ (دمشق : دار حسان للطباعة والنشر ، ١٩٨٩).

(٢٣) محمد العروسى المطوى ، الحروب الصليبية فى المشرق والمغرب (بيروت : دار الغرب الاسلامى ، ١٩٨٣) .

(٢٤) محمد جمال الدين سرور ، سياسة الفاطميين الخارجية (القاهرة : دار الفكر العربى ، ط٤ ، ١٩٧٧) .

(٢٥) محمد عبدالله عنان ، مواقف حاسمة فى تاريخ الاسلام (القاهرة : مؤسسة الخانجى ، ١٩٦٢) ج١ .

(٢٦) ———— ، عصر المرابطين والموحدين فى المغرب والاندلس : القسم الأول (القاهرة : لجنة التأليف والنشر، ط١ ، ١٩٦٤) .

(٢٧) محمد محمد عبدالقادر الخطيب ، دراسات تحليلية فى تاريخ الدويلات الاسلامية (د.م ، ط١ ، ١٩٨٥) .

(٢٨) محمود شاكر ، التاريخ الاسلامى ، الدولة العباسية ج١ (بيروت ، المكتب الاسلامى ، ١٩٨٥) .

(٢٩) مصطفى طه بدر ، محنة الاسلام الكبرى أو زوال الخلافة الاسلامية من بغداد على أيدى المغول (الجيزة : مطبعة المكتب الثقافى الدولى ، د.ت) .

(٣٠) نادية حسنى صقر ، السلم فى العلاقات العباسية البيزنطية فى العصر العباسى الأول (مكة المكرمة : المكتبة الفيصلية ، ١٩٨٥) .

ثانياً : رسائل علمية :

(١) محمود إبراهيم شلبية ، علاقات المغول بسلطة المماليك فى مصر والشام (رسالة ماجستير - كلية الآداب - جامعة القاهرة - قسم التاريخ - ١٩٧٩) .

(٢) نايف عبدالجبار سهيل ، السياسة الخارجية للدولة العباسية في العصر العباسى الاول ، رسالة ماجستير - كلية دار العلوم - جامعة القاهرة ، ١٩٨٥).

ثالثاً : دوريات عربية :

- د. عبدالقادر يوسف ، العلاقات بين الشرق والغرب فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر ، سلسلة دراسات تاريخية رقم ٢ (بيروت : المكتبة العصرية ، د.ت) .

رابعاً: الكتب الأجنبية :

(1) Bernard lewis, The Arabs in History (New york : Harper, Row Publishers, 1960).

(2) Comen, A., The Atexiad Tran Dawas, Vol. 11, London 1964.

(3) Marshall G.S. Hodgson, The Venture of Islam, Vol 1 : The Classical Age of Islamic (Chicago, London : The Universty of Chicago Press, 1974).

(4) M.A. Shacban, Islamic History : A New Interpretation (London : Cambridge Universty Press, 1971).

إصدارات المعهد العالمي للفكر الإسلامي

أولاً ـــ سلسلة إسلامية المعرفة

ـــ إسلامية المعرفة: المبادئ وخطة العمل، الطبعة الثانية، الدار العالمية للكتاب الإسلامي/ الرياض/ ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م..

ـــ الوجيز في إسلامية المعرفة: المبادئ العامة وخطة العمل مع أوراق عمل بعض مؤتمرات الفكر الإسلامي، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م. أعيد طبعه في المغرب والأردن والجزائر.

ـــ نحو نظام نقدي عادل، للدكتور محمد عمر شابرا، ترجمه عن الإنجليزية سيد محمد سكر، وراجعه الدكتور رفيق المصري، الكتاب الحائز على جائزة الملك فيصل العالمية لعام ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م، الطبعة الثالثة (منقحة ومزيدة)، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م.

ـــ نحو علم الإنسان الإسلامي، للدكتور أكبر صلاح الدين أحمد، ترجمه عن الإنجليزية الدكتور عبد الغني خلف الله، (دار البشير/ عمان الأردن) ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م.

ـــ منظمة المؤتمر الإسلامي، للدكتور عبدالله الأحسن، ترجمه عن الإنجليزية الدكتور عبد العزيز الفائز، الرياض، ١٤١٠هـ/١٩٨٩م.

ـــ تراثنا الفكري، للشيخ محمد الغزالي، الطبعة الثانية، (منقحة ومزيدة) ١٤١٢هـ/ ١٩٩١م.

ـــ مدخل إلى إسلامية المعرفة: مع مخطط لإسلامية علم التاريخ، للدكتور عماد الدين خليل، الطبعة الثانية (منقحة ومزيدة)، ١٤١٢هـ/ ١٩٩١م.

ـــ إصلاح الفكر الإسلامي، للدكتور طه جابر العلواني، الطبعة الثالثة، الدار العالمية للكتاب الإسلامي، الرياض، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م.

ـــ إسهام الفكر الإسلامي في الاقتصاد المعاصر، أبحاث الندوة المشتركة بين مركز صالح عبدالله كامل للأبحاث والدراسات/ بجامعة الأزهر والمعهد العالمي للفكر الإسلامي، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م.

ثانيًا ـــ سلسلة إسلامية الثقافة

ـــ دليل مكتبة الأسرة المسلمة، خطة وإشراف الدكتور عبد الحميد أبو سليمان، الطبعة الثانية (منقحة ومزيدة) الدار العالمية للكتاب الإسلامي، الرياض ١٤١٢هـ/١٩٩٢م.

ـــ الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف، للدكتور يوسف القرضاوي (بإذن من رئاسة المحاكم الشرعية بقطر)، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.

ثالثًا ـــ سلسلة قضايا الفكر الإسلامي

ـــ حجية السنة، للشيخ عبد الغني عبد الخالق، الطبعة الثانية، دار الوفاء، القاهرة، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م.

ـــ أدب الاختلاف في الإسلام، للدكتور طه جابر العلواني، الطبعة الخامسة (منقحة ومزيدة) ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م.

ـــ الإسلام والتنمية الاجتماعية، للدكتور محسن عبد الحميد، الطبعة الثانية، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م.

ـــ كيف نتعامل مع السنة النبوية: معالم وضوابط، للدكتور يوسف القرضاوي، الطبعة الخامسة، دار الوفاء، القاهرة، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م.

ـــ كيف نتعامل مع القرآن: مدارسة مع الشيخ محمد الغزالي أجراها الأستاذ عمر عبيد حسنة، الطبعة الثالثة، دار الوفاء، القاهرة، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م.

- مراجعات في الفكر والدعوة والحركة، للأستاذ عمر عبيد حسنة، الطبعة الثانية، دار القارئ العربي، القاهرة، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م.
- حول تشكيل العقل المسلم، للدكتور عماد الدين خليل، الطبعة الخامسة، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م.
- المسلمون والبديل الحضاري للأستاذ حيدر الغدير، الطبعة الثانية ١٤١٢هـ/١٩٩٢م.
- مشكلتان وقراءة فيهما للأستاذ طارق البشري والدكتور طه جابر العلواني، الطبعة الثالثة، دار القارئ العربي، القاهرة، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م.
- حقوق المواطنة: حقوق غير المسلم في المجتمع الإسلامي، للأستاذ راشد الغنوشي، الطبعة الثانية، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م.

رابعًا ــ سلسلة المنهجية الإسلامية

- أزمة العقل المسلم، للدكتور عبد الحميد أبو سليمان، الطبعة الثالثة، دار القارئ العربي، القاهرة، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م.
- المنهجية الإسلامية والعلوم السلوكية والتربوية: أعمال المؤتمر العالمي الرابع للفكر الإسلامي،
  الجزء الأول: المعرفة والمنهجية ، ١٤١١هـ/ ١٩٩٠م.
  الجزء الثاني: منهجية العلوم الإسلامية، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م.
  الجزء الثالث: منهجية العلوم التربوية والنفسية، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م.
- معالم المنهج الإسلامي، للدكتور محمد عمارة، الطبعة الثانية، ١٤١٢هـ/ ١٩٩١م.
- في المنهج الإسلامي: البحث الأصلي مع المناقشات والتعقيبات، الدكتور محمد عمارة، القاهرة، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م.
- خلافة الإنسان بين الوحي والعقل، للدكتور عبد المجيد النجار، الطبعة الثانية، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م.
- المسلمون وكتابة التاريخ: دراسة في التأصيل الإسلامي لعلم التاريخ، للدكتور عبد العليم عبد الرحمن خضر، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م.
- في مصادر التراث السياسي الإسلامي: دراسة في إشكالية التعميم قبل التأصيل والاستقراء، للأستاذ نصر محمد عارف، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م.

خامسًا ــ سلسلة أبحاث علمية

- أصول الفقه الإسلامي: منهج بحث ومعرفة، للدكتور طه جابر العلواني، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.
- التفكر من المشاهدة إلى الشهود، للدكتور مالك بدري، الطبعة الثالثة، (منقحة) ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م.
- العلم والإيمان: مدخل إلى نظرية المعرفة في الإسلام، للدكتور إبراهيم أحمد عمر، الطبعة الثانية (منقحة) ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م.
- فلسفة التنمية: رؤية إسلامية، للدكتور إبراهيم أحمد عمر، الطبعة الثانية (منقحة) ١٤١٣هـ/١٩٩٢م.
- دور حرية الرأي في الوحدة الفكرية بين المسلمين، للدكتور عبد المجيد النجار، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م.

سادسًا ــ سلسلة المحاضرات

- الأزمة الفكرية المعاصرة: تشخيص ومقترحات علاج، للدكتور طه جابر العلواني، الطبعة الثانية، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م.

سابعًا ــ سلسلة رسائل إسلامية المعرفة

- خواطر في الأزمة الفكرية والمأزق الحضاري للأمة الإسلامية، للدكتور طه جابر العلواني، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م.
- نظام الإسلام العقائدي في العصر الحديث، للأستاذ محمد المبارك، القاهرة، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م.
- الأسس الإسلامية للعلم، للدكتور محمد معين صديقي، القاهرة، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م.

— قضية المنهجية في الفكر الإسلامي، للدكتور عبد الحميد أبو سليمان، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م.
— صياغة العلوم صياغة إسلامية، للدكتور اسماعيل الفاروقي، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م.
— أزمة التعليم المعاصر وحلولها الإسلامية، للدكتور زغلول راغب النجار، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م.

ثامنًا — سلسلة الرسائل الجامعية

— نظرية المقاصد عند الإمام الشاطبي، للأستاذ أحمد الريسوني ، الطبعة الأولى، دار الأمان — المغرب، ١٤١١هـ/١٩٩٠م، الطبعة الثانية، الدار العالمية للكتاب الإسلامي — الرياض ١٤١٢هـ/١٩٩٢م، الطبعة الثالثة، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م.
— الخطاب العربي المعاصر: قراءة نقدية في مفاهيم النهضة والتقدم والحداثة (١٩٧٨—١٩٨٧)، للأستاذ فادي إسماعيل، الطبعة الثانية (منقحة ومزيدة)، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م، الطبعة الثالثة، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢.
— منهج البحث الاجتماعي بين الوضعية والمعيارية، للأستاذ محمد محمد إمزيان، ١٤١٢هـ/ ١٩٩١م.
— المقاصد العامة للشريعة: للدكتور يوسف العالم، ١٤١٢هـ/١٩٩١م.
— نظريات التنمية السياسية المعاصرة: دراسة نقدية مقارنة في ضوء المنظور الحضاري الإسلامي، للأستاذ نصر محمد عارف، الطبعة الثالثة، دار القارئ العربي، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م.
— القرآن والنظر العقلي، للأستاذة فاطمة إسماعيل، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م.
— نظرية المعرفة بين القرآن والفلسفة، للدكتور راجح الكردي، دار المؤيد، الرياض، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م.
— مصادر المعرفة في الفكر الديني والفلسفي، للدكتور عبد الرحمن الزنيدي، دار المؤيد الرياض، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م.
— الزكاة: الأسس الشرعية والدور الإنمائي والتوزيعي، للدكتورة نعمت عبد اللطيف مشهور، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت ١٤١٣هـ/١٩٩٣م.
— فلسفة الحضارة عند مالك بن نبي: دراسة إسلامية في ضوء الواقع المعاصر، للدكتور سليمان الخطيب، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع. بيروت ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م.
— الأمثال في القرآن الكريم، للدكتور محمد جابر الفياض، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م.

تاسعًا — سلسلة المعاجم والأدلة والكشافات

— الكشاف الاقتصادي لآيات القرآن الكريم، للأستاذ محي الدين عطية، ١٤١٢هـ/ ١٩٩١م.
— الكشاف الموضوعي لأحاديث صحيح البخاري، للأستاذ محي الدين عطية، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م.
— الفكر التربوي الإسلامي، للأستاذ محي الدين عطية، الطبعة الثالثة (منقحة ومزيدة) ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م.
— قائمة مختارة: حول المعرفة والفكر والمنهج والثقافة والحضارة، للأستاذ محي الدين عطية، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م.
— معجم المصطلحات الاقتصادية في لغة الفقهاء، للدكتور نزيه حماد، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م.

عاشرًا — سلسلة تيسير التراث

— كتاب العلم، للإمام النسائي، دراسة وتحقيق الدكتور فاروق حمادة، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م.

حادي عشر — سلسلة حركات الإصلاح ومناهج التغيير

— هكذا ظهر جيل صلاح الدين.. وهكذا عادت القدس، للدكتور ماجد عرسان الكيلاني، الطبعة الثانية (منقحة ومزيدة)، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م.

ثاني عشر — سلسلة المفاهيم والمصطلحات

— الحضارة — الثقافة — المدنية (دراسة لسيرة المصطلح ودلالة المفهوم)، للأستاذ نصر محمد عارف ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م.

الموزعون المعتمدون لمنشورات المعهد العالمي للفكر الإسلامي

المملكة العربية السعودية: الدار العالمية للكتاب الإسلامي ص.ب 55195 الرياض 11534
تليفون: 0818-465-1 (966) فاكس: 3489-463-1 (966)

المملكة الأردنية الهاشمية: المعهد العالمي للفكر الإسلامي ص.ب. 9489 - عمان
تليفون: 992-639 (6-962) فاكس: 420-611 (6-962)

لبنان: المكتب العربي المتحد ص.ب. 135788 بيروت.
تليفون 779-807 (1-961) 184-860 (1-961) فاكس: 1491-478 (212)

المغرب: دار الأمان للنشر والتوزيع، 4 زنقة المامونية الرباط
تليفون: 276-723 (7-212) فاكس: 055-200 (7-212)

مصر: دار النهار للطبع والنشر والتوزيع، 7 ش الجمهورية عابدين – القاهرة
هاتف 3406543 (2-20) فاكس 3409520 (2-20)

الإمارات العربية المتحدة: مكتبة القراءة للجميع ص.ب 11032، دبي (سوق الحرية المركزي الجديد)
تليفون: 901-663 (4-971) فاكس 084-690 (4-971)

شمال أمريكا:

- السعداوي/ المكتب العربي المتحد · SA'DAWI PUBLICATIONS /UNITED ARAB BUREAU
P.O. Box 4059, Alexandria, VA 22303 USA. Tel: (703) 329-6333 Fax: (703) 329-8052

- خدمات الكتاب الإسلامي — ISLAMIC BOOK SERVICE
10900 W. Washington St. Indianapolis, IN 43231 USA
Tel: (317) 839-9248 Fax: (317) 839-2511

بريطانيا:

- المؤسسة الإسلامية — THE ISLAMIC FOUNDATION
Markfield Da'wah Center, Ruby Lane Markfield, Leicester LE6 ORN, U.K.
Tel: (44-530) 244-944/45 Fax: (44-530) 244-946

- خدمات الإعلام الإسلامي — MUSLIM INFORMATION CENTRE
233 Seven Sisters Rd. London N4 2DA, U.K.
Tel: (44-71) 272- 5170 Fax: (44-71) 272-3214

فرنسا: مكتبة السلام — LIBRAIRE ESSALAM
135 Bd. de Menilmontant. 75011 Paris Tel: (33-1) 43 38 19 56 Fax: (33-1) 43 57 44 31

بلجيكا: سيكومبكس — SECOMPEX. Bd. Mourice Lemonnier; 152
1000 Bruxelles Tel (32-2) 512-4473 Fax (32-2) 512-8710

هولندا: رشاد للتصدير — RACHAD EXPORT, Le Van Swinden Str. 108 11
1093 Ck Amsterdam Tel: (31-20) 693-3735 Fax (31-20) 693-8827

الهند: GENUINE PUBLICATIONS & MEDIA (Pvt.) Ltd.
P.O Box 9725 Jamia Nager New Delhi 100025 India
Tel: (91-11) 630-989 Fax: (91-11) 684-1104

المعهد العالمي للفكر الإسلامي

المعهد العالمي للفكر الإسلامي مؤسسة فكرية إسلامية ثقافية مستقلة أنشئت وسجلت في الولايات المتحدة الأمريكية في مطلع القرن الخامس عشر الهجري (١٤٠١هـ - ١٩٨١م) لتعمل على:

- توفير الرؤية الإسلامية الشاملة، في تأصيل قضايا الإسلام الكلية وتوضيحها، وربط الجزئيات والفروع بالكليات والمقاصد والغايات الإسلامية العامة.
- استعادة الهوية الفكرية والثقافية والحضارية للأمة الإسلامية، من خلال جهود إسلامية العلوم الإنسانية والاجتماعية، ومعالجة قضايا الفكر الإسلامي.
- إصلاح مناهج الفكر الإسلامي المعاصر، لتمكين الأمة من استئناف حياتها الإسلامية ودورها في توجيه مسيرة الحضارة الإنسانيّة وترشيدها وربطها بقيم الإسلام وغاياته.

ويستعين المعهد لتحقيق أهدافه بوسائل عديدة منها:

- عقد المؤتمرات والندوات العلميّة والفكريّة المتخصصة.
- دعم جهود العلماء والباحثين في الجامعات ومراكز البحث العلمي ونشر الإنتاج العلمي المتميز.
- توجيه الدراسات العلميّة والأكاديمية لخدمة قضايا الفكر والمعرفة.

وللمعهد عدد من المكاتب والفروع في كثير من العواصم العربية والإسلامية وغيرها يمارس من خلالها أنشطته المختلفة، كما أن له اتفاقات للتعاون العلمي المشترك مع عدد من الجامعات العربية الإسلامية والغربيّة وغيرها في مختلف أنحاء العالم.

The International Institute of Islamic Thought
555 Grove Street (P.O. Box 669)
Herndon, VA 22070-4705 U.S.A
Tel: (703) 471-1133
Fax: (703) 471-3922
Telex: 901153 IIIT WASH

هـذا الكتـاب

جزء من عمل ضخم استغرق إنجازه ما يزيد عن عشر سنوات وشـارك فيه فريق مكون من **سبعة وعشـرين أستاذاً وباحثاً** من المتخصصين فى العلاقات الدوليـة والقانون الدولى والتاريخ الإسلامى والعلوم السياسية ، يتحاورون ويتدارسون قضايا العلاقات الدولية فى الإسلام فى اجتماعات شهرية ونصف شهرية .

وقد أثمر هذا الجهد إنتاجاً أكاديمياً متميزاً فى أربعة مجالات هى :

- أصول وقواعد ومناهج التعامل مع المصادر الإسلامية عند التنظير للعلاقات الدولية فى الإسلام (**الأجزاء : الأول والثانى والثالث**) .
- العلاقات الدولية كما يمكن استباطها من الأصول الإسلامية : القرآن والسنة وخبرة الخلفاء الراشدين (**الأجزاء : الرابع والخامس والسادس**) .
- العلاقات الدولية فى التاريخ الإسلامى (**من الجزء السابع وحتى الثانى عشر**) .
- العلاقات الدولية فى الفكر السياسى الإسلامى (**الأجزاء:الثالث عشر والرابع عشر**)
- وسوف يتم اختصار هذا المشروع ، واستخلاص أفكاره فى صورة كتاب دراسى يكون صالحاً للتدريس فى الجامعات .

ويمكن القول ـ دون مبالغة ـ أن هذا الإنتاج هو الأول من نوعه فى هذا المجال العلوم الإجتماعية والإنسانية فى الدول العربية والإسلامية ، لذلك لا يجب الوقوف ينبغى أن يكون بداية لانطلاقة بحثية تسير على منهجه ، وتجاوزه وتبنى على قض عليها ، وتعمق جزئياته ، وتستدرك عليها . بل أن خطته ومنهج تناوله ينبغى علوم وتخصصات إجتماعية أخرى .